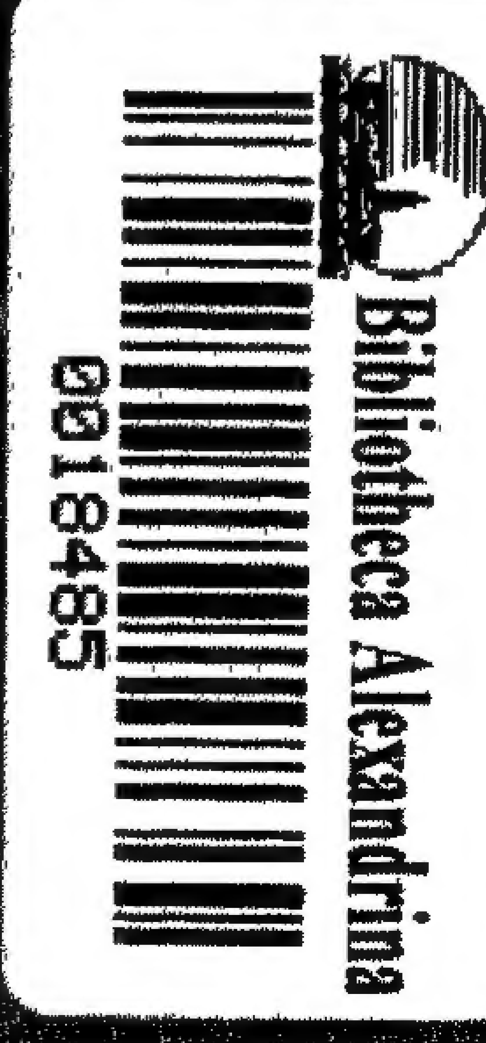
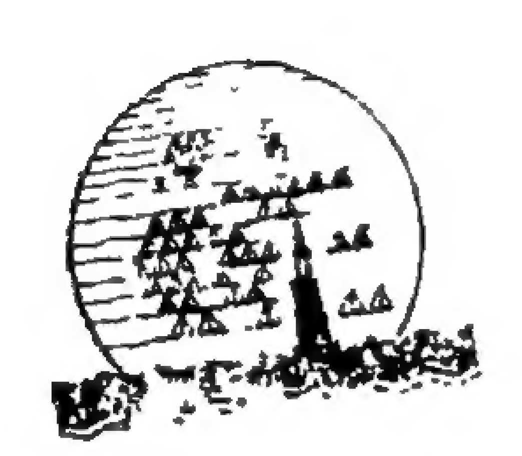
حديث مع
جون كلفن



حديث مع

چون كلفن



للقس لبيب مشرقي

رقم ايداع ٨٥/٢٤٣٦
طبع : دار نوبار للطباعة

محتويات هذا الكتاب

اعــتراف

انني أشكر الله إلهي وسيدي الله الثالوث الأقدس
وازجي التقدير للأحباء

دكتور فؤاد بولس
دكتورة سميرة زكي
القس جندي إبراهيم
الشاعر الأستاذ خليل جرجس خليل
الآنسة أحلام حليم

وللإخوة والأبناء الذين شاركوني
بفيض محبتهم في ظروفي القاسية
والذين عاونوا في إخراج هذا الكتاب
الذي بدأته بتردّد وختمته بدموع

ولكنني أقدمه بصلاة

الكتاب الذي ختمته بدموعي

كنت مع زوجتي في رحلة قصيرة خارج المدينة ، وكنت أرغب في ما يشبه الخلوة . لم أحمل معي إلا القليل من الأوراق التي سبقت فدونت عليها الملاحظات الكثيرة مع « تصميم » الكتاب الذي كنت قد قطعت شوطاً لا بأس به في بنائه . بالطبع وضعت في الحقيبة عدداً من العظات .لأنتقي منها ما يناسب إذا طلب مني أن أعظ . أما الكتب فقد حملت عدداً قليلاً منها حملتها لمجرد التسلية . وكان من بينها بعض الكتب التي تتصل بحياة « جون كلفن » . لم أكن أعرف إلا أنه فرنسي هرب من فرنسا بسبب الاضطهاد . وكنت أعرف أنه ذهب إلى سويسرا وأنه مؤسس أو على الأقل أحد أقطاب المؤسسين للنظام المشيخي . وكنت أسمع أنه رجل جاد جداً ، « جداً » ، إلى حد الخشونة ، عنيد جداً إلى حد الجمود . المرونة بعيدة عنه . وقد قيل لي أنه يحمل صورة بعيدة عن الجاذبية . لذلك قرأت عنه أولاً بدون شهية ، وبدأت أدون ملاحظاتي عن حياته بكثير من التردد !

لكنني لما توغلت في « درسه » رأيت شيئاً آخر . لا أقول أني أحببته ، لكني أعجبت به . وفكرت أن أنقل الصورة الجديدة التي اكتشفتها له لكنيستي ولذلك عدت إلى الكتب الكثيرة التي تتصل بهذه الحياة العزيزة عندي وعند غيري . وقرأت وقرأت .. ثم صممت على أن أكتب . لم أفكر في إخراج كتاب .. فكرت في كتابة نبذة صغيرة .. أو على الأكثر كتيب !!

وبعد جهد مضن وضعت « التصميم » للكتاب ، أقول وضعت « التصميم » ، الحقيقة أني انتهيت من وضع « التصميم » الأخير إذ أني وضعت أكثر من « رسم » واحد ، ومن ثم بدأت في البناء . بدأت في البناء في الوقت الذي كنت قد قطعت شوطاً كبيراً في بناء كتاب آخر عنوانه « الباحث عن الله » .

بدأت في الكتاب الثاني في أوائل سبتمبر ١٩٨٢ . لقد أخذ « التصميم » جهد سنتين ، « التصميم والتموين » ، وفرغت منه في الشهور الأولى من ١٩٨٣ .

كنت أصلي أن يمد الله في أيامي حتى أكمل الكتاب بل الكتابين ، لأني بدأت في الثاني ولم أكن قد فرغت من الأول ...

في العاشر من أغسطس كتبت آخر كلمة في مسودات الكتاب الأول . ونحيته بعيداً عني . أحسست أني أزيح عن عاتقي جبلاً ثقيلاً !

وفرغت من الكتاب الثاني ، كانت أوراقه متناثرة أمامي ، جمعتها كيفما كانت ، ثم رفعت عيني إلى المولى وقلت : ربي أشكرك . أنا مستعد . خذني إليك . لقد قطعت من التاسعة والثمانين بضعة شهور !!

أرسلت الأوراق إلى ابنة أخي . « دكتورة سميرة زكي » . وكنت قد عودتها منذ أيام دراستها أن تراجع كتبي قبل نشرها ، وهي بالرغم من أن عملها كطبيبة قد يبدو بعيداً عن رسالة القلم ، إلا أنها وقد جمعت الموهبتين راجعت الأوراق ورتبتها ورقمتها وأعادتها إليّ !!

وأرسلت هذه الأوراق المراجعة إلى الصديق الابن والزميل القس جندي إبراهيم الأستاذ في كلية اللاهوت الإنجيلية بمصر ليراجعها ويبدي رأيه فيها إذ أنه معني بدراسة « حركة الإصلاح » في الكلية ، وقد راجعها وأعادها إليّ مرفقة بكلمة تحية رقيقة !

وفكرت جدياً في إرسال هذه الأصول للمطبعة . على أن يتولى ابني فؤاد أمر إخراجها . قلت له أني أخشى أن « يوم العبور » يقترب ومن اللائق أن أطمئن على المراجعة السليمة . ولكنه قال أن الأعمار بيد الله ومن يعلم من « يعبر » أولاً !!!

وعبر هو أولاً !!!؟

كان عبوره مفاجئاً ، أحسست أن مطرقة تهوي على رأسي فتفقدني وعيي .. لا أزال أعيش في دوامة .. ها هي أصول الكتاب أمامي ولكنها غارقة في دموعي ...

نحيت « الكتاب » عني ، لم أعد أطيق النظر إليه .. ولكن الصديق الطبيب الدكتور فؤاد بولس ألح أن يقوم بنشره وأن يقدم كل العائد منه لمشروع التنمية السنودسية .. طلبت من الصديق الشاعر خليل جرجس خليل أن يصيغ عواطف قلبي في أبيات من الشعر ، وقد سبق أن مرّ في الطريق الذي أمر به . وقد فعل مشكوراً .

والآن ، هذا كتاب بدأته متضرراً وختمته باكياً .

ولكني أقدمه مصلياً أن يكون ممجداً للسيد معاوناً على امتداد ملكوته .

خادم المسيح
لبيب مشرقي



اهـــداء

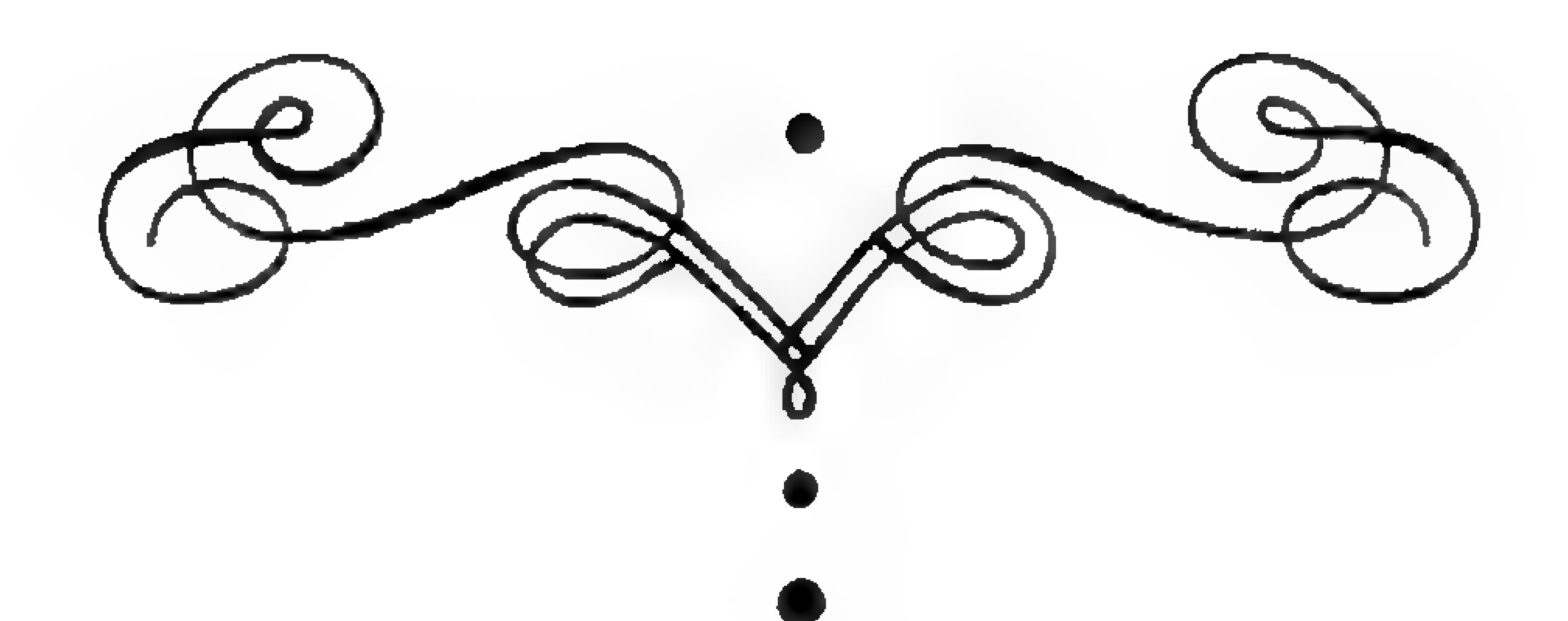
ولدي « فؤاد » لقد رحلت .. وكم أتـــوق إلى اللقـــاء
خطف المنون شبابك المرجو ، فأخلـــد في السمـــاء
بحمى المسيـــح وفي النـعيم أنـــا وأنت على رجـــاء
ولـدي « فؤاد » ولا اعتراض على انطـلاقك .. أو بقـائي
إن كنت قد سبقت خطاك فمـــن يدوم بلا انتهاء ؟
والرب أن يأخــذ رجـــائي فكـم أفــاض من العطـــاء
عنـــد الإلـــه تصبري وشفـــاء نفسي بالعـــزاء
ياصحب لا تبكـوه بعـــد فلا غنـــاء من البكـــاء
قربانـنـــا هو : للمسيـــح وحسبنـــا رب الفـــداء

ولـــدي وأنت أعـــز أولادي وأجـــدر بالوفـــاء
إن كنت في الترحـــال لم تظفـــر بزاد أو ثراء
فالـيك إهـــدائي لروحك .. ذا الكتـــاب .. للاهتـــداء
فيـــه سطـــور من حديث الـــروح صيـــغت من دمـــائي
فيـــه صحائـــف من يراع قد تطهـــر بالنقـــاء
وجـــهت فيـــه إلى المفكـــر « جون كلفـــن » من ندائي
وجعـــلت منـــه ختـــام أسفـــاري وكتبـــي وانتمائي
وعسى الكتـــاب يكـــون ذا نفـــع أخلّفـــه ورائي
جهـــدي القليـــل وهبتـــه لك ياحبيبـــي مع دعـــائي
فإذا قبـــلت هديتـــي فمـــع القبـــول أرى عزائي

والـدك
لبيب مشرقي

(كتب الشعر الشاعر خليل جرجس خليل)

الجزء الأول



لقطات من حياة المصلح

تمهيد

ــ اليوم الأول من سبتمبر ١٩٨٢ .

في العاشر من الشهر الماضي أنهيت تقريباً العقد التاسع من الأيام التي منحني إياها الله . أي أني أخذت كل الأيام التي ذكرها موسى حينما قال : أيام سنينا سبعون سنة وإن تكن مع القوة فثمانون . ومنحني الله بصفة استثنائية ثماني سنين أخرى إلى الآن . وقد ترددت وأنا أبدأ هذه الصفحة : هل أبدأ بها . وبعد صراع قلت : لماذا لا ؟ إنه لا ضير في البدء . ومن يعلم فربما سمح الله ببعض الخير : سأبدأ إذن باسم السيد المسيح ــ وإذ ذاك بدأت أكتب الرسالة الآتية :

١٩٨٢/٩/١

إلى السيد المعروف باسم جون كلفن
بالمملكة العليا

نعمة لك وسلام من الآب والابن والروح القدس . أثق أن كتابي هذا سيصلك في حينه ، لأني أعلم أن نظام البريد في المملكة العليا مرتب خير ترتيب !

ولعلك تسأل نفسك عن سر هذا الكتاب : لماذا أكتب بعد أن قطعت من أيام الدنيا هذه السنوات كلها ، الكثيرة بحساب الدنيا .. لماذا تأخرت ؟ ينبغي أن أعترف أني بالرغم من أني كنت أعرف اسمك ، وبالرغم من أني منتسب إليك ، فاني في الحقيقة لم أكن أعرف إلا أقل القليل جداً عنك . ومع أن الذين قرأوا حديثي مع « مارتن لوثر » ظنوا أني أعرف الكثير عنك ، إلا أني في الحقيقة لم أكن أعرف شيئاً عنك . أو لنقل لم أكن أعرف إلا القليل وما قلته للوثر كان مجرد كلمات نطقت بها ونسيتها حالما انتهيت من تلاوتها . كنت أسمع أنك في « جنيف » وأنك مؤسس النظام المشيخي . لست متأكداً إن كنت قد سمعت عن كتابك « المباديء » . أم لم أسمع . ومع أن كنيستنا في مصر تتبع « اسمياً » « النظام المشيخي » ، فهي على الأقل من نواحي كثيرة ، تتبع « النظام الاستقلالي » أو ما يدعونه في بعض الجهات « الجمهوري » . أقول مع أننا نتبع النظام المشيخي إلا أنني لم أهتم بحياة الرجل الذي وضع هذا النظام .

وأنا أقر أن هذا إهمال جسيم يكاد يكون خطية . ومع أنني قمت بتلقين طالبي الخدمة في كنيستنا أسس النظام المشيخي وكنت متحمساً له إلا أني لم أفكر في ذلك الرجل العظيم الذي وضع بدمه أسس ذلك النظام . ولعلك عندما تقرأ في حديثي مع مارتن لوثر أني وقفت إلى جانبك بقوة ، تظن أني كنت أعرف الكثير عنك ، أعترف لك يا سيدي بكل خجل أن الأمر ليس كذلك !!

لقد قيد اسمي في سجل الكنيسة المشيخية على ما أذكر عام ١٩٠٩ ـــ أي بعد ولادتك بـ ٤٠٠ سنة . وطيلة السنين الماضية لم أفكر كثيراً في أساس الكنيسة التي انضممت إليها .

ـــ سنة ١٩٦٤

في سنة ١٩٦٤ وفي ١٠ أغسطس بالذات ، كان عمري ٧٠ سنة ، كنت في جنيف . وهناك سمعت شيئاً عن « كلفن » وكتب « كلفن » . وهنا أيضاً أعترف لك أني لم أفكر فيك . فكرت في « مارتن لوثر » . ومع أني اختلفت معه ولا أزال أختلف ، إلا أن « عملاقيته » إذ ذاك غطت على كل عملاقية أخرى . كنت في ألمانيا في سنة من السنين وكنت مدعوا مع جماعة من الرفاق لتناول الشاي على مائدة كردينال برلين . وقبل أن نصل إلى المكان رأينا موكب الكاردينال متجهاً نحو الكاتدرائية ، موكباً رائعاً .. قلت في نفسي : من هو الرجل الذي يجسر أن يقف أمام مثل هذا الموكب ؟ ذكرت الرجل الذي وقف في « ورمس » أمام الإمبراطور والكرادلة والأساقفة والأمراء .. وقلت : إمَّا أن هذا الرجل مجنون أو عملاق ؟؟ كان هذا « لوثر » يا صديقي ، ولذلك انكمشت كل صورة أخرى أمامه . وربما كان لحديث « لوثر » عما أتته « الكلفينية » من أعمال مشابهة « لمحكمة التفتيش » ، ما أبعدها وأبعد زعيمها عن ذهني . الحقيقة يا صديقي أني لم أذكر ما قاله « لوثر » إلا الأمس فقط عندما عدت إليه . وفي نفس الوقت ينبغي أن أعترف لك أن جهلنا « بكلفن » وبالتالي بنظامه ، أقصد أساس نظامه ، ليس خطيتي وحدي .. أخشى أن تكون خطية الكنيسة الإنجيلية كلها .. أقصد في مصر .

هذا ، ومع أني لا أعبد الأشخاص ، إلا أني أعرف أن اهمال « كلفن » هو في نفس الوقت اهمال لنظامه الذي نؤمن ونعتز به ، لذلك أحسست أن من الواجب أن أكتب لك .

واليوم أيضاً وأنا أقلب في الكتب ، أقصد المؤلفات التي وصلتني لكي أنقدها ، رأيت بين الكتب الجديدة ترجمة كتاب عنك ، الكتاب لمؤلف لم أقرأ له قبل اليوم ما يعرفني به . عنوان الكتاب « مصلح في المنفى » ، وقد ترجمه كاتب هو الاستاذ / وليم وهبة بباوي . وينبغي أن أشهد أن الكتاب حوى في أوراقه القليلة ما تعجز أية مجلدات أن تحويه . تأثرت جداً من قراءة الكتاب . قرأته مرة ومرتين وثلاث مرات ، وإذ ذاك فكرت أو على الأصح رجوت أن يمنحني الله بركة الجلوس إليك والتحدث معك .. وفي الحال .

جثوت أمام الله والتمست أن يسمح لك بالمجيء للجلوس معي والتحدث إليّ . وقد ذكرت في أول حديثي أني ترددت ، وسأذكر لك سبب طلبي وسبب ترددي .

لقد طلبت لأني أحسست أن من الخطية أن لا نعرف النظام الكنسي الذي نسير عليه . وترددت لأني لما سمحت العناية أن ألقي نظرة على حياتك وأعمالك رأيت أوقيانوساً لا شواطيء له . لم أعرف أين أبدأ وإلى أين أنتهي . وأيامي كما أرى بحساب الأرض قصيرة فإلى أين أصل معك . على أني أولاً طلبت المعونة من الله وثانياً قلت في نفسي أنه لا يجوز أن أحكم في ما يقوم الله به من عمل على يدي . سأبدأ ، وعندما يأمر السيد أن أضع القلم سأضعه . إنه هو الذي يعرف النهاية . ولست أنا الذي أعرف أين النهاية . ولذلك التمست من السيد أن يسمح بهذا اللقاء وأنا واثق أنه سيسمح به . وسأبدأ بنعمة الله كتاب « حديث مع جون كلفن » . شكراً لله .

ملاحظة : أرسلت هذا الكتاب إلى ملكوت النعمة واثقاً أنك في ذلك الملكوت إذ قد كانت رسالتك طول حياتك على الأرض « إنجيل النعمة » .

المؤمن في نعمة السيد
لام

الحديث الأول

بيت جون كلفن

١٩٨٢/٩/١

جاء « جون » في نفس اليوم ، ليس هذا هو « جون كلفن » الذي قالوا لي عنه . لقد وصفوه بالصرامة والخشونة . قالوا إنه قلما تتجلى الرقّة على وجهه . ولكنه ــ وهو معذور ــ يبدو في غالب الأحايين متجهم الوجه . لقد لاقى مقاومة من أعداء وأصدقاء . ولاقى متاعب في البيت وخارج البيت ، مرضت زوجته مدة طويلة وماتت في سنّ مبكرة ، ولاقى مآسي من بعض أفراد أسرته . لكني رأيته صبوح الوجه باسماً وقال : هأنذا ياصديقي قد جئت . ولا شك أنني كنت مستعداً أن أجيء منذ زمن . لقد عرفت أنك سبق أن تحدثت مع « مارتن لوثر » مع أنه لا توجد كنيسة لوثرية في مصر . لا أقول ذلك عاتباً ولكني أقول ذلك تأكيداً لاستعدادي !

قلت : أما وقد ذكرت « لوثر » فاني إلى الآن أحس أنه كان من اللازم أن أتحدث معه . نعم ، لم يكن الوحيد الذي قام بحركة الاصلاح . لقد وجد قبله جنود ، أما « لوثر » فقد كان القائد . « لوثر » تعرض للقتل .. « لوثر » وقف أمام العالم أجمع . « لوثر » ترجم الكتاب المقدس إلى لغة الشعب . « لوثر » نفي في « بطمس » . « لوثر » هزَّ العالم كله . « لوثر » لم يقتل أحداً خالفه . ربما الأفضل أن أقول لم يوافق على أن يُقتل أحد خالفه ، على أنك إذا راجعت حديثي مع « لوثر » فستجد أني أنصفتك واضطررته أن ينصفك . على أني أتساءل : لماذا نقف هنا . أني أعتقد أن النعمة هي التي كونتك ، ولكنني أعتقد أيضاً أن النعمة تعمل بواسطة الأداة البشرية ، لذلك تراني أهتم بأشياء قد لا يراها الناس ذات أهمية أساسية . فأسألك أن تذكر لي شيئاً عن نشأتك ، أقصد البيت الذي ولدت فيه والبيئة التي عشت تتنفس هواءها ، وقبل أن أكمل كلامي تحدث « جون كلفن » وقال :

(أ) الطفل جين :

البلدة التي ولدت فيها « نوبون » وهي لا تبعد كثيراً عن « باريس » . أبي « جيرار كوفن » . ولذلك تسمع اسمي « جون كوفن » أو « جون كالفينوس » أو « جون كلفن » . على أني معروف أكثر باسم « جون كلفن » . دعني أقول لك أني لم أكن أحب أن أحداً يكتب عني شيئاً . أنا كتبت شيئاً عن ذلك بكل اختصار في مقدمة تفسير سفر المزامير . وأنت تعرف ولا شك أن « لوثر » أو « كالفن » أو « زونجلي » أو « ميلانكثن » أو « ويكلف » أو أي إنسان آخر حتى « إثناسيوس » ليسوا أكثر من أداة في يد النعمة . وأنا أتحدث الآن لأن الأمر الإلهي صدر لي بذلك . أبي ، كما قلت لك « جيرار كوفن » وكان يشغل وظيفة مرموقة لها علاقة بالكاتدرائية المشهورة التي كرس فيها الملك الاسطوري « شارل مارتل » الذي أوقف الزحف العربي على أوربا في موقعة « تورز » المشهورة . وأمي « جين ليفرانك » وقد أخبروني أنها كانت آية في الجمال وآية في التقوى . كانت بالطبع تتبع المذهب الكاثوليكي . وقد ماتت بعد سنوات قليلة من ولادتي . ولكن قبل موتها بقليل ، وعندما كان عمري ثلاث سنوات حملتني لزيارة الكنائس والأديرة المشهورة ، وهناك ــ على ما أخبروني ، في ما بعد ــ نلت بركة تقبيلي لجزء من رأس « القديسة آن » ، ومع ذلك فاني أذكر ، ترى هل أذكر حقاً ، أم أن تأثير ما سمعت جعلني أتخيل أني أذكر ــ إني كنت في حضن أمي وهي تقول ، مشيرة إلى عظام وصور في الكاتدرائية العظيمة ، هذه صورة يوحنا المعمدان ، هذه بقايا القديس ... هذه صورة السيدة العذراء أم الإله ، هذه صورة القديسة ...

وفي البيت كانت تروي لي قصص القديسين وما قاموا به من آيات ومعجزات ، مما كان سبب بركة لها ولي ، وكانت تعلمني أن أرفع لهم المدائح والتسبيحات لئلا يصيبني من عدم رضاهم ما يجلب النكبات عليّ وعلى بيتنا كله . وأنا إلى الآن أذكر بعض هذه المدائح ..

في ذلك الوسط نشأت ياصديقي . أقصد مرحلة طفولتي . وأنت تعلم عمق الأثر في حياة الإنسان ، طابع التعليم في الطفولة . صمت « جون » قليلاً ثم عاد إلى حديثه :

(ب) الشباب المبكر ومدارس الشباب :

وقد التحقت بالمدارس التي كان يلتحق بها أبناء البيوتات ، وكان التعليم قد ارتفع مستواه عندما التحقت بالمدارس . فلقد بدأ في إيطاليا في خلال المائة عام السابقة لمولدي تغيير

جذري في مناهج التعليم في المدارس والجامعات ليصبح شديد الاهتمام بالجانب الإنساني من التعليم . ومن إيطاليا انتشر هذا الأسلوب إلى كل أوربا .

قلت : وماذا كان التعليم قبل ذلك ؟

قال : كان أساس التعليم : الطبيعة والله والعقائد والأفكار . فأصبح « الإنسان » هو مركز هذه المناهج ، الإنسان كما فهمه قدماء اليونان من أمثال أفلاطون وأرسطو .. وخصوصاً « سينيكا » زعيم « الفلسفة الرواقية » !!

وقد بدأت دراستي في مسقط رأسي في « نوبون » في « كلية كابيت » . وأعتقد أني كنت طالباً نابهاً . وفي الرابعة عشرة من عمري التحقت بكلية « دي لامارش » في جامعة « باريس » ـــ وفي هذه الكلية ، أم أقول ، في تلك الكلية ؟

قلت : لا تشغلك « قواعد النحو » خصوصاً وأنا لست من دعاة النحو والصرف

قال : نعم في تلك الكلية كان أستاذ عملاق يدرس اللغة اللاتينية هو الاستاذ « ماتورين كورديه » . وقد اجتذبت التفاته باهتمامي الزائد بذوقه الرفيع وأسلوبه الرائع في التعبير . وقد نقلت عنه هذا الأسلوب . كما اكتسبت إجادة اللغة اللاتينية . وقد تجلّى هذا في كتاب « المباديء » . وهو الكتاب الذي صار عنواناً كبيراً لرسالتي ، وسنتحدث عنه فيما بعد . ويمكنني أن أقول أن ذلك الكتاب كان من أفضل الكتب التي ظهرت في زمن النهضة .

قلت : يسوءني أني لم أطلع على النسخة الأصلية لهذا الكتاب . على أنه بلغني أن « مارتن لوثر » لأي نسخة الطبعة الأولى في إحدى المكتبات العامة فوقف وبدأ يقرأ .. وظل يقرأ . فلما تعب من الوقوف جلس وجعل يقرأ ويقرأ إلى أن فرغ من قراءة النسخة .. ثم هزّ رأسه وقال كنت أتمنى أن أرى هذه النسخة قبل ذلك .. يغلب أنها كانت تترك آثارها على مسيرتي !!

قال كلفن : وأنا أيضاً أعتقد أننا لو كنا تقابلنا « لوثر » وأنا ، لكانت النتيجة اتفاقاً .. على كل حال أنا شعرت بديني الكبير « لكورديه » فأهديت إليه كتابي « شرح الرسالة الأولى إلى التسالونيكيين » . قلت في كلمة الإهداء : « لقد أعانني تعليمك معونة كبيرة لدرجة يجب عليّ معها أن أعترف بأني مدين لك بكل ما بلغته من تقدم » !!

قلت : ترى هل استمرت دراستك في « كلية دي لامارش » ؟

أجاب : في الحقيقة لا ، إذ أني لم أقض فيها إلا فترة قصيرة ، انتقلت بعدها إلى كلية « دي مونتجو » المحافظة المتزمتة . وكانت هي أيضاً جزءاً من جامعة باريس . كان رئيسها « نوبل بيدا » أشد عدو للوثرية ، قاومها بعنف لا مزيد عليه . وخلفه في الرياسة « بيير تميت » وكان أشد عنفاً من سابقه ورغم ذلك فقد كان لهذه الكلية فضل بل أفضال عليّ . كان في الكلية الاستاذ الكبير « أنطونيو كورونيل » أستاذ اللغة اللاتينية والأستاذ « أوكها مست » أستاذ الفلسفة بل أن « بييدا » الرئيس وكان يدرس المنطق ، وكان أستاذاً قديراً ، هؤلاء الأساتذة صنعوا مني « كلفن » الذي تراه وتعجب به !

وعندما بلغت السابعة عشرة من عمري طلب مني أبي أن أترك دراسة الفلسفة ــ التي كانت تنتهي بي إلى الكهنوت ــ وألتحق بدراسة القانون . كان أبي يرى الربح المادي في دراسة القانون . وقد قبلت راضياً طلب أبي . علمت فيما بعد بعض أسرار هذا الطلب أو ظننت أني علمت .....

على كل حال ، قبلت طلب أبي وشرعت في دراسة القانون في « أورليان » وكان فيها أشهر كليات القانون في ذلك الوقت . مكثت في دراسة القانون ثمانية عشر شهراً . كنت أدرس على يدي « الأستاذ بيير لا توال » أشهر أستاذ للقانون في فرنسا في ذلك الوقت . وقد التحق بهذه الكلية « ملكيور ولمار » من « ورتنبرج » ومنه تعلمت الكثير . لا القانون فحسب بل أيضاً الكثير من علم اللاهوت اللوثري ، وبتأثيره أيضاً بدأت في دراسة اللغة اليونانية !!

بلغت العشرين .. غادر « ولمار » أورليان ليلتحق بالكلية في « بورج » فلحقت به . وهناك درست عند قدمي « أندريا السياتي » الأستاذ الكبير أشهر أساتذة القانون الروماني !!

قلت : تقول انك تلقيت القانون عند قدمي الأستاذ « السياتي » الرجل المتعجرف الذي كان ينعت الفرنسيين الذين جاء يعلمهم ، بالهمجية ، كان يقول إنه سفير الحضارة الإيطالية « للبرابرة الفرنسيين » . ألم تحتقر ذلك الرجل ؟ ألم تنبذه ؟

وقال كلفن : لقد أبغضته ، جداً . ولكني حاولت أن أفصل بين عواطفي وعقلي . لقد كان الرجل فعلاً عملاقاً . كانت هناك عدة مسائل قانونية أحسست أني في مسيس الحاجة إليه حتى يشرحها لي . أحسست أني أكثر اقتناعاً بحاجتي إلى إتقان الكتابة باللاتينية في أسلوب محكم متناسق . وكان « السياتي » أستاذاً في هذا الموضوع . ومكثت في « بورج » سنتين .. عندما تركتها لأسباب !!

عدت إلى « نوبون » وعمري واحد وعشرون سنة (١٥٢١) استدعوني لأرى أبي المريض ومات أبي . فانقطعت عن دراسة القانون . أحسست أني قد أصبحت حراً في اختيار مستقبلي نعم أني أطعت أبي راضياً ولكني أطعته لأنه أبي !

(جـ) الدراسة التي اختارها الله لي :

انقطعت عن الدراسة في الكليات . فكرت أن أدرس لنفسي . رغبت أن أكتب . اخترت أن أشتهر كأستاذ للعلوم الإنسانية . كنت قد درست الكثير من كتب « الفلسفة الرواقية » . كنت كثير الإعجاب بالفيلسوف « سينيكا » . كنت أراه مسيحياً بل أفضل من مسيحي . عكفت على إعداد كتابي « دي كليمينيا » . رجعت إلى كل المراجع التي عندي . استخدمت كل ما يمكن أن أفيده من دراساتي القانونية وغير القانونية . كان الكتاب يدور حول « سينيكا » . كان تعليقا على كتابه . كان اسم « سينيكا » يتمتع بشهرة عظيمة في العالم في دوائر « العلوم الإنسانية » وقد استخدمت كل معلوماتي المسيحية كأساس لبيان التشابه بين الرواقية والمسيحية . كما أن « أرازميس » العالم الكبير كان قد نشر كتاباته عن « سينيكا » ودعا غيره من العلماء إلى التعليق على ما كتب .. لقد سكبت روحي في ذلك الكتاب !

وهنا قاطعته وقلت : فلتسمح لي أن أقاطعك هنا ، إذ ربما نسيت ما أرغب أن أسأل لقد ذكرت في حديثك « سينيكا » و « أرازميس » . لقد سبق لي أن سمعت عن « سينيكا » ، لكن لا بأس أن تذكر شيئاً عنه فلعلني نسيت . أما « أرازميس » فلم أسمع عنه شيئاً بالمرة . ربما سمعت اسمه وربما سمعت أنه أحد العلماء . فهل لك أن تذكر لي شيئاً عن الإثنين . لا أقصد أن تذكر كل شيء بل أن تذكر عما يربط بين الإثنين وبين تفكيرك !؟

ــ سنيكا وأرازميس :

وقال كلفن : أما سينيكا فهو أشهر « فيلسوف إنساني » وقد رفعه علمه إلى أعظم مقام في الإمبراطورية الرومانية . كان فيلسوفاً « إنسانيا » . وقد عظّم في الإنسان روح الإنسان ، ولذلك لم يول العواطف التي تتصل بالجسد اهتماماً ذا قيمة . كان يوصى بتدريب النفس على تغليب الروح على عواطف ما يسميه الناس الفرح أو الألم . قال « كلفن » : لكنني اختبرت فيما بعد أن فلسفته ، برغم ما يبدو فيها من تألق ، لا تصل إلى ذلك النور

العظيم . كلا .. ولا يمكن أن نقيم مقارنة بينها وبين ذلك النور الحقيقي . على أني برغم ذلك لا أمنعك من دراسة فلسفته وهي ما تواضع الناس على إطلاق اسم « الفلسفة الرواقية » عليها ـــ إذ أن زعيمها الأول « زينون » كان يلقي محاضراته على تلاميذه في رواق مزين بالصور .

...... وأما « أرازميس » ، الذي عاش سبعين سنة فقد مات سنة ١٥٣٦ . عندما كنت أنا في السابعة والعشرين أي في السنة التي بدأت فيها عملي الجدي . كان « أرازميس » عالماً عظيماً في عصره وقد اهتم بدرس الكتاب لا بهدف التعبد لكن بهدف الوصول إلى أخلاقياته وطرح الخرافات ونشر فلسفة المسيح الدقيقة . وقد ارتفع عن التفكير الساذج لعصره ، التفكير الذي أشاع جوا من الأساطير والخرافات . وفي بحوثه كان يريد أن يكشف عن « الإنسان يسوع المسيح » لقد اهتم العالم المسيحي بمعرفة المسيح الإله ونسوا الإنسان !!

وكان « أرازميس » شخصية بارزة في حياة أوربا الدينية في السنوات الأولى من حركة الإصلاح . ذلك بالرغم من وضاعة منبته ، فقد ولد فقير . كان ابناً غير شرعي لأحد الكهنة . (حاول أبوه أن يتبناه شرعاً ولم يستطع) وكان عليل الصحة فقير الموارد . ولكن ذلك المواطن الهولندي الفقير « الحقير » العليل أصبح أعظم العلماء مقاماً في عصره .

وقد نشر العهد الجديد في لغته الأصلية اليونانية كما نشر كتابات جيروم وسينيكا . وقد ألّف جملة كتب مثل « المحاورات » . وهي أحاديث عن مواضيع مختلفة ظلت تنتشر طيلة حياته . وكانت تدرس في جامعات أوربا عدة قرون بعد ذلك . « والدليل » وهو كتاب صغير عن الإيمان المسيحي ـــ وله كتاب صغير ساخر اسمه « الثناء على الغباء » .

وقد أوصله علمه وذكاؤه إلى الجلوس أمام العظماء « أرأيت رجلاً مجتهدا في عمله . أمام الملوك يقف ، لا يقف أمام الرعاع » . كان له أصدقاء من ذوي المراكز الرفيعة مما لم يتوفر لإنسان آخر في زمانه .. كان رجلاً متفتح الذهن وكان يبصر الكنيسة الكاثوليكية على حقيقتها ويرى ما فيها من عيوب .. فقد رآها بناء مملوءاً بالشروخ التي تهدد بالسقوط . وكان يبصر الوليد الجديد للإصلاح ويتعاطف معه . ولكنه رأى أن من الأفضل أن يعمل على ترميم البناء ، لا على هدمه . ولذلك آثر أن يستمر كاثوليكياً ، وقد ظل كاثوليكياً إلى نهاية حياته ـــ وقد كرس حياته للوفاق أو كما يقول هو « للوفاق والإنسانية والورع » ..

كان « أرازميس » أخلاقياً في مسيحيته يؤمن بالإنجيل الاجتماعي أكثر جداً من الإنجيل الكفاري أو على الأصح العقائدي .

ـــ كلفن الكاتب :

عاد « كلفن » إلى حديثه عن مؤلفه الذي سكب فيه كل حياته كما يقول .. ثم قال كنت أعلق آمالا كبارا على كتابي هذا (دي كليمنتا) نشرته على نفقتي . كنت أظن أن العالم سيتهافت عليه ، على أن الصدمة كانت قاسية عليّ ، فقد استقبله الجمهور بكل فتور . لم يتحمس له إلا أقل عدد . أعتقد أن عدداً كبيراً من نسخ ذلك الكتاب لا يزال موجوداً في البيت القديم الذي كنت أقيم فيه !!!

قلت له : لعلك لم تتألم كثيراً ـــ أقصد أزيد مما يجب لهذا الفشل ؟

قال : بل تألمت كثيراً وكاد اليأس يقتلني . ولكنني اكتشفت فيما بعد أن ذلك الفشل كان أعظم بركة لي . لقد كنت أظن أني أقدم دراسة إنسانية كما صورها « سينيكا » وكما فهمتها من « أرازميس » . في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن أجلس عند قدمي « الإنسان » الكامل الرب يسوع المسيح !!

الحديث الثاني

الخروج من الكنيسة

١٩٨٢/٩/٢

تركني « جون كلفن » دون أن يكمل حديثه عن دراساته . نسيت أن أذكر أن لقاءاتنا كانت تتم في الليل . ولذلك لا أعرف هل أكتب تاريخ النهار أم تاريخ الليل ، كنا نتلاقى قبل منتصف الليل ونظل في حديث يستغرق أحياناً أربع ساعات ويمتد أحياناً إلى أكثر من ذلك .

وقد قررت في نفسي ألا أهتم برقم التاريخ .

جاء « جون كلفن » في ميعاده .

قلت : ترى هل يمكن أن أسمع عن قصة تركك للكنيسة (الكاثوليكية) لا أريد أن أقول طردك .. لقد سمعت أنك ظللت ابناً للكنيسة ، أقصد ابناً مخلصاً لها متمسكاً بعقائدها إلى أواخر ١٥٣٣ . وسمعت من آخرين بل إلى مايو ١٥٣٤ .

وأجاب « كلفن » انه في الحقيقة لا يعرف بالضبط متى تخلخلت الربط بينه وبين الكنيسة . لقد تخلخلت في وقت مبكر جداً !!

ربما يكون من المناسب أن أسرد الخطوات التي سيرتني العناية فيها خطوة خطوة .

علمت ، كما سبق أن ذكرت لك أن أمي أخذتني وأنا بعد طفل صغير في زيارات للكنائس والأديرة وأني نلت « بركة » لمس بقايا القديسين !!

ولما بلغت الثانية عشر من عمري منحتني الكنيسة امتيازاً قد يبدو غريباً عليك لكنه لم يكن غريباً على ذلك العصر ، فقد منحت وساماً يعطيني الحق في أن أتمتع بلقب كاهن وأحصل على مرتب كاهن مع بعض الامتيازات الأخرى . كان هذا التعيين غير قانوني

بالطبع ، فالقانون الكنسي يمنع غير الكهنة المعينين من الحصول على هذه الامتيازات وكان التعيين لا يجوز أن يتم إلا لمن بلغ الخامسة والعشرين !

ولكن « الواسطة » في ذلك العصر كما في كل عصر ، جعلت المستحيل ممكناً . فحملت لقب قسيس وتناولت مرتب قسيس وعمري اثنتا عشرة سنة .

ولذلك كنت من الناحية الرسمية كاثوليكياً ، أقول من « الناحية الرسمية » ، لأني في داخلي لم أكن مستريحاً إلى الكثير مما تحويه الكنيسة . ولكن المصلحة الشخصية كانت تقضي أن أكون كاثوليكياً !!

ـــ نقولا كوب :

في اليوم الأول من نوفمبر ١٥٣٣ ألقى القس « نقولا كوب » عظة في جامعة باريس ، وهنا نظر إليّ « جون كلفن » وقال : نعم ، نعم أنت تحب أن تعرف من هو « نقولا كوب » ؟ .

كان « نقولا كوب » رجلاً مشهوداً له بتمسكه الشديد بالعقيدة الكاثوليكية . وهو ابن الطبيب الخاص لملك فرنسا . وكان تلميذاً للعالم الهولندي الشهير الذي حدثتك عنه « أرازميس » من « روتردام » .. هذا هو « نيقولا » . وقف يعظ في كنيسة « الماتورين » في داخل الجامعة . وكانت عظته هجوماً على العنف الذي تقوم به الكنيسة ضد « اللوثريين » . قال أنه لا يجوز أن نحاول إثبات الحق بالسيف . بل يجب أن نحارب « الباطل » بالكلمة . ينبغي أن يقوم حوار بين الكنيسة وبين الخارجين عليها وليكن الكتاب المقدس الفيصل . كان كلام « نيقولا » يحمل طابع الشدة . بل بدأ في كلامه أنه يعطف على اللوثريين وحتى يخفف من شدة كلامه أعلن أنه كاثوليكي متمسك بكاثوليكيته أمين لعقيدتها وفي ختام حديثه قدم التحية الرسمية للعذراء مريم « والدة الإله » . قال « كلفن » معقباً ، أنت تلاحظ أن « نيقولا » أراد الخير فعلاً للكنيسة الكاثوليكية . إن الاضطهاد لا يقتل « الهرطقة » بل يقيمها . ولو أن الكنيسة في ذلك الوقت سلكت بالحكمة ، كما تسلك الآن فربما كانت النتيجة اليوم غير ما ترى !!

على أن عظة « نيقولا » لم تأت بالنتيجة التي كان يتوقعها . بل أثارت عاصفة هوجاء ضده . اتهموه بالهرطقة والزندقة . ولو تمكنوا من القبض عليه لنفذوا فيه الحكم بالموت

حرقاً . ولكنه أحس بالخطر المحيط به وتمكن من أن « ينفد » بجلده فهرب إلى مدينة « بازل » في ألمانيا وكانت مدينة حرة خارج منطقة الكنيسة !!

وهربت أنا كذلك . لم يحاولوا القبض عليّ كمتهم ولكن كصديق ل « نيقولا » . وقد كنت فعلاً صديقاً له ، منذ تلاقينا أول مرة في باريس وكان عمري إذ ذاك أربع عشرة سنة . وكانت صداقتنا مبنية على وحدة التفكير !!

قلت : ان البعض ألمحوا إلى أنك أنت الواضع الأصلي للعظة . وأن النسخة الأصلية المكتوبة بخط يدك ، وجدت عندك ؟!!

بدا كأن « كلفن » لم يسمع كلامي الأخير هذا وظهر أنه لا يريد أن يؤيد أو ينفي ما أشيع عنه . فقال : كان « نيقولا » نظير الكثير من المفكرين ، يظن أن الحوار هو السبيل إلى إصلاح الكنيسة .. وأن هذا سيقف حائلاً دون تكوين كنائس جديدة !

قلت : لكن يبدو أن الكنيسة الكاثوليكية لم يكن عندها هذا الاستعداد ؟

فأجاب : كانت تظن أن الحركة لا تزيد عن « عاصفة في فنجان » .

قلت : لكنك لم تخبرني عن الأسباب المباشرة التي حدت بنقولا إلى إلقاء عظته في ذلك الوقت .

قال : إن « بنود » لوثر الخمسة والتسعين كانت قد بدأت تأخذ مكانها في الفكر المسيحي ، وربما كان السبب أن هذه « البنود » قد تحركت بقوة لمقابلة القوة المضادة . لاشك أنك قرأت في الكتب الطبية أنه إذا دخل الجسم ميكروب فهناك أجسام مضادة أخرى في الجسم تهب لمقاتلته . حدث هذا مع « بنود » لوثيروس فلو أن الهيئات الكنسية تجاهلتها ولم تهتم بها فربما كانت قد ماتت في مهدها . أو على الأقل ضعف تأثيرها ، ولكن الكنيسة هبت بقواتها المختلفة لمحاربتها !!

وكانت جامعة باريس مركزاً لأكثر علماء الكاثوليكية « محافظة » وقد جندت جبابرة العلوم اللاهوتية لمناضلة الحركة البروتستانتية . ظلت الحركة اللوثرية هادئة نوعاً ما نحواً من أربع سنوات فقط . كانت الرؤوس الكبيرة في الكنيسة لا تعير البنود التي علقها الراهب الصغير على باب الكنيسة كبير اهتمام . من يكون هذا الراهب الصغير أمام كبار رجال الكنيسة ؟؟ ولكن اهتمام بعض اللاهوتيين ببنوده ودراستهم لها ومحاولة بعضهم تفنيدها صيّر

من الراهب الصغير عملاقاً . وقام جبابرة الكنيسة يسلطون كل قواهم ضد العاصفة الهوجاء التي أقامها ذلك الراهب « الأحمق » !!

وها نحن نرى جامعة « السوربون » بجلالة قدرها تقيم كرسياً يضم أعظم اللاهوتيين للدفاع عن الكنيسة وعقيدة الكنيسة !!

وليت الكنيسة اكتفت بذلك .. ولكنها لم تكتف بل سلطت كل قواها للفتك بمن يشايعون الراهب « الأحمق » . سلطت الحكام والأسلحة . سلطت السيف والنار . ذبحت من ذبحت وأحرقت من أحرقت وسجنت من سجنت وشردت من شردت ، وبسبب ذلك قام بعض العقلاء المؤمنين المخلصين ورأوا في ما تقوم به الكنيسة . أقصد رؤساء الكنيسة . رأوا خطأ الوسيلة . وحاولوا أن يخففوا من عنف هذا التيار الذي كاد يودي لا بالمنشقين بل بنفس الكنيسة .. قاموا فعلاً أو على الأصح غالبيتهم خدمة للكنيسة ، لا دفاعاً عن الراهب . وهكذا قام « نيقولا » وأمثال « نيقولا » .

قلت أنا : وهنا قام أيضاً « جون كلفن » وأمثال « جون كلفن » .

وقال كلفن : لاشك أن تفكيري كان نفس تفكير « نيقولا » . ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة . لقد ظللت أصارع مدة طويلة قبل أن أتخذ قراري . كانت حرباً قاسية في داخلي .. ولكنها انتهت أخيراً إلى أن أتخذ القرار !

قلت : ترى هل أطلب أمراً مستحيلاً إذا التمست أن تحدثني عن هذه الحرب المقدسة ؟

قال : لست أظن أني أستطيع أن أقدم لك صورة واضحة المعالم لهذه الحرب . على أني أقدم لك صورة تقريبية !

فهناك « بنود لوثيروس » أو « حجج لوثيروس » التي تستند على الكتاب المقدس . كانت هذه الحجج قوية . الحقيقة أن هذه الحجج وحدها ما كان يمكنها أن تقابل بناء مرّت به سنون كثيرة . إن « المنطق » وحده لا يمكنه أن يهزم « التاريخ » . قد نعرف « الحقائق » على وجهها الصحيح ولكننا لا يمكن أن ننكر قوة « التسلسل » . وأنا سمعت « حقائق لوثر » لكنني لم أشأ أن أعطيها في أول الأمر أزيد من مكان الكلمات العابرة .

على أن تلك الحجج وإن عجزت عن أن تكون لها قوة تنفيذية فقد استطاعت أن ترسم

خطأ له شيء من العمق في ذهني . وقد جاء فشل « نيقولا » في محاولته السلمية عاملاً جديداً استطاع أن يعمق « حجج » لوثر أكثر . فبدأت أفكر فيها . وبالطبع كان تشريد « نيقولا » وتشريدي بلا سبب يخلقان عاملاً إضافياً وصل بحجج لوثر إلى عمق يستحق الدراسة . عدت إلى ما أعلنه « لوثر » وما قدم من أسانيد . واكتشفت أن الحق في جانبه إلى حد كبير !!

وإذ ذاك جلست أدرس الأمر بيني وبين نفسي !

« هذه الكنيسة التي ولدنا فيها ، الكنيسة الغالية ، أمنا ، أننا نكرمها كل الإكرام ونكرم الكهنة ونوليهم كل تقدير ولكنهم لا يخدمون المسيح ولا يخدمون الكنيسة . هم يسمنون أنفسهم ، يستغلون سذاجة الشعب ويحاولون أن يمتصوه بأساطيرهم وخزعبلاتهم ، ويااليتهم وقفوا عند هذا الحد ولكنهم قاوموا كل مسيحي مخلص يعمل على الإصلاح دون ما مغنم شخصي ، واضطهدوا هؤلاء الشجعان . واحتمل أولئك الأبطال اضطهاد الكهنة بشجاعة وإيمان » !!

مرت كل هذه الأمور في ذهني فسألت نفسي : ترى هل نحن في ضلال ؟ قام صراع كبير في داخلي ، حرب بين النور والظلام ، بين الحق والباطل ، وانتصر النور . هل كان للبيت الذي نشأت فيه والكنيسة التي عشت في داخلها .. هل كان لهذا أثر في تغيير اتجاهي ، ربما ...

نعم ، انتصر النور ...

ففي الحادي والعشرين من مايو ١٥٣٤ عدت إلى مدينة نويون مسقط رأسي وسلمت لكهنة الكاتدرائية كل شارات امتيازاتي الإكليريكية .

قلت « لكلفن » : اني أرجو أن يحمل « كلفن الكبير » استفهامي الآتي على محمل طيب ، فقد أشاع القوم أن تركك للكنيسة لم يكن لوازع روحي ، وإنما كان بدافع بعيد عن الروحانية . إذ أن والده كان يتولى أعمالاً ذات شأن تتصل بالكنيسة ، وكان نفوذه بسبب علاقاته بذوي الشأن من رجال الحكم ، قامت بينه وبين رجال الكنيسة احتكاكات ورأى الإنقسامات الداخلية في الكنيسة وإذ ذاك حول دراسة ابنه من اللاهوت إلى القانون توقعاً للثراء . وقد أدى ذلك إلى طرده من الكنيسة ١٥٢٩ ولم يستطع أخوك أن يحصل

على تصريح بدفنه ، بعد موته ، في المكان المخصص إلا بجهد جهيد . بل إن أخاك نفسه طرد من الكنيسة بعد ذلك بقليل .. أشاع القوم أن سبب تغيير مسارك كان تأثرك من مسلك الكنيسة مع أبيك وأخيك .. سامحني ياصديقي إذا كنت ترى في سؤالي خروجاً عن اللباقة !!

وقال « كلفن » : لقد سمعت مثل هذا وسمعت شراً منه . بل لنفرض أني تأثرت لمسلك رجال الكنيسة مع أبي ومع أخي فهل يعمل هذا على خروجي من الكنيسة التي كنت أومن أن لا سبيل إلى السماء إلا عن طريقها ؟ وهل كنت أبيع حياتي الأبدية في سبيل الانتقام كما يقولون ؟ ومع ذلك فان هذه المقاومة البسيطة ليست شيئاً يذكر بازاء المقاومات التي حدثت بسبب خروجي . ما هذا بالنسبة لما احتمله الآخرون ؟

وأكثر من ذلك ، ألم أكن أعلم أن خروجي من الكنيسة سيجلب عليّ غضب كل قوات الظلمة ، وهذا ما تم ياصديقي ، فإني منذ اختبرت نعمة التجديد وأعلنت إنفصالي عن الكنيسة وأنا أعيش متغرباً وظللت في غربتي .. وضحك « كلفن » وكان لا يضحك إلا في النادر ، ضحك وهو يقول : هل أقول متشرداً غريباً وقد تركت فرنسا .. ألم أعش غريباً كل أيام الحياة على الأرض ؟؟

الحديث الثالث

مصلح في المنفى

١٩٨٢/٩/٤

نظر إليّ كلفن ، وقال : ظننت أنك متعجل لإنهاء حديثك . وها قد مرّت ساعات وأنا أنتظر أن تبدأ « استجوابك » . ولكنك ظللت صامتاً . قلت : أني فعلاً متعجل جداً . لكنني صمتّ لأني كنت أتأمل في ما سمعت . أني لا أطلب الحديث لأني أهوى القصص . أني « أدرس » القصة ، كان لي أستاذ كبير ينطق الحكمة . وقد سألته يوماً عن دولة ، كان كثير الحديث عن عظمتها ، كثير الإعجاب برجالها ، قلت له يوماً : ألا يصدق على هذه الدولة ما قاله شاعرنا العربي .

ما طار طير وارتفـــع   إلا كما طار وقـــع

أجاب : لا ، لا ، أنها ستظل في الأعالي ، إن قومها « يدرسون » التاريخ .

وأنا ياصديقي وقد عرف عني محبتي للقصص .كان القوم يظنون أني أتلذذ بمجرد سماعها . كلا يا صديقي ، إنني فعلاً أتلذذ بمتابعة الأحداث ولكنني أتعمق لأصل إلى الأسباب وأمد بصري إلى الأمام لأرى النتائج . كنت أتأمل في تاريخك الماضي في البيت الذي نشأت فيه ، في البيئة التي وجدت فيها ، في الوالدين والأخوة ، في العائلات التي كانت تربطك بأفرادها علاقات ، في الدراسة المختلفة التي رتبتها العناية لك ، كنت أتأمل في كل ذلك وكنت أسأل نفسي ترى إلى أين ينتهي هذا الطريق ؟

لقد كان طريقك يتجه ، أول الأمر ، إلى رداء الكهنوت ، وأراد أبوك أن يكون طريقك إلى منصة القضاء ، ورغبت أنت أن يتجه طريقك إلى عالم القلم . كانت لك دراسة فلسفية لاهوتية قانونية ، دراسة علوم إنسانية .. لذلك كنت أسأل ماذا قصدت العناية بهذا الترتيب .. ماذا ؟

وأجاب « كلفن » : ألم تر أن كلمات سؤالك تحمل جانباً من الجواب . لقد بدأت دراستي اللاهوتية لأكون كاهناً كاثوليكيا . لكنني انقطعت عن هذه الدراسة إطاعة لأمر أبي . لقد كان ينظر إلى الكنيسة لا من منظار روحي بل من ناحية اقتصادية . رأى الانقسامات ستؤثر اقتصادياً على من يخدم فيها ، ورأى أنه يمكن الحصول على الثراء عن طريق القانون . على أني انقطعت عن دراسة القانون عقب موته ... وفكرت في الاتجاه ناحية العلوم الإنسانية وكتبت كتابي الأول « دي كلمنتيا » وفشل هذا الكتاب ، إذ ذاك دفعني هذا الفشل إلى أن أسعى إلى خلوة ، إلى مكان أختبيء فيه بحيث لا يوجد من يعرفني ، فأنا كما علمت أو كما لم تعلم ، لست ابن المدينة ، أنا ابن الريف وللريف أخلاقه وطباعه وتقاليده . كنت كثير الخجل ، لم أكن رجلاً اجتماعياً . كانت فرنسا مغلقة الأبواب في وجهي . سأعيش على سجيتي غريباً منعزلاً ، ولذلك ذهبت إلى مدينة « بازل » في ألمانيا لأستمتع هناك بالخلوة التي حرمت منها طويلاً . وفي أحد الأركان وجدت إقامتي في وسط لا يعرفني فيه إنسان ولكن بينما كنت مختبئاً في تلك المدينة « بازل » ذاعت إشاعات ملأت لا مدينة « بازل » وحدها لكن كل البلاد المحيطة في كل ألمانيا . كانت فرنسا قد قتلت العدد العديد من رجال الإصلاح اللوثري وغيرهم وهرب عدد عديد منهم ونفت الحكومة عدداً آخر من الرجال الأتقياء لأنهم شايعوا الإصلاح . وقامت الحكومة الفرنسية ، دعني أقول الكنيسة ، بحملة تشنيع على أولئك الاتقياء . اتهموهم بالكفر والالحاد والعمل على هدم المسيحية ، بل اتهموهم بالخيانة الوطنية . كما حاولوا أن يلوثوا اسمهم بالتهم الكاذبة تبريراً لاضطهادهم لهم ودفعاً لزيادة ذلك الاضطهاد . ووصلت هذه التشنيعات إلى أذني في خلوتي ، فاشتعلت نار الغيرة في صدري . إن أولئك المضطهَّدين هم أفضل من أنبتت فرنسا . إنهم أتقياء أفاضل قديسون ، إنهم شهود أمناء للسيد . اندهشت من انحدار الأخلاق إلى هذه الدرجة ومن التشنيعات الشريرة التي أحيط بها أولئك الأبرار ، وممّن ؟ من رجال يقولون إنهم خدام المسيح وأعمدة الكنيسة . كان أمراً أشعل النار في صدري . لم أستطع أن أحتمل هذه الأكاذيب والافتراءات . نسيت الكلمات التي قالها السيد « طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي — كاذبين — افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات لأنهم هكذا فعلوا بالأنبياء الذين قبلكم » !!

وفي غيرتي فكرت أن أقوم بنصيب ضئيل في الدفاع عن هؤلاء الأبرار وفي الرد على أولئك القتلة سافكي الدماء . أولئك المفترين العاملين على إشعال نار البغضة والمذابح الوحشية . رأيت أن أحتج على هذه الأعمال التي قامت بها الكنيسة في فرنسا ، فنشرت كتابي

« المباديء » الذي سمعت عنه والذي سبق أن أشرت إليه . كان هذا هو السبب الأول لنشر هذا الكتاب أو لنقل أحد الأسباب . وهناك سبب ثان ، هو القيام بنوع من التوعية المسيحية . كان الكتاب يقدم الحقائق المسيحية في الصورة البسيطة المبنية على الأسس الكتابية . وفي الحقيقة لم يكن غرضي الهجوم على الكنيسة بقدر ما كان الغرض إثارة الشفقة والعطف على أولئك الأبرياء الذين يتهمون ظلماً بالخروج على الدين وعلى الوطن !!

قلت : لعلك لم تفشل في هذا الكتاب فشلك في كتاب « دي كليمنتيا » ؟!!

قال : لقد كنت أطلب الشهرة في كتاب « دي كليمنتيا » . أما في كتاب « المباديء » فلم يكن لي غرض إلا ما ذكرته لك . في الحقيقة لا أعلم هل نجح الكتاب تجارياً أم لا . إنه على الأقل لم يكبدني خسارة . وأنا كتبته لا طلباً للشهرة لأني كنت في طريقي لترك المكان ... وربما يدهشك أن تعلم أني لم أكتب اسمي على الكتاب !!

وهل تصدق ؟ إن هذا الكتاب كان الخطوة البارزة نحو تحديد مستقبل خدمتي ، بالطبع كانت هناك خطوات أخرى سابقة ، سبق أن أشرت إليها . ومعَ ذلك فإني لا أرى بأساً من العودة إليها . على أنه يجدر بي أن أقول لك إن أهم نقطة حددت حياتي ، أقصد خدمة حياتي هي « مدينة جنيف » !!

قلت : يبدو أن « لجنيف » قصة طريفة فهل يمكنك أن توصلني إليها ؟

قال : اسمع يا صديقي . لا أعلم ما إذا كنت أستطيع أن آتيك في الغد . لماذا لا نحدد بعد الغد لنسافر معاً إلى تلك المدينة . إن الطريق إليها لم تكن سهلة . كانت ملآنة بالتضاريس والأحجار . كانت هناك تلال ووهاد . ولكنني وصلت ، وصلت مكرهاً .. وفي « جنيف » لفظت أنفاسي الأخيرة ، فإلى اللقاء بعد الغد !

الحديث الرابع

قصة جنيف

١٩٨٢/٩/٥

يبدو أنك عرفت ياصديقي شدة لهفتي لسماع قصة « جنيف » . لقد قالوا لي أن « كلفن » و « جنيف » شيء واحد . لم تكن « جنيف » شيئاً يذكر قبل ذهابك إليها . وكذلك قالوا إن « كلفن » ما كان ليذكر لولا « جنيف » . لذلك سأترك كل أسئلتي الخاصة بحياتك الآن . بالطبع سنعود إليها في ما بعد لنسمع قصة « جنيف » . سيكون أمامنا ذهابك إلى « جنيف » . وحكومة « جنيف » وكنيسة « جنيف » وخدمتك في « جنيف » ، والأصدقاء والمعاونون في « جنيف » . والمقاومة في « جنيف » ، إنها قصة كبيرة ولا بد.لذلك خصت لها يومين ياصديقي ، تكلم ، تكلم بافاضة .

ـــ وتكلم « كلفن » وقال :

ربما لا تعلم أني كنت لا أحب أن ينبش أحد في تلافيف حياتي . وأنا نفسي كنت أكره أن أكتب عن نفسي ، لقد كتبت القليل ، والقليل جداً في مقدمة تفسير المزامير . لكن تاريخي الآن أصبح ملك « التاريخ » . لا أستطيع أن أخفيه . بل يمكنك أنت أن تقرأه في الحوادث والأحداث . لن تحتاج إلى أن أمليه عليك . لكن يسرني أن أتحدث به إليك . لقد وقف الكثيرون إلى جانبي وسمعت لهم . ووقف الكثيرون ضدي .. وهل أقول لك إني لم أسمع لهم كما كان ينبغي . وأنا أعلم أنك ستقف إلى جانبي بعض الطريق وستقف في صفوف المقاومة أيضاً بعض الطريق . ستقف في صفوف المقاومة مطمئناً لأني لن أعمل معك ما عملته بالأمس مع المقاومين . كما أني أعلم أيضاً أن مقاومتك ـــ إن جاز أن نسميها مقاومة ، هي مقاومة بانية متزنة بعيدة عن كل ما يعطل أو يهدم ـــ لقد صدقوا فعلاً أني بدون « جنيف » ـــ على الأقل في ما قمت به ـــ ما كنت شيئاً مذكوراً . كما

أؤكد لك ياصديقي أني ما ذهبت إلى « جنيف » راغباً . إنهم سحبوني سحباً . ذهبت رغماً عن أنفي . فاستمع إلى قصتي . أنا أعود إليها أحياناً وأسأل نفسي : كيف كنت أتصرف لو أني عدت اليوم . صدقني إني إلى الآن لا أعرف الجواب !!!

لقد سمعت مني أني خرجت هارباً من « باريس » هربت مع « نيقولا كوب » . هربت بدون تهمة . كانت تهمتي أني صديق « كوب » . وكانت تهمة « كوب » أنه نصح بالاعتدال في معاملة « المارقين » . سأل لماذا لا نقيم معهم حواراً لعلهم يقنعونا برأيهم فنسير معهم أو نقنعهم بخطأهم فيعودون إلينا وفي كلتا الحالتين نحتفظ بسلامة الكنيسة ووحدتها . ولكن القوم استمروا في غيهم ، ظنوا أنهم يسحقون الفئة « المارقة » بالقوة . سيلاشونها وتبقى الكنيسة ..

وهكذا هربنا ، هربت وحرّمت فرنسا عليّ . أصبحت منفيا ...

إلى أين أذهب ؟

إلى .. « بازل » ...

ذهبت إلى « بازل » في ألمانيا .

وفي « بازل » كتبت كتاب « المباديء » كما ذكرت . وكذلك ذكرت لك أني لم أكن أنوي البقاء في « بازل » . كنت أرغب أن أذهب إلى « ستراسبورج » حيث أجد المكان المتسع والوقت المتسع للخلوة التي تساعدني على الدرس والكتابة !

لكن الطريق من « بازل » إلى « ستراسبورج » لم يكن مفتوحاً . كان عليّ أن أدور دورة كبيرة فأذهب إلى « جنيف » ومنها إلى « ستراسبورج » . فكرت أن أذهب إلى « جنيف » لأقضي ليلة واحدة ، ليلة واحدة فقط !

في « جنيف » كان شخصان عزيزان عليّ ، شخصان لهما الذهن المتفتح « وليم فاريل » و « بيتر فيبريه » . عمل هذان القطبان العظيمان على فتح المدينة للإصلاح الديني . وقد نجحا في إقصاء البابوية عن المدينة . لكن الأمور لم تكن قد استقرت بعد . كانت المدينة تمزقها الشرور والفتن . كان « فاريل » يعمل بغيرة متقدة وهمة لا تقدر في نشر الإنجيل . كان « فاريل » يعلم أني مصمم على أن أعكف على الدراسة في خلوة في مكان خفي . ولكنه كان يعلم ، أو على الأصح يظن ، أن مكان خدمتي الحقيقي هو في مدينة « جنيف » . ولذلك حاول معي بجهود جبارة ليقنعني بالخدمة في المدينة . ولكنني

رفضت بتصميم شديد . فلما رأى ذلك التصميم اندفع يلعنني . قال سيحرمك الله من السلام إذا ما ضننت بمدّ يدك للمعاونة في هذا الوقت العصيب وفي هذه الحاجة الماسّة . وقال إنك إذا هربت من دعوة الله فستلاحقك اللعنة أينما كنت وستذوق مرارة عدم الاستجابة لدعوة الله !!

ارتعبت من هذه الكلمات . أحسست أن الله سيقف ضدي وسيعتبرني خائناً للأمانة ومقصراً في استعمال الوزنات التي منحها لي الله فخضعت مرغماً ، رضيت أن أبقى في جنيف . رضيت أن أخدم خوفاً من الله ...

مكثت مع « فاريل » . كان أكبر مني ، بنحو عشرين سنة ولكنه كان يقدمني على نفسه ...

وجعلت أخدم في الدفاع عن الإيمان ، الإيمان بالخلاص بالنعمة . وظللنا نخدم أربعة شهور حدث بعدها أن البعض قاموا ضدنا . من الغريب أن المهاجمة جاءت ممن كانوا قد تركوا الكثلكة ... وكان أحدهم رجلاً عاتياً قاسياً ارتد بعد أن قبل الإيمان ، هو وجماعة ممن يدعون المعمدانيين . كان هؤلاء يطلبون إعادة المعمودية ، ويرفضون أن يعمدوا الأطفال . اتصل هؤلاء وأولئك بعدد من كبار الشخصيات وممن لهم شأن في النواحي الإدارية وقامت ضدنا مقاومات ودبرت مؤامرات . ومع أنني بالطبيعة كابن للريف كنت خجولاً ليس لي معرفة بالسلوك الاجتماعي في مجتمعات الحضر ، لكني وقفت أواجه التيارات المقاومة ووقفت بعنف ، ولكن المقاومة هزمتنا وحكمت الهيئة الحاكمة بنفينا ، « فاريل » وأنا وبعض القادة ممن كانوا معنا . أخرجونا من جنيف كأشخاص غير مرغوب فيهم . أقول لك الحق يا صديقي أني تألمت من المقاومة خصوصاً وقد اتسمت بعدم الاخلاص ودخلها كثير من الخبث والخديعة ولكنني سررت كل السرور أني خرجت من المدينة . لقد دخلتها مرغماً ، دخلتها خوفاً من غضب الله وها أنا أخرج منها مرغماً . إن أحداً لا يمكن أن يتهمني بالمروق !!!

قلت : ألا ترى في « سرورك » هذا مأخذاً . لقد قال السيد : « أن أفعل مشيئتك يا الله سررت » . لكن يبدو أنك لم تسرّ وأنت تتمم إرادة الله فتذهب إلى « جنيف » . ثم سررت كل السرور لما طردت منها .

قال الحق معك يا صديقي . أعترف أني سررت أكثر مما يليق عندما نفيت من المدينة وطردت منها بالقوة . كان ينبغي أن يكون سروري متوازناً في المرتين !!

الحديث الخامس

العودة إلى جنيف

١٩٨٢/٩/٧

قلت : ولكنك عدت إلى جنيف على ما أعلم ؟

قال : لقد اختلطت التواريخ في ذهني . هل ذهبت مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرّات . سأروي لك ما أذكره . عندما طردت من جنيف ، لم يمكنني بالطبع أن أعود إلى فرنسا . سافرت مع صديقي « دي تيلت » إلى « ستراسبورج » في النمسا حيث قابلت « مارتن بوسر » . وإذ لاحظ أني أهم بسؤال قال : مهلاً ، ستسمع عن « بوسر » في ما بعد . فإن « بوسر » هذا كان زعيم الإصلاح في ستراسبورج . وذهبت بعد ذلك إلى « بازل » في المانيا و « بازل » كانت مدينة حرة . وقد رحبت « بازل » بي فمكثت فيها سنة كاملة . في صحبة هنري بولنجر و « وليم فاريل » و « نقولا كوب » ... و « أرازميس » وقد ظهرت عليه علامات الشيخوخة ، وأصبح قعيد المنزل . كانت المدينة مكاناً ملائماً للدراسة . درست اللغة العبرية ، وفيما أنا هناك دعيت لضيافة قصيرة في بلاط « الدوقة رينيه » ابنة « الملك لويس الثاني عشر » . وكانت تعطف على حركة الإصلاح وقد جمعت حولها عدداً من القادة . وكان لقاؤنا بركة لي . ظللت أتمتع بعلاقتي بهؤلاء القادة !!

في ذلك الوقت تسللت سراً إلى « نويون » لتسوية تركة أبي . وقد استطعت وأنا هناك أن أجتذب أخي « أنطوان » وأختي « ماري » إلى إيمان الإصلاح .. ثم شرعت في العودة إلى « ستراسبورج » !!

قلت : سمعت أنك تعرضت لبعض المتاعب في ذلك الوقت ؟؟

أجاب : نعم ، فقد اضطررت إلى استعمال أسماء مستعارة ، فكان اسمي تارة

« تشارلس دي اسبريل » وتارة « ماركيانوس لوكانيوس » ، لاخفي شخصيتي . على ان ذلك لم يمنع وقوعي في أيدي الشرطة وقضائي بعض الفترات في السجن بتهمة تعكير السلام . وكان اتجاهي الأول إلى كتابي « المباديء » الذي خرجت طبعته الأولى في مارس ١٥٣٦ . كان هذا الكتاب عاملاً هاماً في دعوتي لأن أكون راعياً في « جنيف » كما ذكرت لك قبلاً . ذلك أن « وليم فاريل » الذي سبق أن حدثتك عنه كان يعمل في « جنيف » في نشر المباديء المصلحة . وكان « فاريل » ضئيل الجسم ولكنه كان جهوري الصوت قوي الحجة ، وقد نجح في طرد الكهنة الكاثوليك من المدينة . لكنه كان أضعف من أن يبني الإصلاح على أسس مستقرة . كان الأمر يتطلب شخصية أقوى منه ومن زميله « بيتر فيريه » . كانا يبحثان عن تلك الشخصية . ولما قرأ « دي فاريل » كتاب « المباديء » قال : وجدته هذا هو الرجل ! وواتتهما الفرصة . فقد كنت أنوي الذهاب من « بازل » إلى « ستراسبورج » . وكان لابد أن أمر بجنيف . عرف « دي فاريل » أني في المدينة فبحث عني حتى وجدني . وطلب أن أخدم معه كما سبق أن ذكرت ورفضت كما قلت لك أيضاً قبلاً . ورفضت بتصميم . أني لم أخلق للرعاية . أني لا أعرف أن أصول وأجول على المنبر . إن مكاني هو في ركن قصي في خلوة بعيدة عن الناس أمام كتابي وورقي وقلمي . ولكن « دي فاريل » تكلم بصوت رزين وبلهجة حازمة قال : إنك إذا رفضت أن تكرس نفسك للخدمة معنا في هذا العمل فلابد أن يدينك الله !!

اهتز قلبي من كلمات « فاريل » المخيفة . أحسست كأن الله في الأعالي قد وضع يديه عليّ فبقيت للخدمة في المدينة !!

ونظر إليّ « كلفن » وقال : ترى هل سبق وأخبرتك بذلك ؟ نعم ، لقد سبق أن ذكرت لك ذلك .. نعم هذا حصل . لقد سبق أن ذكرت لك هذه القصة .. أعتقد اني فعلت ذلك . قلت : لا أعلم بالضبط لكني لا أرى بأساً من سماعها مرة ثانية وثالثة . إن حديث « جنيف » لا يشبع منه !!

وهزّ « كلفن » رأسه وقال : كأن النسيان يلاحقنا حتى في الأبدية . جميل إننا ننسى ، خصوصاً ما يتصل بأتعابنا !!

وقلت : لنرجع إلى حديثنا . لقد حفل التاريخ بأحداث عظام في مدينة جنيف حتى ليخيل لنا أنها كانت أكبر مدينة في أوربا . فهلا أخبرتنا شيئاً عنها ؟

وقال « كلفن » : لم تكون « جنيف » مدينة كبيرة . كانت هناك مدن أخرى أكبر منها . لكن « جنيف » استطاعت أن تبرز في القمة لأنها كافحت في سبيل حريتها

كانت « إمبراطورية » الكنيسة تحاول أن تتسلط على كل البلاد . أما « جنيف » وعدد سكانها لم يكن يزيد عن عشرة آلاف ، فقد إستطاعت أن تنال إستقلالها . بل لم تكن الكنيسة الكاثوليكية هي الوحيدة التي تحاول فرض سلطانها عليها . كان أمراء « دوقية سافوي » المجاورة يحاولون أن يستولوا عليها . غير أن المواطنين في « جنيف » كانوا من أقدم الأزمنة ــ من سنة ١٣٨٧ ــ قد استطاعوا أن ينالوا من أمراء الإقطاعيين ، من الأساقفة ، حقوقاً مدنية تتيح لهم نوعاً من الحكم الذاتي . على أن الحالة لم تستقر فقد قام أمراء « دوقية سافوي » و « دولة برن » دعني أقول لك أن الصراعات السياسية والكنيسة استمرت سنين طويلة ...

وفي ١٥٣٦ زال آخر سلطان أجنبي وأصبح مواطنو جنيف للمرة الأولى أحراراً في تولي شئون مدينتهم . وقد حاول « دي فاريل » هو والزملاء المصلحون أن ينالوا حقوقاً تتيح لهم تنفيذ المباديء الإصلاحية . إنك لا يمكن أن تفهم معنى هذا الصراع لأنك تعيش في عصر تسير فيه الكنيسة بقوانينها بكل حرية . فتقبل في عضويتها من تشاء وترفض من تشاء . يخضر للعبادة من يشاء ويمتنع من يشاء . لم يكن الأمر كذلك في عصري . إذ قد اختلطت السياسات .. وامتزجت القوانين . بحيث أصبح للمجالس التي تحكم حق سنّ القوانين المختصة بكل ما يتصل بالحياة الروحية والمدنية وقبول الأعضاء وحرمان الأعضاء .. والتناول من الأسرار المقدسة ، والحرمان من التناول ــ وغير ذلك مما يتصل بالكنيسة ــ كان يصدر عن الحكام المدنيين . وكانت الأحكام تصل إلى حد الإعدام ضد المخالفين للقوانين الكنسية . وكان لرجال الكنيسة بالطبع تأثيرهم في سنّ هذه القوانين وفي تنفيذ الأحكام . أظن أن لا وقت لك وبالتأكيد لا وقت لي لأشرح لك شيئاً عن نظام الحكم في مدينة « جنيف » ولا أستطيع أن أضع الخطوط الفاصلة بين القوانين والأحكام ... المدنية والكنسية !!

ورفع « كلفن » رأسه وقال : لقد نسيت نفسي ... دعني أعود إلى الحوادث . استطاع « فاريل » وأصدقاؤه أن يحصلوا على حق العبادة في كنيسة فرنسسكانية .. وبعد ذلك بسنة ١٥٣٥ ، تقرر تنظيم حوار دعا إليه المبشرون المصلحون . على أن الكاثوليك رأوا أن الأسلم لهم أن ينسحبوا . وبذلك استولى « فاريل » على الكنائس الرئيسية الثلاث في المدينة .. لا يهمك بالطبع أن تعرف أسماءها ، أم هل يهمك ؟ .. هي كنيسة « سان بيتر » و « كنيسة المجدلية » وكنيسة « سان جرفيز » ، استولوا عليها وحولوها إلى كنائس إنجيلية أو بروتستانتينية كما كانوا يطلقون عليها !!

قال : لقد كان الأمر كذلك . كان القوم قد تعبوا مما كان في كثلكة القرون الوسطى من ... ـــ لا داعي لأن أقول . وقد علمت أن لك في مصر أصدقاء أفاضل أتقياء من الكاثوليك . لذلك لا يمكنك أن تفهم حديثي عن الكنيسة الكاثوليكية . لقد كانت شيئاً آخر مختلفاً جداً عن الكنيسة الكاثوليكية اليوم وخصوصاً في مصر .

قلت : ولا شك أن الصراع السياسي أضاف قوة جديدة لرجال الإصلاح فاني أعلم أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تفرض سلطانها ليس فقط دينياً بل سياسياً . كان البابا على ما سمعت يقول إنه المشرف الأعلى على النفوس ، وبالتالي ينبغي أن يكون المشرف الأعلى على الأجساد . وقال « كلفن » : كان يمكن أن يكون الأمر كذلك لولا أن رجال الإصلاح حاولوا أن يكون لهم شأن بارز في الأمور الإدارية خصوصاً وقد تميزوا بنقاوة الحياة وبالنزاهة . حاولوا أن ينفذوا قوانين التقوى لا بالتربية الروحية بل بالأحكام المدنية . كنت أنا أرى ذلك . وكان زملائي يرون ذلك . لقد أجرينا في الكنيسة تنظيماً جعلها شيئاً جميلاً . أدخلنا مناهج جديدة لتعليم الأطفال . أدخلنا خدمة الترنيم لكل الشعب . الأولاد والبنات والرجال والنساء ، كان شيئاً رائعاً ... وغير ذلك من التحسينات ..

ويجدر ألا ألوم التدخل في الأمور المدنية . فإن المجالس المدنية كانت ترى من حقها هي أن تفحص قواعد الإنضمام إلى الكنيسة والتناول من الفريضة وكانت ترى أن من حقها أن تحاكم المخالفين والحائدين عن الحق الإلهي ، وكان رجال الكنيسة يرون أن هذا من حقهم هم (رجال الكنيسة) . ولعل هذا كان السبب الرئيسي لقيام النزاع بين الفريقين .. وقد قمت بوضع قواعد ومباديء وتنظيمات ، وقدمتها ومعي زملائي بالطبع .. وحدث كثير من الجدل ، ترى من يملك الحق في تسيير نظام كنسي ، في فرز عضو ، في قبول عضو ، في ترتيب خدمات ؟؟ واشتد النزاع بين الخدام وبين المجلس الحاكم ، وظل يشتد إلى أن بلغ أقصاه وانتهى إلى أن أمر المجلس الكبير باجماع الأصوات بطردنا من جنيف ، بطردي ورفقائي من المدينة في خلال ثلاثة أيام .

وهكذا أصبحت طريداً مرة أخرى .

ملاحظة : من الانصاف للتاريخ أن أقول أن مذكراتي اختلطت ، لا أعلم هل سبق أن ذكرت هذه القصة . وهل كان طرد « كلفن » من جنيف مرة ثانية ؟ أم أن هذا الخبر تكرار لما سبق أن ذكر ؟؟

١٩٨٢/٩/٩

تركني كلفن أول أمس ، بل الأمس فقط إذ تركني الساعة الثالثة صباحاً . لا أعرف ما إذا كان قد تركني راضياً أم غاضباً .. تركني دون وعد بالرجوع . وقد ظللت طول نهار الأمس والليل ، وجزءاً من نهار اليوم وأنا أترقب حضوره . الآن الساعة السابعة مساء .. ها هو يقبل وقد انبسط وجهه وظهرت شبه ابتسامة على فمه . وقال نحن لا نزال في جنيف وإن كنا « جغرافياً » لسنا فيها . سنتحدث عنها إلى أن .... لنسكت هنا ، لا داعي أن نفكر في ما بعد « إلى أن » هـذه !!

ـــ في استراسبورج

ـــ صمت كلفن طويلاً . طويلا جداً . ثم تكلم وقال : أنا الآن حرّ ، أستطيع أن أعيش حياتي . أنا أحب الدرس والكتابة . أنا لم أخلق للمنبر ولم أخلق للمجادلات . أكره المباحثات التي دعاها الرسول « المباحثات الغبية » . الحقيقة أني لا أملك ما يدعونه « الدبلوماسية » في المناقشة . أنا بطبيعتي خجول ولكن إذا عارضني أحد اندفعت بكل قواي . وإذا خالفني أحد في ما أعتقد أنه صواب استجمعت كل قواي وصرخت في وجهه معلناً الحقيقة . وقد يصل الأمر إلى أن ألكمه بيدي أو أركله بقدمي . لكن أرجو أن تعلم أني لا أفعل ذلك إلا نادراً جداً .. وبعد أن استنفذ كل حججي القوية ، لماذا اذن أتعب نفسي في الوقوف على المنابر أو تنظيم الكنائس أو ترتيب الأنظمة ، سأبحث عن ركن هادىء في قرية هادئة وأجلس إلى كتابي وإلى قلمي . هذا هو ميداني !!

قلت : ترى هل وفقت إلى ما تحب ؟

قال : كنت أظن أني وفقت . أني لم أترك جنيف بمحض إرادتي وإن كنت لم أغضب . وصمت قليلاً وقال : أقول لك الحق إني استأت بعض الشيء . أحسست أن أعضاء المجلس الإداري جرحوا كرامتي وبرهنوا على أنهم .. ماذا أقول ؟ هل أقول أشرار ؟ كلا ، لم يكونوا أشراراً . وبالطبع لم يكونوا طيبين .. لنقل أنهم كانوا أغبياء .. نعم أغبياء !!

الحديث السادس

المدرسة الثانية
استراسبورج

١٩٨٢/٩/١٠

كانت المدارس التي تعلم فيها « جون كلفن » سواء كانت تدعى مدارس رسمية أو مدارس اختبارية مدرسته الأولى . لكنه بدأ يتعلم في مدرسة ثانية وهو يتحدث إليّ « صديقه » عن هذه المدرسة .

قلت : إني شاكر لك ياصديقي أنك لا تطيل غيابك عني . إني أحس أن الأيام تركض بعجلة . كما أرجو ألا تضيق بأسئلتي . في الحق أنهم أخافوني منك . قالوا أنك رجل جد ولا تحب « المياعة » . وأن أحدهم لم ير ابتسامة على وجهك . بل اتهموك بالخشونة والقسوة !!

لم يبتسم كلفن ولكن وجهه أيضاً لم يتجهم وقال : أخشى أن لهم العذر . على أني أحقق لك أن لي قلباً رقيقاً عطوفاً محباً ، والذين عرفوني أدركوا ذلك . لكن بعض المسائل التي تتطلب الحزم كانت تدفعني إلى الخشونة . لم أكن أتساهل في الحق الذي أومن به . ولم تكن عندي الدبلوماسية التي تصيغ ما أواجه ، الكذب مثلاً ، كنت أواجه الكاذب بالقول أنت كاذب . والمنحرف بالقول أنت منحرف ... وقاطعته بالقول أنك تعطي لنفسك حقاً لا تملكه . ألا يجوز أنك مخطيء . ألم يكن من الأفضل أن تؤجل حكمك أو على الأقل تضعه في صيغة تجعل تراجعك ممكناً ؟

وهنا تجهم وجه كلفن وقال : أني لا أتكلم إلا بعد تأكدي مما أقول !

قلت : ولكنك لست معصوماً !

قال متردداً : يجوز .. ومع ذلك فهكذا كنت ولو أني أعتقد أن ما تقوله ، قليل جداً . على أني أطمئنك أني لن أكون خشناً معك مهما كان مسلكك معي . قل ما شئت

فسأسمعك بصدر رحب !!

قلت : علمت أنك ذهبت من « جنيف » إلى « بازل » .. ومنها إلى « استراسبورج » ومكثت هناك ثلاث سنوات . وعلمت أنها كانت سنوات خصبة . فهلا رويت لي قصة هذه السنين .... كل ما قابلته فيها ؟

تنهد كلفن وقال : استراسبورج .. لقد قضيت فيها أحلى أيامي ، كانت مدرستي الثانية وفيها بنيت عشّي .. اسمع يا سيدي :

تركت « جنيف » أو على الأصح ، طردت من « جنيف » . ذهبت إلى « بازل » . لم يكن ثمت طريق إلى استراسبورج من جنيف . ومن « بازل » اتجهت إلى استراسبورج . وهناك عرضوا عليّ رعاية كنيسة اللاجئين ، الفرنسيين الذين هربوا إليها من فرنسا ، بالطبع كانوا ممن تركوا الكثلكة . كان زعيم حركة الإصلاح هناك « مارتن بوسر » . وقد طلب مني وألح وألح .. لم يكف عن الإلحاح . وأنا أرفض وأرفض كنت أعتقد بكل إخلاص أن الله لم يخلقني للوعظ والرعاية . كنت أعتقد أنه خلقني للتعليم وللكتابة . ولما تعب « بوسر » من رفضي استخدم أسلوب « فاريل » فهددني بغضب الله إذ أنا تمسكت بالرفض . قال لي : ان الله يعرف كيف يجد عبده المتمرد مثلما وجد يونان ، وعندما وجدت أني أواجه مثل هذه اللعنة للمرة الثانية عدلت عن قراري السابق وقبلت أن أخدم في المدينة . وهناك كرست كل جهودي للعمل الجديد الذي وضعه الله على عاتقي ...

قلت : ترى أليس من المناسب أن ترتب حديثك فلا يسير كالعظة التي بلا أقسام ؟ هل يمكننا مثلاً أن نتحدث عن بيتك .. ثم عن أصحابك و .. عن منبرك ورعايتك .. والعلاقة بالإدارة المدنية ، ونظام العبادة . أوه ، لقد سمعت مؤلفاتك .. ثم .. عن ، أظن أني أضع هذا الجزء آخر الكل ، عن المناهضين الذين حاولوا أن يعرقلوا عملك . وماذا حدث لهم . أنت ترى أن الموضوعات التي أطلب أن تتحدث فيها كثيرة . ليس من المحتم أن نحيط بها في جلسة واحدة . يمكنك أن تنهي الحديث وقتما تشاء .

والآن لنبدأ .. لماذا لا تبدأ بالبيت ؟

(أ) زواج كلفن :

قلت : أنا أعلم أنك بدأت بأشياء أخرى هامة ، هامة جداً . ولكنني فكرت في البيت لعلاقته بخدمتك كقسيس . إذ أن قسوس الكاثوليك هم على ما أعلم من الرهبان ، وقد

تردد « مارتن لوثر » طويلاً قبل أن يتخذ قراراً بالزواج . وإلى الآن يتحدث كثيرون عن « لوثر الزاني » أو على الأقل « لوثر ناقض العهد » ، من أجل هذا طلبت أن نبدأ بالبيت !

وقال « كلفن » : فعلاً كان قراري بالزواج ذا تأثير كبير على مجرى حياتي . لم يكن « فاريل » متزوجاً . وبعض زعماء الإصلاح لم يكونوا متزوجين . لم يكن الزواج — أقصد زواج خادم الكنيسة خطية أو نقضاً للعهد ولكن .. أظن أنه لم يبد طبيعياً جداً . لقد اعتاد القوم أن يروا « الكهنة » من الرهبان وأعتقد أنهم كانوا يعتقدون أن الأمر الطبيعي أن يظل « الكهنة البروتستانت » — ولو أنهم لم يطلقوا على أنفسهم لقب كهنة — بلا زواج . ولكن الزواج لم يهزهم أو يرعبهم . ولذلك فكرت في الزواج . نعم أني لم أتعجل في أخذ القرار ، ترددت في أخذ القرار ، ولكن ترددي لم يكن في أمر الزواج نفسه ، وإنما كان في أمر « الزوجة » . الزوجة التي تصلح أن تكون زوجة لمصلح . أقصد الخادم الذي سار في طريق الإصلاح البروتستانتي . ظللت أفكر في هذه الخطوة زمناً طويلاً . وفي شهر مايو ١٥٣٩ كتبت للصديق الحبيب « فاريل » أستشيره في هذا الموضوع الخطير . قلت أني أفكر في الزواج وأشترط أن تكون الزوجة جميلة . على أن الجمال الذي أريده في الزوجة هو أن تكون محتشمة فاضلة قانعة ، صبورة ، تستطيع أن ترعى صحتي . لم أذكر شرط الإيمان لأنه « مفترض » . وقد رشح أصحابي اسمين لم يحوزا رضاي لأن الأولى لم تكن تعرف الفرنسية .. والثانية لم تملك المؤهل الذي ينبغي أن يوجد فقطعت اتصالي بها بعد أن كنت قد سرت شوطاً طويلاً نحو العلاقة المنشودة !!

ورتب الله فاخترت سيدة فاضلة هي « أوليت دي بور » . كانت زوجة لرجل سبق أن عرفته وكانت لي يد في تحويله من المذهب المعمداني إلى الكنيسة المصلحة وقد مات زوجها وترك لها ابناً وابنة . كان الابن يوم أن تقدمت لخطبتها في سن المراهقة ، والإبنة أصغر منه . وأخبرت فاريل بذلك فأسرع بالمجيء من نيوشاتل وقام بالمراسيم الدينية للزفاف !!

قلت أظن أني لا أكون فضولياً إذا سألت عن بعض خصوصياتك إذ أن لها الكثير من التأثير على حياتك !! ولم يبد على وجه كلفن ما يكشف عن أثر سؤالي فقلت هل كان زواجك موفقاً وهل ساعد .. أو عطل الخدمة التي كرست حياتك لها ؟

قال : لقد كنت أسعد زوج لأكرم زوجة . لقد تزوجنا في أغسطس ١٥٤٠ .. وبعد أربع أو خمس سنوات أصيبت زوجتي ببعض الأمراض واضطرت أن تلازم الفراش خمس

سنوات وفي سنة ١٠٥٤٩ انطلقت إلى المجد . كان موتها أعظم كارثة مرت بي . ظللت أبكيها كل أيام حياتي . كتبت لصديقي « فاريل » أسكب دم قلبي سطوراً وقد جاء في كتابي له « لقد حرمت من أفضل أصدقاء حياتي ، من واحدة لو قدر لها أن تعيش لقاسمتني راضية كل الرضا كل أثقالي ، لا فقري فحسب بل وموتي أيضاً . كانت طيلة حياتها المعين الأمين في الخدمة . لم يحدث مرة واحدة أن أعاقتني عن خدمتي بأية صورة . لم تسبب لي أية متاعب طيلة حياتي معها . وأنا أذكر بكل تقدير اهتمامها بأولادنا . كانت تهتم بهم أكثر كثيراً من اهتمامها بنفسها . لقد كرست حياتها للعمل حتى الموت في سبيلهم !!

اسمع ياصديقي ، اترك هذا الموضوع الآن واترك خصوصياتي ومتاعبي الآن ... سنتكلم في هذا في حينه ، إذا لزم الأمر !!

قلت : سأترك هذه الخصوصيات الآن ، وأنا أسأل شيئاً واحداً لا علاقة له بالخصوصيات .. وسؤالي : هل كان لزواجك وحياتك كزوج وكأب أي تأثير على خدمتك ؟

ونظر إليّ كلفن يحاول أن يتبين ما أقصد من السؤال ، ولما صمتّ قال : هل لك أن تفصح أكثر عما تقصد من سؤالك ؟

قلت : أخشى أن صراحتي لا تتفق مع اللياقة وأخشى أن تغضبك الصراحة !

قال : بل قل .. إفصح .. فلست أنا أول من تزوج ولست أول من ولد أولاداً ..

قلت : لقد اشتهر عنك أنك رجل جد لا رجل عواطف ، لم يعرف عنك أنك جلست تداعب طفلاً .. أو تدلل امرأة اشتهر عنك الجدية المتطرفة ، الاتزان « الزايد » ، التجهم في وجه المعارضين ، القسوة في معاملتهم !! قال : لقد سبق أن تكلمت بمثل هذا الكلام . وسبق أن أجبتك أن ما اشتهر عني صحيح وغير صحيح في نفس الوقت . إن لي قلباً كبيراً إني أحب . وأصدقائي قد خبروا محبتي . أني أبذل حياتي في سبيل من أحب . الذين عرفوني عن قرب أدركوا هذه الحقيقة !

على أني في ما يختص بسلامة كنيسة الرب يسوع ، في ما يختص بسلامة العقيدة ، في ما يختص بما يتصل بالكتاب ، فإني لا أعرف التسامح ولا أعرف الدبلوماسية ، لا أعرف الكلمات المغلفة ....

قلت : وقد لاحظت أنه بدأ يغضب : كلا ، لا حاجة لنا إلي الدخول في موضوعات مثيرة . لنترك هذا الموضوع الآن لنتركه إلى أن أعد نفسي الإعداد الذي يستطيع أن يواجه الزوبعة . ولنعد إلى خدمتك في استراسبورج .

١٩٨٢/٩/١١

(ب) الهدف الأول في الخدمة :

قلت : لنعد إلى أول الحديث ، ها أنت تعود إلى استراسبورج ، فهل وضعت تخطيطاً لخدمتك أم ... وقال « كلفن » : نعم ، نعم . لقد جعلت هدفي الأول أن أطور أفكاري عن نظام الكنيسة لكي أطبقها بعد ذلك . وقد تحدثت مع كبار رجال الكنيسة عن النظام الذي أفكر فيه وقبلوه !

كانت الخطة تشمل الافتقاد الرعوي ، زيارات للشعب فيها النصح والإرشاد والتوجيه والفحص . أن يقوم الراعي بامتحان من يتقدم طالباً قبوله على مائدة العشاء . والتفت « كلفن » إليّ وقال : أنت ترى الأمر عندك لا يستحق مناقشة لأنكم اليوم تتمتعون بنظام الكنيسة الحرة . لم تكن كذلك في أول عهد الإصلاح . كانت الحكومة ، أقصد المجالس المدنية هي التي تحكم بالقبول والحرمان . وقد نجحت لأول مرة في أن تكون لنا كنيسة حرة . كان مجلس الكنيسة هو الذي يقبل الأعضاء ، وهو الذي يحرمهم . أي أن القبول والحرم كانا مسألة دينية لا مسألة مدنية ، كما كان الأمر من قبل !

كذلك لاحظت أن كنيسة « استراسبورج » كانت كنيسة مرنمة ، ولاحظت أن اختلاط أصوات النساء مع أصوات الرجال في الترنيم يترك تأثيراً عظيماً في النفوس . وقد أعجبت بذلك كل الإعجاب . فقمت بإعداد كتاب ترنيم . جمعت كلمات وموسيقى لسبعة عشر مزموراً من الشعر الفرنسي . مع مزمور منثور ونوتة موسيقية للعقيدة الإنجيلية . كما كتبت للكنيسة كتاباً للعبادة اشتمل نظام العبادة الصباحية وخدمة عشاء الرب التي حلّت محل القداس . كذلك رتبت تنظيماً لخدمة حفلات الزواج .. لقد كانت لي في « استراسبورج » الحرية للانشغال بعمل خلاق في هذا المجال أكثر مما حصلت عليه في أي وقت من أيام خدمتي .

وابتسمت وأنا أسمع كلامه ، فقال : لك أن تبتسم لأنك تعيش بعد أيامنا بأزيد من أربعمائة سنة . لقد كان ما أتيته بنعمة الله معجزة !

(جـ) « كلفن » مؤلف التفسير :

لاحظت أن « كلفن » يحاولْ أن يترك مكانه ، فقلت : هل تظن أن من المناسب أن تؤجل الحديث إلى الغد أو إلى ما بعد الغد . قلت ذلك وأنا أقرأ الكلمات الأخيرة التي كتبتها ، ورفعت رأسي فلم أجد « كلفن » . لقد تركني بدون وداع ..

لكن يبدو أن « كلفن » لم يبتعد عن المكان فقد رأيته مقبلاً قبل أن أتهيأ لترك المكان وسمعته يقول : أعتقد أنك ترغب أن تسمع عن بعض ما قمت به في « استراسبورج » خلاف ما ذكرته لك .

لقد ذكرت لك موضوع تطوير أفكاري وتطبيقها كما ذكرت لك موضوع تنظيم الخدمات التعبدية ووضع سلطان قبول العضوية والحرمان منها في يد الكنيسة . وقد ذكرت لك عن كتاب الترنيم وكتاب خدمة العشاء الرباني ومحافل الزواج . لا أذكر بالضبط إن كنت وضعت كتاباً لخدمة الدفن . هذه لم تكن أشياء هينة في ذلك الوقت . لقد تمت في وقت كانت الإدارات المدنية تعتقد أنها هي صاحبة الأمر والنهي فيها !!

وثمة أمر آخر هام ، فقد طرقت مجالاً آخر في ميدان جديد . كتبت في تفسير الكتاب المقدس . وكان أول كتاب هو تفسير رسالة رومية . كنت أتفق مع « مارتن لوثر » في أهمية هذه الرسالة . إنها فعلاً أهم رسالة يجب أن يهتم بها السائح المسيحي في طريق الحياة المسيحية . فيها يخلص الخاطيء من رعب الدينونة إذ يطرح نفسه على نعمة الله المخلصة . فإننا بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منا ، هو عطية الله .

وابتسمت ابتسامة عريضة وأنا أقول من « سينيكا » إلى « بولس الرسول » . من الاعتماد الكامل على الذات إلى القاء النفس في حضن المسيح ؟!

وقال « كلفن » : نعم نعم . كانت رسالة رومية السفينة التي وجد فيها « مارتن لوثر » حياته . وجد الله الصالح الطيب . كان يبصر الله القدوس الطاهر الديان ولكن ها هو يبصر أيضاً الله المحب الفائض بالنعمة ... واستمر كلفن يقول :

أمسكت بالقلم في « استراسبورج » ولم أتركه طيلة حياتي . ظل معي مدة اقامتي في « استراسبورج » وبعد انتقالي إلى « جنيف » . بل قد ظهر القلم بعد انتقالي إلى الأبدية . ظللت أملي على سكرتيرتي إلى أن عجزت عن الكلام قبل انطلاقي بساعات قليلة وسأتحدث معك عن مؤلفاتي في ما بعد عندما أحدثك عن مواعظي وكتبي !!

(د) المسكونية :

وثمة شيء آخر ، فقد اتخذت في « استراسبورج » اتجاهاً آخر ذلك هو اتجاهي نحو المسكونية . على أن مسكونيتي كانت محدودة ، قل أنها مسكونية « بروتستانتية » أخرجت الكثلكة من حسابي . كانوا يعتبرون أنفسهم الكنيسة الوحيدة . أقاموا سوراً فصلهم عن العالم كله . السماء لهم وحدهم والباقون إلى الجحيم . أقصى ما يتسامحون فيه أنهم قد يقبلون الابن الضال . وحتى هذالابدوأن يجتاز في مطهر أرضي يغسل « أدران الهرطقة » من جسده ونفسه . من أجل ذلك تركت الكاثوليك جانباً وفكرت في الكنائس المصلحة . لماذا تعيش هذه الكنائس ممزقة ؟ لماذا زونجلي ولوثر .. وكلفن وميلانكثون .. لماذا لا نجلس معاً ونحاول أن نؤلف كنيسة واحدة أو على الأقل اتجاهاً واحداً ؟

وقد حضرت عدة مؤتمرات وقابلت عدداً من القادة وأمكنني أن أصل إلى شيء . لم أستطع أن أصل إلى كنيسة واحدة في مظهرها لكني وصلت بنعمة الله إلى كنيسة واحدة في روحها — وقد جذبني بشكل خاص « فيليب ميلانكثون » خادم « هيدلبرج » وخليفة « لوثر » ووريثه في الفرع اللوثري لحركة الإصلاح . وفي « استراسبورج » تقابلت مع « مارتن بوسر » الزعيم الإصلاحي العظيم ، وبالطبع كان هناك « فاريل » وعدد من قادة الإصلاح !

في « استراسبورج » وجدت المدرسة التي تدربت فيها على الخدمة . كانت المكان الذي مارست فيه نظرياتي عملياً . تعلمت فعلاً أن النظريات شيء ، والحياة شيء آخر . كذلك تقابلت مع عدد من عظماء قادة الاصلاح .. عظماء متواضعين . في « استراسبورج » اكتشفت أني مجرد واحد من جنود الملك !

كانت ثلاث سنوات ١٥٣٨ — ١٥٤١ ولكنها كانت مدرسة من نار ، نضجت . كان « كلفن ١٥٣٨ » يختلف اختلافاً كبيراً عن « كلفن ١٥٤١ » — فعلاً أخذت

« البكالوريوس » الحقيقية لخدمتي المقبلة بنعمة الله .. « البكالوريوس » ؟ لا ، بل الدكتوراه . كان الله يعدني للخدمة في « جنيف » . أصعب مكان خدمت فيه . في « جنيف » قضيت ليالي ، كنت أبكي من الغروب إلى الصباح . في « جنيف » قضيت أياماً منكفئاً على وجهي أمام الله طول النهار . في « جنيف » أحسست بمرارة الفشل كما لم أحس به في أي مكان آخر . كم مرة فكرت أن أهرب من « جنيف » بل كم مرة بدأت الخطوة الأولى في الهروب . كانت « جنيف » تقبض عليّ بأذرع كأذرع الأخطبوط . سحقتني ، أذلتني ، عصرتني ، عرقي كان ينزل كقطرات دم . هذه هي « جنيف » التي أعددت لها في « استراسبورج » . نعم كانت المدرسة التي ختمت فيها دراستي للعمل في « جنيف » كنيسة « استراسبورج » . كنت نظير الطلبة الذين يظنون أنهم يتعبون كثيراً في الدراسة ويظنون أنهم بعد أن ينتهوا من تعب الدراسة سيستريحون . لكنني اكتشفت كما يكتشف الطلبة عادة غير ذلك . قابلت في جنيف أعظم صراعات قاسية في حياتي !!

الحديث السابع

خدمة الحياة

١٩٨٢/٩/١٢

العودة إلى جنيف

سمعتك تقول ان « استراسبورج » كانت المدرسة التي أحسنت إعدادك للخدمة التي قمت بها في « جنيف » . فما الذي أعادك إلى تلك المدينة التي طردتك عدة مرات ، المدينة المتقلبة الممتلئة بالانقسامات . وقال « جون كلفن » : صدقني لا أعلم . لقد أرسلوا إليّ يستدعونني المرة بعد المرة ، ويلحون في ضرورة عودتي ، وقد اعتذرت المرة بعد المرة . كنت أحس أن « جنيف » ليست مكاني . وقد كتبت لصديقي « فيريه» ، الذي كان لا يزال في جنيف ، قلت : « لا يوجد مكان تحت السماء أخشاه أكثر من « جنيف » . ولكنني لم أستطع أن أقاوم فقد أخذت بالتدريج استسلم إلى التوسلات الكثيرة . وكتبت ل « فاريل » أقول : « عندما أرى أنني لست في قوتي فإني أقدم قلبي ذبيحة للرب .. إني أسلم نفسي مقيداً مربوطاً لطاعة الله » !!

وفي أول سبتمبر ١٥٤١ استسلمت وسافرت إلى « بازل » حيث سلمت على أصدقائي وقدمت تحياتي للزعماء في برن ، وتوقفت في « نيوشاتل » لزيارة صديقي « فاريل » ، ووصلت « جنيف » في الثالث عشر من سبتمبر !!

قلت : وقد علمت أنك أقمت تخدم في المدينة إلى آخر حياتك . ترى أما ندمت يوماً أنك قبلت العودة ، ألم تفكر يوماً في ترك العمل فيها ؟

قال : لا أظن أني أستطيع أن أقدم لك جواباً صحيحاً . لقد أحسست من الأول أن الله يدعوني للعمل في المدينة . أني لم أطلب العمل ولم أرغب فيه بدافع شخصي . أني قبلت العمل لأني شعرت بدعوة الله . وكنت أحس طول الوقت أنه يجب أن أعمل استجابة لدعوة الله . نعم أنا تألمت كثيراً ، وقابلت منغصات . ما أكثر الليالي التي قضيتها جالساً

في فراشي منحنياً أمام الله . ما أكثر الدموع التي سكبتها ، ما أكثر التأوهات التي صعدت من صدري . وما أكثر العتاب الذي صعد من قلبي . ما أكثر ما ترددت في جوانب المكان : لماذا ياربي ؟ . ولكني لم أفكر يوماً في الهروب .. كلا ، لم أفكر .

قلت : والمفشلات ، ألم تقابل العدد العديد منها ؟

قال : بلى ، ولكني أستطيع أن أقول بفخر خال من الغرور ، إن خدمتي أدّت رسالتها وإنها نجحت .. نعم نجحت في إرساء قواعد التعليم الصحيح ، التعليم الذي أعتقد ، أنا على الأقل ، أنه يتفق مع الكتاب المقدس .

قلت : لنترك هذه النقطة الآن ، فإن لي أسئلة كثيرة أرجو أن أستوضحها فيما بعد . لا أظن أنك تستطيع أن تقول إن التعليم كما أرسيت قواعده أنت هو التعليم الصحيح الوحيد

قال : إني لا أقول بذلك ولكنني أقول إنه التعليم الوحيد الذي أستطيع أن أحاج في سبيله . ومع ذلك فلنترك هذه النقطة الآن كما نقول ...

وهل من المناسب أن تعود إلى ما كتبته في ذلك الوقت . هذه الكلمات كتبتها بيدي في ذلك الوقت . أنت تعلم أني أكره أن يكتب أحد عني . وإن ما كتبته عن نفسي قليل . لكني كنت أضطر إلى ما أكتب !!

وهاك هي الكلمات :

« لقد أشفق الرب على مدينة « جنيف » وهدّأ المنازعات الرهيبة هناك .. وبعد أن أبطل بقوته العجيبة المؤامرات الأثيمة والمعارك الدموية ، اضطررت رغماً عني ، أن أتولى مرة أخرى العمل هناك . لقد كان سلام هذه الكنيسة أهم لدي من نفس حياتي . ولكن تهيّبي للموقف ظل يقيم أمامي العقبات المختلفة لأرفض أن أضع عنقي مرة أخرى تحت هذا النير الثقيل . ولكن نداء الواجب وصوت الإيمان غلباني أخيراً ، فعدت للقطيع الذي طردت من حظيرته . ولكن بأي حزن عميق وبأية دموع غزيرة وفي أي قلق شديد ذهبت ؟ الله وحده يعلم ، الله وحده هو خير شاهد .. وكانت النتيجة أنني أنا الرجل المسالم الخجول اضطررت أن أتصدى للهجمات العاتية جاعلاً من جسدي ترساً يتصدى لهذه الهجمات !!

قلت : لقد قرأت هذه الكلمات كما أني علمت أن الهجمات الضارية استمرت مدة أربعة عشر عاماً إلى أن بلغت حركة الإصلاح في كنيسة جنيف أشدها . وسمعت أنك قمت بجهود الجبابرة وأنك لم تكن مجرد ترس لصد هذه الهجمات ، فقد كنت قلعة محصنة بعديد من « الأتراس » ، بل كنت قلاعاً وحصوناً . لقد قالوا أنك كنت نفس الإصلاح !!

وكان « كلفن » يحاول أن يقاطعني ولكنني ظللت أتكلم إلى أن نجح أخيراً في مقاطعتي قال إن الناس يقولون كثيراً . ولعل من « الأربح » لنا ألا نعطي كلامهم أكثر من قيمته الحقيقية !

قلت « لكلفن » ، وأنا ألقي نظرة طويلة على قائمة الأسئلة التي أريد أن أجد جواباً كافياً عنها ، أن أمامي عالماً بأسره أريد أن أجول فيه . أريد أن أعرف شيئاً عن خدمتك كواعظ وخدمتك كراع وخدمتك كرجل إصلاح وخدمتك كواضع لأسس النظم المشيخية وخدمتك كمؤسس لما يسمونه الدولة المسيحية .. كما أريد أن أعرف شيئاً عن مؤلفاتك .. وشيئاً أكثر عن كتابك المشهور « المباديء » . وأريد أن أناقش بعض تعاليمك ، وعلى وجه الخصوص ، قضية الإختيار ، وقضية الإيمان ، والأعمال ، والفرائض أو الأسرار كما يدعوها البعض .. وهكذا . فأنت ترى أنها موضوعات تتطلب لا سفراً واحداً بل أسفاراً . ولئن كنت أنت مستعداً أن تجلس وتتكلم ، فانني بالرغم من رغبتي أن أسأل وأستمع لا أطمئن إلى الأيام التي تقرر العناية أن تمنحها لي .. لذلك سأحاول أن أتبع ما ندعوه الأولويات . وإذا ما سمحت العناية فسنعود إلى بعض ما تركناه من تفصيلات . ومن يعلم فربما سمحت العناية أن أسمع منك كل ما أبغي !

وهز « كلفن » رأسه موافقاً فقلت : إذن أرجو أن أسمع تلخيصاً عن عملك في جنيف كواعظ وكراع وكمؤلف .. فإذا ما فرغنا من هذا ... وهنا قال « كلفن » : رويدك . دعنا ننتهي من هذه المسألة أولاً .. ثم قال : لاحظ أنك لا تطلب تفصيلا بل تلخيصاً .

ـــ كلفن الواعظ :

قال كلفن : أنت تسأل عن « كلفن الواعظ » .. فاعلم أن الكرازة كانت وظلت عملي الأول . الكرازة بكلمة الله . لم أسعَ مطلقاً وراء مركز آخر . كنت وما زلت أعتقد أن المناداة بكلمة الله في المواعظ والمحاضرات والكتابات عمل يكفي لأن يشغّل فيه أي إنسان

كل مواهبه وطاقاته . كنت أعظ كل يوم أحد بانتظام . وكنت في بعض الأسابيع أعقد اجتماعات يومية . وفي كل أسبوع كنت ألقي ثلاث محاضرات لاهوتية . وقد جمع الصحاب أكثر من ألفي عظة كاملة . كنت أهتم في مواعظي بتقديم كلمة الله آية آية . لم يستطع أي إغراء أن يبعدني عن « كلمة » كنت أدرس « الكلمة » وأتعمق فيها وأقدمها . كانت « كلمة » الله أثمن من كل كلام الناس . إننا نخطيء كثيراً إذ نظن أن كلامنا أهم من كلام الله . عرفت أن كلمة الله ألزم للناس من كل ما يقوله الناس وأكثر جاذبية .

كان هدفي كلمة الله وكنت مخلصاً لهذا الهدف . ويمكنك أن ترى مدى إخلاصي لهذا الهدف في حادث جرى لي عندما صعدت المنبر في كنيسة « سان بييرا » في أول يوم أحد بعد عودتي « لجنيف » . لقد احتشد الناس في قاعة الكنيسة وقد جاءوا ينتظرون حديثاً مثيراً . ولكنهم ذهلوا عندما وجدوا أني أفتح كتابي وأبدأ عظتي بمواصلة تفسير الجزء الذي كنت قد توقفت عنده يوم أن غادرت جنيف من ثلاث سنوات . لقد أجبرني الناس على ترك مكاني ، ولكن لم يكن ثمة شيء سوى الموت بقادر على أن يجعلني أتخلى عن كتابي !!

قلت : معنى ذلك أن وعظك كان من النوع الذي ندعوه الوعظ التفسيري ؟؟

فأجاب : لك أن تقول ذلك لكن ماذا تقصد بسؤالك هذا ؟ هل تقصد أن لا شيء من الموضوعية في تقديم كلمة الله ؟ أليست كلمة الله سراجاً . أليست نوراً . كنت أسلط ذلك النور على كل نواحي الحياة . وإذ ذاك كان الحزين يجد فيها تعزية . والخائف اطمئناناً . واليائس رجاء . والمستوحش شركة . والمضطرب هدوءاً ... وهكذا . أنا هنا لا أنتقد الوعظ الموضوعي ولكني أخاف منه . انه يعرضني للابتعاد عن الكتاب . لقد وصل الأمر بالوعاظ أن خلت مواعظهم تماماً من الكتاب . وبعضهم ينادي بترك الآية في عنوان العظة . بل أن البعض ممّن يستعملون الآية كعنوان يذكرون الآية ثم لا يعودون إليها . أنا يا صديقي كنت أقدم الكتاب . كنت أقدم كلمة الله . ليتكم تعودون إلى الكتاب . لقد نسيتموه . أنتم الآن لا تعرفون شيئاً عنه !

قلت : ترى هل يمكنك أن تخبرني عن عدد عظاتك والمرجع الكتابي . الأصح أن أقول الكتب المقدسة التي وعظتها ؟!

قال : إني لا أذكر شيئاً عن مواعظي قبل عودتي الأخيرة إلى جنيف . لكنهم بدأوا يسجلون شيئاً بعد عودتي كما بدأوا يسجلون العظات كما سمعوها .

وقد ذكر في هذه السجلات أنني في سنة ١٥٤١ كنت ألقي عظتين كل يوم أحد ، وثلاث عظات في أيام الأسبوع الإثنين والأربعاء والجمعة . وفي سنة ١٥٤٢ طلبوا مني أن أزيد عدد العظات فجربت ولكني فشلت . اضطررت أن أعظ مرة واحدة بدلاً من مرتين يوم الأحد .. وقد طلبوا مني بعد ذلك أن أزيد عدد العظات ولا أعلم كم استمر ذلك . كان القوم جياعاً لكلمة الله .. كنت أعظ من العهد الجديد في أيام الآحاد . ومن العهد القديم في أيام الأسبوع . على أني أجريت بعض التغيير في ما بعد !!

وقد وجدت سجلاً لعظاتي يمكن أن أقدمه لك . وهو ليس سجلاً دقيقاً تماماً لكنه أقرب إلى الدقة من أي سجل آخر . ففي السنوات ١٥٤١ ـــ ١٥٤٨ وعظت أيام الآحاد غالباً ما بين ٤٠ ـــ ٨٠ عظة كل سنة من رومية ويوحنا وفيلبي وكولوسي والرسائل الجامعة . وفي السنوات ١٥٤٦ ـــ ١٥٤٨ لا أذكر عدد العظات . كانت سلسلة عظات من سفر المزامير وعظتها عصر الأحد . وفي سنتي ١٥٤٨ و ١٥٤٩ وعظت من سفر العبرانيين ، وفي السنوات ١٥٤٩ ـــ ١٥٦٤ وعظت أقل قليلاً من مئتي عظة من أعمال الرسل ، ومن سنة ١٥٥٤ إلى سنة ١٥٥٨ وعظت من رسائل بولس . كما وعظت في السنوات ١٥٥٩ ـــ ١٥٦٤ ، ٦٥ عظة من الأناجيل . أوه ، أظن لا داعي أن أذكر لك السنوات أو العدد ، يكفي أن أقول لك أني وعظت أيضاً من إرميا ومراثي إرميا والأنبياء الصغار ودانيال وحزقيال والتثنية وإشعياء والتكوين والقضاة وصموئيل الأول والثاني والملوك الأول . هذه المواعظ في أيام الأسبوع ما بين سنة ١٥٥٠ إلى سنة ١٥٦٤ أي إلى آخر أيامي على الأرض !

قلت : يسرني أن أخبرك أن عظاتك لم تعتبر شيئاً رجعياً ، كانت لازمة لوقتها . بل لكل وقت ، فان القوم لا زالوا يعيدون طبعها ونشرها !

وقال « كلفن » : أني لا أندهش من ذلك لأنها كانت تحوي كلمة الله . وكلمة الله يا صديقي ليست لزمن خاص . إنها تناسب كل الأزمان ، ليتكم تعودون إلى الكلمة !!

دعني أقول لك شيئاً عن مواعظي :

كانت المواعظ تسير مع الآيات نفسها . كانت تفسيراً للأجزاء الكتابية في ضوء قواعد اللغة والتاريخ مع تطبيقها على حياة السامعين . في أغلب الأحايين كنت أتكلم مرتجلاً ، ولكن في مناسبات نادرة كنت أستعين بمذكرات قليلة على قطعة من الورق . وكان أسلوبي بسيطاً ، وهل أقول جذاباً متماسكاً وغنياً بالأقوال المأثورة والأمثال الشعبية والعبارات الشائعة ، زاخرة بالتشبيهات والصور المأخوذة من واقع الحياة . أما ما كنت ألتزم به فهو

الصدق والإخلاص والإلتزام بما يمليه النص ومقتضيات الموقف في تلك اللحظة . أما الهدف من العظة فقد سجلته عفو الخاطر في هذه العبارة :

« حالما نبدأ العظة ينبغي أن نضع أنفسنا في حضرة الله أنه هو الذي يعلمنا حسب مواعيده الكريمة ليرينا أننا يجب أن نطمئن إلى صلاحه ومراحمه ، وحتى لا نتكل على استحقاق فينا ، أو أي شيء نستطيع أن نؤديه من ذواتنا . بل يجب أن ننتظر أن الله يمد يده لنا فهو الذي يبدأ وهو الذي يكمل . وبكيفية تجعلنا نطلب وجهه دائماً . فيسوع المسيح وحده هو شفيعنا . وهذا ما نختبره كل يوم . كما يعلن لنا أن خدمة الله لا تبنى على تخيل عبارات غبية ... وأننا يجب أن نخدم الله في طاعة . وبعد أن ندرك ذلك يجب علينا أن نضحي بقلوبنا وعواطفنا قبل كل شيء . فالرياء مكرهة لي . كل هذا يعلنه لنا يومياً . كما نتعلم كيف يجب أن ندعو باسم الرب ، ونتعلم لأي غرض قد عمدنا ، وما هو ثمر معموديتنا في كل أيام حياتنا حتى الممات . ولماذا نشترك في عشاء الرب .. كل هذا يعلنه لنا .

قلت : ولكني لاحظت أن مواعظك بالرغم من أنها كانت مملوءة ومطعمة بالكتاب المقدس إلا أنها كانت أيضاً مملوءة بكل ما حفل به العلم والأدب واللغة والفلسفة من كنوز . نعم ، كانت هذه تعمل لإبراز جمال الكتاب . كانت مواعظك تبرز الواعظ الكتابي مئة في المئة ، ولكنها كانت أيضاً تقدم العالم الأديب الفيلسوف البليغ .. وانحني « كلفن » وقال : ولكن كل هذا كان في خدمة الكتاب .. الكتاب المقدس .. نعم كلمة الله !!

ــ كلفن المفسر

قلت : وما دمنا قد تكلمنا عن المواعظ الكتابية فإننا نرى لزاماً علينا أن نتكلم عن التفاسير الكتابية . يغلب أنك وأنت تقدم كلمة الله في عظاتك قد رأيت من الواجب أن تقدم الكلمة الإلهية ؟

وأجاب « كلفن » : هذا صحيح وإن كنت قد بدأت هذا المشروع مبكراً .. في ١٥٣٩ عندما استكملت شرح رسالة بولس إلى أهل رومية وأعددته للنشر ...

ولعلك تلاحظ أني انتظرت فترة قبل أن أخرج الكتاب الثاني وهو شرح رسالة كورنثوس ، هذا لم يتم إلا في ١٥٤٦ أي بعد سبع سنوات . بعد ذلك « ركضت الكتب ركضاً » فظهرت التفاسير في السنوات ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ .. وبعد أن انتقلت ظهر تفسير حزقيال سنة ١٥٦٥ . فقد ظهر تقريباً كتاب كل سنة ، أو كل سنتين ، بل قد ظهر كتابان في سنة ١٥٥١ وثلاثة كتب سنة ١٥٦٣ !!

قلت : ترى هل يمكنني الاستفهام ؟ أو ، في الحقيقة لا أعرف كيف أصيغ سؤالي . هل أنت تكتب تفاسير فكيف كتبت . وأي المراجع استعملت ؟ وهل كنت تستند على مراجع دينية . في الحق ألتمس أن تشرح لي كيف استطعت أن تخرج تلك الكتب العظيمة التي لا تزال إلى الآن تحتل القمة بين أعظم الكتب ؟

وقال كلفن : أعتقد أنه لا حاجة لي أن أتواضع التواضع الكاذب . إنها فعلاً كتب عظيمة . إنها تستحق التقدير . إني أعتقد أن الله نفسه أملاها لي . ولكن المداد الذي كتبتها به هو دمي . أشكر الله ، أشكر الله أن فضله رافقني طول الوقت .

وقد كنت أستخدم في دراسة الكتاب أكفأ الوسائل المتاحة . وعندما لم تكن تكفي هذه الوسائل المتاحة ، كنت أبتكر ما هو أكثر ملاءمة !!

ولعل من اللازم أن أقول لك إن أولى الوسائل لدراسة الكتاب هي إتقان اللغات الأصلية التي كتبت بها الأسفار الالهية . لذلك بدأت بدراسة اللغة اليونانية في سني دراستي الأولى وأصبحت أتكلمها بطلاقة . أما اللغة العبرانية فقد بدأت دراستها . ومع أني لم أتقن هذه اللغة القديمة تماماً إلا أني أصبحت أعرفها معرفة أتاحت لي ما مكنني في فهم الكتاب فهماً أقرب إلى الكمال . كانت عقيدتي أن دارس الكتاب لا يجوز أن يكتفي بالترجمات . مهما كانت الترجمات دقيقة فإنها لا يمكن أن تنقل الكلمة نقلاً كاملاً . ان الباحث المدقق في كلمة الله لا يمكن أن يصل إلى غرضه إلا إذا أمسك بناصية اللغات التي كتبت فيها النصوص أصلاً !!

قلت : أذكر أني في أول الأمر كنت أحس بشيء من الملل . وأنا أسمعك تذكر لي عن دراساتك وأنت بعد صغير . كنت أظن أن لا علاقة كبيرة بينها وبين الأعمال العظيمة التي قمت بها . كنت أسأل عن دراساتك للغات اللاتينية واليونانية ، وها أنا أرى مكانها في دراساتك للكتاب . وقد سمعتك تتحدث أثناء حديثك عن بعض الأساتذة وما أفدته من الأسلوب سواء كان في الدرس أو الإلقاء أو الكتابة ، فهل لك أن تذكر لي شيئاً عن الأساليب التي أخذتها عن مؤلفين آخرين سواء كانوا من رجال الكتاب أو من غيرهم ؟؟

وقال « كلفن » : لقد درست .. هل أقول أتقنت ، الأساليب التي استخدمها غيري من الأساتذة ورجال الكنيسة في تفسير الكتاب ، فقد تعلمت الطريقة المجازية من أوريجانوس وأوغسطينوس ، ولو أني قلما استخدمتها لأني شعرت بأنها تنحرف بالمفسر عن المعنى الواضح للنص ــ كما أني درست شروحات فم الذهب وجيروم من القرن الرابع كي ألمّ بآرائهما الخاصة بالأجزاء المختلفة للكتاب ــ وقد أفدت من العلوم « الإنسانية » من « لورنزوفال » و « وليم بود » وهما من كبار أساتذة العلوم الإنسانية في الجيل السابق لجيلي . وقد تعلمت أساليبها اللغوية في استكشاف المعاني الحقيقية للكلمات القديمة ــ أما أستاذي الأول في دراسة الكتاب فهو « أرازميس » . أخذت عنه الدراسة النقدية فيما يختص بكتبة بعض الأسفار المقدسة كما أخذت عنه أيضاً استقلاله فيما يتعلق بمصادرها وآراءه من جهة كتابة الكتاب المقدس بتوجيه الروح القدس !!

قلت : هلا أفضت قليلاً في ما يختص بشروحاتك وخصوصاً للعهد الجديد ؟

وقال « كلفن » : إني أعددتها بالقائها أولاً على شكل محاضرات . ثم أمليتها على سكرتيرين. ثم قمت بتنقيحها للنشر . أما في العهد القديم فلم أبذل مثل هذه الجهود كان السكرتيرون يسجلون المحاضرات وأنا ألقيها وكنت أنقح ما سجلوه وأتابع الكتاب حتى النشر .

واستعداداً للكتابة كنت أقرأ النص في اللغة الأصلية ثم أترجمه إلى اللاتينية . وقد استخدمت نص « أرازميس » للعهد الجديد . ونسخة عبرانية للعهد القديم وعند كتابة تعليقاتي كنت أستعين بعدد كبير من المراجع !!

قلت : ترى هل هي مراجع مسيحية ؟

وقال : بل مراجع مختلفة من المسيحيين ومن اليهود ومن الوثنيين ، والمؤرخين القدماء.. وأنت ستجد آثار هذه المراجع ، فمن المؤرخين القدماء أمثال « يوسيفوس » و « بليني » و « جيروم » ، وأفضل المؤلفين اللاتين أمثال « شيمشرون » و « هوراس » و « جوفينال » و « سينيكا » و « ترنس » و « كاتو » و « كونتليان » و « فرجبل » و « بلوتوس » و « سونونياس » و « تاسيتوس » و « ليفي » ــ ومن المؤلفين اليونانيين « هوميراس » و « بوريبيداس » و « زينوفون » و « أريستوفافس » و « وأبيقور » و « بلوتارك » و « عيسوب » و « أرسطو » و « أفلاطون » و « هيرودوت » ومن الكتاب المسيحيين القدامى « أوغسطينوس » و « فم الذهب »

و « كيرلس الأورشليمي » و « أبيفانيوس » و « باسيليوس » و « امبروزيوس » و « يوسابيوس » و « بيرنارد أوف كليرفو » ولم أغفل الكتاب المعاصرين « ميلانكثون » ، « بوسر » ، « بولنجر » ، « لوثر » .

وكنت في أحايين كثيرة أقوم بدراسة النواحي الجغرافية والتاريخية وبعد دراسة التفاصيل أرجع إلى معنى النص ككل . وفي أغلب الأوقات كنت أكتب ملخصاً لما فيه من تعليم ، أو أحدد الموضوع المركزي ، ثم أطبق ذلك على حاجة الكنيسة وحاجة السامعين .

قلت .... الحقيقية ترددت قبل أن أسأل : هل كنت تكتب كمؤلف يقدم دراسة ، دراسة كاملة من النواحي العلمية فحسب .. أي ... فقاطعني وقال : فهمت ما تعني . وأنا أجيب عن سؤالك الذي ترددت في إلقائه ، نعم كنت أقوم بدراسة شاملة مؤسسة على القواعد العلمية ولكنني في نفس الوقت كنت أقوم بها في حضرة الله . كنت أبدأ المحاضرات بالصلاة فأقول ليت الرب يعطينا أن ندرس أسرار حكمته السماوية . وأن نتقدم تقدماً روحياً حقيقياً لمجده ولثباتنا . وفي ختام المحاضرة ، أرفع لله صلاة طويلة ، ألتمس فيها من السيد أن يستجيب لحاجات المؤمنين كما كشفت عنها الأجزاء الكتابية التي كانت موضوع الدرس .

قلت : أخشى ، أخشى أني أحسّ بشيء من الجفاف في كثير فيما كتبت . كنت أحس بأنها أقرب إلى المحاضرات العلمية التي لا يرحب بها إلا طالب العلم أو العالم . لم تكن تحمل رسالة للمؤمن العادي !!

قال : ربما كان الأمر كما تقول من ناحية بسط الحقائق . لكن من يرغب أن يدرس هذه الكتب دراسة مثمرة فعليه هو أيضاً أن يطلب روح الله ، وأن يقرأ الكتب في حضرة الله .. وصمت كلفن قليلاً ثم قال : إن التفاسير التي كتبها الروح القدس بيدي تخلو مما يدعوه الناس المحسنات اللفظية والكلام العاطفي الذي يترك تأثيراً وقتياً .. نظير التأثير الذي تتركه قصة باكية ، ونلاحظه في اجتماعات « النهضات » . وأنا لا أنقد هذا النوع من الوعظ والتفسير . إن له بعض النفع إذا استطعنا أن ننتهز فرصة التأثر وقبل أن يبرد التأثير . ولكنني أؤكد لك أن الكتابة التي تستند على الحقائق لا على العواطف والإنفعالات وكذلك الوعظ ، هي الأبقى والأعمق والألزم !!

وأنت تلاحظ ذلك يقيناً في مختلف المؤلفات المحيطة بك !

ولقد تظهر لي من كتب العهد القديم تفسير التكوين وباقي الأسفار الخمسة . وقد ظهرت قبل انتقالي بسنة واحدة أي في ١٥٦٣ . وفي نفس السنة ظهر تفسير سفر يشوع أما المزامير فقدظهرت مبكراً قبل انتقالي بسبع سنوات ١٥٥٧ وفي ١٥٥١ ظهر تفسير إشعياء . أما إرميا والمراثي فقد ظهرا بعد ذلك بعشر سنوات . ودانيال والأنبياء الصغار بعد المزامير بسنتين . وكنت قد أمليت تفسير حزقيال ولكنه لم يظهر إلا بعد انتقالي بسنة . وفي مرضي الأخير كنت أملي في التثنية وأيوب وصموئيل !!

أما التفاسير للعهد الجديد فقد بدأت « برومية » كما سبق أن ذكرت لك (١٥٣٩) ــ وظهرت الأناجيل الثلاثة الأولى ١٥٥٥ . أما « يوحنا » فقد ظهر قبلها بسنتين ١٥٥٣ ــ وظهر « أعمال الرسل » قبله بسنة ١٥٥٢ . ورسائل بولس ظهرت في سنوات متفرقة « كورنثوس » ١٥٤٦ . و « غلاطية » و « أفسس » و « فيلبي » و « كولوسي » ١٥٤٨ . و « تسالونيكي » ١٥٥٠ . و « تيموثاوس ١٥٥٦ . و « تيطس وفليمون » ١٥٤٩ . وكذلك « سفر العبرانيين » ــ أما الرسائل العامة فقد ظهرت ١٥٥١ .

قلت : لقد سبق أن سمعت عن أعمالك العظيمة لكني اذ أتأمل ما قمت به يخيل لي أني لست أمام فرد بل أمام جيل من الناس . من أنت أيها الصديق ؟ قل لي من أنت ؟ إنك لم تكتب قصصاً أو روايات أو أحاديث . إنك قد أخرجت تفاسير ، كل تفسير يتطلب « عمراً » لأكثر من شخص . إن ما كتبت هو دائرة معارف تتطلب عشرات بل مئات الأشخاص !!

واحمر وجه « كلفن » لأول مرة ، وقال : صمتا ياصديقي ، نعم أن جسدي انهار تحت أثقال ، لكن لا تنس الله . لا تنس الله . « لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود » « من أنت أيها الجبل العظيم ؟ أمام زربابل تصير سهلاً » .

قلت : كنت أرغب أن أتحدث عن باقي مؤلفاتك وخصوصاً كتاب « المباديء » . ولكني أوثر أن أؤخر حديثي عنه إلى أن أفرغ من كل شيء معك ، لأني أرغب أن أدمج أسئلتي عن قواعد الإيمان ، الأسئلة المتفرقة ، أريد أن أجعلها والكتاب شيئاً واحداً .

لذلك أرجو أن أنتقل إلى موضوع آخر !!

ـ كلفن الراعي ١٩٨٢/٩/١٥

قلت لقد قرأت في كتاب حديث لأحد أساتذة الدراسات اللاهوتية يقول إن الراعي إذا أعطى المنبر حقه من العناية ، فلا يمكن أن يعطي الافتقاد الرعوي حقه من الرعاية ، فإذا ما أعطي الافتقاد حقه المطلوب ، كان منبره هزيلاً ولابد . فإذا ما أعطى المنبر والافتقاد حقهما الواجب ، فستنهار أعصابه حتماً . وقد قدم الكاتب علاجاً للموقف . على أنني هنا لا أناقش العلاج لأن الأمر تعدى المنبر والافتقاد . أمامي « كلفن » الواعظ الكبير الذي أبقت لنا السجلات عدة ألوف من العظات الخالدة التي ألقاها . وأمامي « كلفن » المؤلف الذي ذخرت المكتبات العالمية بعشرات الكتب ذات القيمة ... وسأسأل عن « كلفن » الراعي .. و « كلفن » واضع النظام المشيخي و « كلفن » اللاهوتي .. و « كلفن » السياسي . كيف استطاع شخص واحد أن يقوم بكل هذا .. لكن صديقي الأستاذ اللاهوتي قد صدق ، فها أنا أرى « كلفن » منهاراً صحياً تحت هذه الأثقال .

وابتسم « كلفن » ابتسامة باهتة وقال : لقد كانت الأوقات تتطلب ما إلتزمت به . أنا اليوم لا أنصح شباب الخدام أن يسيروا في خطواتي . أنا كنت مضطراً أن أسلك السبيل الذي سلكته . ألم تسمع القول « مكره أخوك لا بطل » ولكن لنترك هذا الموضوع . أظن أنك كنت قد طلبت أن تسمع شيئاً عن « كلفن الراعي » ؟؟

قلت : « الحقيقة أن سؤالي يتضمن أكثر مما تتطلبه الرعاية في أيامنا . لقد اختلطت الأمور أمامي لم أعرف الخط الفاصل بين الحكومة المدنية في « جنيف » والإدارة الكنسية . في عصرنا هذا ، للكنيسة سلطاتها الروحية فقط لكن الأمور تبدو ... الحقيقة إني لا أعرف أن أجمع أفكاري . لكن دعني أعرف منك شيئاً عما قمت به من اهتمام بافتقاد الرعية . لقد عرفت منك ومن غيرك أنك كنت تهتم بتقديم الغذاء لرعيتك اهتماماً عظيماً . يستطيع كل فرد من أفراد رعيتك أن يفتخر بالغذاء الشهي الذي تمتع به من منبرك ومن مؤلفاتك . لقد قدمت كلمة الله . كنت أميناً لسيدك من هذه الناحية ، وأعتقد أنك كنت أميناً في افتقادك لرعيتك !!

وقال « كلفن » : لقد ذكرت هذا الواجب . أدركت أني أستطيع أن أقدم الكلمة أيضاً في زياراتي للرعية . أستطيع أن أنذر وأحرض وأحضن وأوبخ كل فرد . أستطيع أن أسمع لأفراد الرعية وهم يهمسون لي بكل ما يشغل قلوبهم ، بمتاعبهم ومشاكلهم . كنت أزور المريض والمحبوس ، كنت أفتقد الأغنياء والفقراء . كنت أستمع للخاطيء وهو يهمس باعترافه وكنت أقدم له كلمة الله للتهدئة والتطمين والإرشاد ...

ـــ الاعتراف :

قلت : يبدو أنك تؤمن بالاعتراف ؟

فقال : لا شك أني أومن بالاعتراف . حسن أن يأتي الخاطيء ويهمس لي بما أتى من إثم . على أنه ليس ملتزماً بذلك . أما الاعتراف التفصيلي الذي كان الكهنة الكاثوليك يعتبرونه سراً من الأسرار يلتزم كل مؤمن أن يتممه ، فأنا لا أشجعه . لا أقول بلزوم الاعتراف التفصيلي ، ولكني أشجع أن يأتي الخاطيء باختياره ويهمس بمتاعبه الروحية . كانوا يفعلون ذلك . وكنت أحاول أن أقود الخاطيء إلى المخلص الوحيد . إني لا أملك سلطان الغفران ولكني كراع أستطيع أن أحمل « المفلوج » إلى السيد ليقول السيد له « مغفورة لك خطاياك » نعم ، أشكر الله أني فعلت ذلك . فوق هذا ، استعملت مؤلفاتي في الإرشاد ، واستخدمت البريد أيضاً . فكنت أكتب عدداً كبيراً من الخطابات لأشخاص من العلية ومن العامة .. أرسلت بعض المكاتيب لذوي النفوذ ورسائل تشجيع وتوجيه لأناس تزعزع إيمانهم . أرسلت مكاتيب إرشاد ومكاتيب تعزية للحزانى . حاولت بزياراتي ورسائلي أن أجمع الشمل وأصالح المتخاصمين . وقد حاولت أن أقدم القدوة للآخرين . لقد قمت وأنا في « استراسبورج » بالعناية بمرضى الطاعون . وفي « بازل » اعتنيت بابن أخت « فاريل » إلى أن مات بين يدي . وفي وقت انتشار الطاعون في « جنيف » حاولت أن أعتني بالمرضى ولكن السلطات المدنية منعتني « لأن الكنيسة محتاجة إلى خدمتي » .. هكذا قالوا . نعم أعتقد أني قمت بنصيب يذكر بنعمة الله في خدمة الرعاية !!

قلت : هل تذكر ما قلته لك عن استحالة ـــ أو لنقل « تعذر » يقرب من الاستحالة ـــ أن يقوم الراعي بخدمة المنبر خدمة كاملة وأن يعطي الافتقاد نفس الأهمية ، وإلا هوى تحت أثقال الخدمة ؟

قال : نعم أذكر ذلك ، وقد سقطت أنا تحت أثقال شديدة المرارة !!

قلت : لنترك الآن أمر متاعبك الصحية وغيرها لأني معني بأمر الرعاية من حيث تعاون الكنيسة معك . أقصد تعاون من ندعوه في هذه الأيام بمجلس الكنيسة ؟

قال : نعم نعم . يمكن أن أقدم لك جواباً غير مباشر بذكر التنظيم الذي قمت بإعداده حينما ذهبت إلى « جنيف » في المرة الأخيرة !!

ـــ وثيقة الفرائض :

حالما رجعت خططت تنظيماً قدمته لمجلس المدينة لاعتماده . قدمت وثيقة بعنوان « الفرائض الدينية لكنيسة جنيف » . واعتمد مجلس المدينة هذا النظام وبذلك اكتسب القوة التنفيذية !

وقد حوت هذه الوثيقة ما يتصل بالوظائف الكنسية وعقد الاجتماعات وتأديب الخدام وتأدية شعائر المعمودية والعشاء الرباني .. وهكذا !!

قلت : ألا يمكن أن تلقي النور على بعض بنود الوثيقة ؟

فقال : نعم !

ذكرت أولاً الوظائف في الكنيسة . قلت أن بالكنيسة أربع فئات من الموظفين الرعاة والمعلمون ، والشيوخ والشمامسة !!

ـــ الإنجيل الاجتماعي :

قلت : لقد سمعت عن هذا النظام ، لكنني سمعت الشيء الكثير مما أربكني ولست أظن أنك تستطيع أن تفسر لي الكثير مما يتصل باختصاصات مجلس الكنيسة التي يتداخل بعضها في اختصاصات مجالس المدينة أو بالعكس . والأحكام التي تتصل بهذا المجلس أو ذاك . فقد سمعت أنك كنت مختصاً بتنفيذ قوانين تتصل بلزوم حضور اجتماعات الكنيسة وحضور الأولاد والبنات لمدارس الأحد والا حكم عليهم أحياناً بالسجن . كما كلفت بالإشراف على تنظيف المداخن والاهتمام بوجود المراحيض في البيوت ونظافة الشوارع . وقد إندهشت إذ سمعت أنه لم يرخص لأول طبيب أسنان بممارسة المهنة إلا بعد أن امتحنته بنفسك . سمعت أن « القس كلفن راعي كنيسة جنيف » كان مسئوليا مدنياً عن وضع القوانين الصارمة وتنفيذها ؟؟

وقال « كلفن » : إني لا أذكر بالضبط كل ما تم لكننا كنا نقوم بحركة إصلاح تتصل بالمسيحية العقائدية والمسيحية الاجتماعية أو ما تسمونه أنتم اليوم بالإنجيل الاجتماعي . ألا تفعلون أنتم ذلك اليوم . عندكم المنبر والعضوية والافتقاد .. وعندكم الهيئات المسيحية الكنسية التي تشرف على التهذيب المسيحي وإدارة الملاجيء والمستوصفات ودور الحضانة والمستشفيات .. وعندكم الهيئات التي تهتم بتعليم الأميين وتوفير الأعمال في القرية للفلاحين

وعشرات المشاريع التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالروحيات . فها هي مصانع السجاد وتفريخ الكتاكيت وتربية العجول والمناحل وآلات الري .. إنكم تقومون بنفس الأعمال ، فقط نظمتموها . استطعتم ذلك إذ كان لكم الوقت والأداة . أما نحن فإن الوقت لم يسعفنا . كنا في أول عهد الإصلاح . كنا مضطرين أن نسلك السبيل الذي سلكناه . وهكذا كل إصلاح يبدأ مشوشاً ولكنه يوماً فيوماً يستقر ويهدأ وينتظم ويمسك الأيدي المتخصصة به فتسير الأمور سيراً طبيعياً !!

ـ الدولة المسيحية :

قلت : ولكني سمعت أنك رتبت أن تضع أساس دولة مسيحية ..

قال : اسمع ياصديقي ، أما فكرة الدولة المسيحية فليس فيها ما يعاب ، بل يجدر أن يكون هذا هدف كل مصلح . كل ما يمكن أن تأخذه على النظام الذي قمت به هو عدم الفصل بين السلطات . ثم ، وأرجو ألا تنسى أننا خرجنا من النظام الكاثوليكي الذي كانت الكنيسة فيه تملك كل شيء . كان لابد للكنيسة أن تملك شيئاً من السلطان لتستطيع أن تنفذ إصلاحها . ونظير كل إصلاح جديد لا بد من وقوع أخطاء . ألم تقرأ التاريخ ؟ ألا تعترف أن الثورة الفرنسية كانت هي أساس البناء الدستوري الذي بنيت عليه الحكومات الدستورية في كل أوربا ؟ هل يوجد من ينسب إلى الثورة الفرنسية أنها ثورة خراب ؟ ومع ذلك ألم تغرق فرنسا في دماء ؟ ألم تقع مظالم ؟ كان لابد من حدوث اضطرابات ومظالم وعدم انضباط ولكن الأمر انتهى إلى خير . هكذا حدث في « جنيف » . كانت الثورة الدينية تتجه نحو الإصلاح ووضع أمور الدولة في الأيدي الأمينة . كان لابد من قوانين صارمة . ربما تطرفنا بل ينبغي أن أعترف أننا تطرفنا ، تطرفنا في وضع القوانين . حتمنا أن يحضر أعضاء الكنيسة إلى الاجتماعات الدينية . حتمنا حضور الأولاد والبنات إلى اجتماعات مدارس الأحد ، ووضعنا العقاب الصارم على من يخالف . كتبنا بنود الإيمان التي يجب أن تؤمن بها الكنيسة ، ولكننا تطرفنا في وضع بنود القصاص لمن يخالف . وقد حصل صراع بيننا وبين معارضي الثورة . وأنا بالرغم من أني بالطبيعة خجول ، اضطررت أن أقف وأجادل وأن أقسو . ما كان الإصلاح لتقوم له قائمة لو لم أفعل ذلك ياصديقي ... كان الصواب أن أتشدد . بل كان تساهلي يعتبر إثماً ، أفهم ذلك !!

قلت : كلا ياصديقي ، إني لا أتفق معك تماماً . ربما كنت أعذرك كإنسان عادي . لكني لا أستطيع أن أعذرك كرجل عاش قريبا من المسيح . إن المسيح لم يستعمل السوط

إلا مرتين . ولكنه ترك الإصلاح يعمل عمله بهدوء .. ثم أنظر الفرق بين إصلاح السيد وإصلاح من يقولون أنهم مصلحون . إن إصلاح العنف لا يعيش طويلاً ، إن إصلاح الهدوء قد لا يتم إلا بعد زمن طويل . ولكنه يعيش •كان المسيح لا يصيح ولا يصرخ ولا يسمع أحد في الشوارع صوته . بدلاً أن يقتل العدد العديد ليصلح العالم ، مات هو . وأصبح الصليب من ذلك الوقت لا رمز الضعف بل علامة القوة . وهوذا الرسول بولس يقول : « لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن » . قوة « قوة الله » . قوة معمرة لا مدمرة . لقد قرأت أنت هذه الكلمات ، ولكنك نسيتها ــ على ما يبدو ــ وأنت تبدأ عملية إصلاحك يا صديقي ؟!

ملاحظة : لقد مرّ الليل ونحن نتكلم ودخلنا في ٨٢/٩/١٦ دون أن أدري .

قلت لكلفن : دعني أذهب إلى الفراش لأستريح قليلاً ثم أعود لأكمل الحديث ... قمت وقام هو !!

١٩٨٢/٩/١٦

ــ الوظائف الكنسية :

لم تطل فرقتنا ، لم أستطع أن أجد الراحة في المقعد الآخر . كان موضوع الوظائف الكنسية يشغل ذهني . عدت فوجدت « كلفن » جالساً في مكانه . ظننت أنه تركني ولكنه ظل في مكانه . قلت :

أعتقد إنك ذكرت أن في الكنيسة أربع وظائف ، وان كان البعض لا يستريحون إلى كلمة « وظيفة » . إنهم يقولون إن الخدمة الكنسية ليست مهنة !!

وقال « كلفن » : نعم إنها ليست مهنة بمعنى من المعاني ، ولكن لماذا لا ندعوها أشرف مهنة ؟ لماذا لا نقول إن القائم بها ينال أجراً ، بل أجراً كبيراً ؟ وقد ذكرت لك الوظائف الأربع : أولها وظيفة الراعي الذي يفتقد الرعية بتقديم كلمة الله في وعظه الخلاصي ، وفي وعظ البنيان والإرشاد والتوجيه . رجل الكلمة الإلهية ، سلاحه القوي كلمة الله . وهو في نفس الوقت يقوم بافتقاد الرعية بزياراته ومعاونتها بكل وسيلة ممكنة . يمسح الدموع من العيون ويرسم الابتسام على الوجوه ويرشد الخاطيء إلى الخلاص . إنها مهمة كبيرة .. كبيرة !!

ويتلو الراعي المعلم ومهمته تفسير الكتاب وتعليم العقيدة وفقاً لذلك ..

قلت : ان هذه الوظيفة لا توجد في كنيستنا في مصر . أذكر أننا قديماً كنا نستمع لأحد الشيوخ وهو يعلمنا من كتاب أصول الإيمان وإقرار الإيمان والتعليم المسيحي والذخيرة الذهبية . ولكن هذه الأمور لا وجود لها الآن !!

وقال : « كلفن » : إنكم بذلك تسيئون صنعاً . إنكم في حاجة إلى المعلم . لا أتعجب إذا سمعت أن كنائسكم انخفض مستواها الكتابي ، ولا أتعجب أن أعضاءكم يرتدون إلى الوراء إلى الخرافات القديمة ..

خفضت رأسي وسكت ...

وتكلم « كلفن » ، قال : أما الوظيفة الثالثة فهي وظيفة الشيخ وهو يتولى معاونة الراعي فيما يتطلب معاونة . ويمكن تحديد ما يطلب منه من تدبير . والوظيفة الأخيرة وظيفة الشماس ويقوم بعمل الافتقاد والتدبير للفقراء . وأهم هذه الوظائف وظيفة الراعي لأن الآخرين يقومون بأعمال محددة ، أما هو فيقوم بكل شيء ، يقوم بالوعظ والتعليم والتدبير ومساعدة الفقراء . والآخرون يعاونونه . والراعي الحكيم يعرف كيف يشغل الباقين . يوفر على نفسه كثيراً من الجهد ويدرب الآخرين على الخدمة !!

قلت : هل أفهم أن هذا النظام الذي وضعته يتحتم أن يراعى في كل كنيسة محلية ؟

وقال كلفن : لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تسير بسلطان الكاهن . وكان مجموع الكنائس يسير بسلطان الأساقفة وهكذا . وأنا لاحظت أن إلهنا رتب أن يكون الشعب هو القاعدة العريضة . إن الأمر الهام في نظري لم يكن الإداريات بل الروحيات . أن تصل كلمة الله هنا في الكنيسة !!

قلت : أعتقد أن حديثنا سيلمس إلى حد ما كتاب المباديء . ومع أني أرغب أن يكون لي حديث مستفيض عن « المباديء » إلا أني لا أرى بأساً من الإشارة هنا إلى الكنيسة . بما أننا نتحدث عن الموظفين ، أريد أن أعرف الكنيسة كما عرفتها أنت . ما هي الكنيسة وما هو مكانها من الخدمة ؟ بالطبع أرجو أن أعرف شيئاً مختصراً لأنني سأطلب شرحاً مستفيضاً فيما بعد !!

قال : لقد اتهمني البعض أني أحارب الكنيسة وأهاجم الخدام وهذا افتراء . إني أعتقد أن طريق الخلاص يجيء عن طريق الكنيسة وعن طريق الخدام . الخلاف بيني وبين الكاثوليك ، أنهم قالوا إن الكهنة يملكون مفتاح السماء وأن أمر الدخول أو الحرمان بيدهم هم . أنا أقول ان الخدام عندهم كلمة الله التي يقدمونها للإنسان الخاطيء ، وهذه الكلمة

تقوده إلى المسيح . إن الخاطيء محتاج إلى الكنيسة . محتاج إلى الخادم . وقد جعل الله راعي الكنيسة خادمه ، هو الذي أعطاه الكلمة ، الكلمة التي هي سراج وهداية . وقيام الخادم بواجبه يقود الناس إلى المسيح الذي هو المخلص الوحيد . فالكنيسة لازمة والخادم لازم !!

قلت : وهل يعني ذلك أن لا طريق للخلاص إلا عن طريق الكنيسة وطريق الخادم ؟

قال : أنا لا أقول بذلك ، ولكني أقول بأن الله جعل الكنيسة القناة الأساسية وبذلك يجدر بنا ألا نحارب الكنيسة أو نعمل على هدمها أو إضعافها بحجة أن الخلاص يمكن أن يأتي من غير سبيلها .

و .... ألا ترى أن الإفاضة في هذا الموضوع دخول في موضوعات يحسن أن نتناقش فيها بافاضة فيما بعد ؟

قلت : لا بأس أن نتركه .. على أني أرجو أن تسمح لي بكلمة صغيرة هنا ، أخشى إذا لم أذكرها الآن أني أنساها . وأشار « كلفن » بحركة من رأسه أنه يصغي إليّ :

قلت : لقد قامت في الآونة الأخيرة جماعات إصلاحية تنادي « تقريباً » بالابتعاد عن الكنيسة والاهتمام فقط بالولادة الثانية . إنها تتهم الكنيسة بضيق الأفق والتمسك « بالمذهبية » والرسوم الخارجية أكثر من الحياة الروحية . وهذه الجماعات تهتم طبعاً بالكرازة الفردية وتكوين المجموعات التي تدرس الكتاب بمناهج خاصة و .. وصاح « كلفن » إن هؤلاء لا يعلمون ما يعملون . إنهم إذ يحاولون هدم الكنيسة يهدمون أيضاً أنفسهم . كلا ، كلا ، إني أصلي أن يحفظ الله الكنيسة . أخشى إذا قلنا بالابتعاد عن الكنيسة الحسية والاكتفاء بالكنيسة المعنوية سنخسر كل شيء . عسى ألا تشجعوا مثل هذا الاتجاه . ان المطلوب إصلاح الكنيسة لا هدمها !!

الحديث الثامن

عودة إلى الأحكام المدنية ضد الأخطاء الروحية

١٩٨٢/٩/١٨

قلت : أني إلى الآن لم أستطع أن أفهم العلاقة بين الوصايا الروحية والأحكام المدنية . لقد ذكرت أن صراعاً كبيراً قام بين الخدام والسلطة الحكومية . واستطاع الخدام أخيراً أن يحصلوا على استقلالهم في إدارة الكنيسة ، في ترتيب خدماتهم وزياراتهم ، في قبول الأعضاء وفي تأديب الأعضاء بالتوبيخ وبالحرم . على أني فهمت أن الحرمان كان يصاحبه أحياناً عقاب آخر ، لم أستطع أن أفهم منك من الذي كان يقوم بتوقيع العقاب . على أني فهمت أنه سواء كان العقاب بأمر الحاكم المدني أو غيره فإن « القسيس » كان خلف هذا العقاب . وقد فهمت منك أنك ، أو لنقل رعاة الكنيسة ، وضعوا وصايا تتضمن نواهي ، ووضعوا بجانب هذه محاكمات لمن يخالف . وأنا لا أطلب أن تشرح لي أساليب الحكم في « جنيف » . فقد كانت معقدة . وقد حاول أحدهم أن يشرحها لي فلم أستطع أن أفهمها . حدثني عن مجالس كبيرة ومجالس صغيرة مما ضقت به ذرعاً . على أن هذا لم يشغلني ، فقد شغلتني الأحكام المتعلقة بالحياة والسلوك ، فقد كانت من الصرامة بحيث تطلب الأمر صراعاً مع الشعب . فقد قاوم هذه الوثيقة التي قدمتموها عدد من الأفراد لا يستهان بهم ، لا من ناحية عددهم فقط بل أيضاً من ناحية مركزهم الاجتماعي . وقد كان الخلاف يمس حكم الضمير . وسمعت أنه قد اضطرك الأمر إلى صراع كبير وأن كثيرين وقفوا ضدك ، واضطررت وأنت الخجول بطبيعتك أن تخرج عن طبيعتك وقد سمعت أن ثمة حوادث جساماً قد حدثت . ترى هل في إمكانك أن تروي لي بعض هذه الحوادث وتلقي عليها شيئاً من الضوء ؟

وقال كلفن : أن الموضوع ياصديقي بسيط . كانت الإدارة الحكومية في يد مجالس ، وكان الأعضاء ينتخبون من الشعب . وكان عدد من أفراد الشعب يساند الإصلاح لكن

كان هناك عدد آخر يعارض . وكان العدد الأكبر من المهاجرين ولا سيما الذين هربوا من الاضطهاد الكاثوليكي . هؤلاء كانوا يساندون الإصلاح . وقد حدث عقب وصولي إلى « جنيف » في المرة الأخيرة أني قدمت لمجلس المدينة وثيقة ، وقد سبق فذكرت لك هذا ، كان ذلك في نوفمبر ١٥٤١ . وكانت الوثيقة كما سبق وذكرت بعنوان « الفرائض المدنية لكنيسة جنيف » . وقد أقر المجلس هذه الوثيقة في نفس اليوم . شرحت الوثيقة الوظائف الكنسية ووصف إنتخاب الرعاة وتعيينهم . وقررت عقد اجتماعات أسبوعية ، والحوار بين الخدام في « جنيف » وفي القرى النائية لتحقيق الوحدة العقائدية . وكان فيها باب للتأديب الكنسي يبدأ من لفت النظر إلى طرد المخطيء . بالطبع حددت درجات الأخطاء ، وكذلك حددت الوثيقة أماكن الكرازة وأوقاتها وإجراء شعائر المعمودية وعشاء الرب .وأعددت كتباً تستخدم في حالات الزواج والدفن وافتقاد المسجونين وتعليم الأولاد . وبعد فترة صمت قال : وقد حوت الوثيقة ... وهنا قاطعته بالقول : نعم ، هل حوت الوثيقة كما بلغني ، توقيع عقاب صارم على المخالفين وعلى الذين لا يواظبون على الاجتماعات الكنسية ، وعلى من يكسرون يوم الرب ، وعلى الذين لا يرسلون أولادهم لمدارس الأحد ، وعلى الذين يعملون على إضعاف النظام الكنسي أو هدمه وعلى الذين يثيرون الجدل والفتنة الطائفية ؟؟

قال : لقد حوت الوثيقة ذلك ، وكان ذلك ضرورياً لتأسيس نظام إصلاحي ثابت .

قلت : وهل قبل الشعب هذه الوثيقة ؟

قال : نعم قبلها الشعب . بكل سرور إلا أن البعض تصدى لها وقاومها ، وكان من الواجب أن نقاوم « هذه الفتنة » بكثير من الحزم !!

قلت : الحزم الذي وصل إلى الطغيان ، فأوقع العقاب الصارم على من يقيمون قضايا طلاق ومن يرقصون في حفلات الزواج ومن يحرضون على الفتنة ومن يجدفون على كلمة الله بتعليق مذكرات بنقد الرعاة على منبر الكنيسة ؟؟

قال : نعم ، حدث ذلك . فقد عوقب أشخاص أتوا هذه الأفعال . بل قطعت رأس « جاك جروت » سنة ١٥٤٨ نتيجة تعليقه مذكرة بنقد الرعاة على منبر الكنيسة !!

قلت : وهل قوبل هذا الحزم برضاء من الشعب ؟

قال : بالطبع وجدت أقلية من المشاغبين لم يعجبها هذا الحزم . فهرب العدد الكبير من المدينة . ولكن آخرين جاءوا من المدن الأخرى إلى « جنيف » مشدودين إلى « كلفن » وخدمته لإصلاح لا هوادة فيه .. وشيئاً فشيئاً صارت الغالبية « كلفينية » .

قلت : وماذا تقول عمن شقوا عصا الطاعة وحاولوا أن تكون الكفة الراجحة لهم . وقد حاولوا أن يفعلوا ذلك بالكيفية الديمقراطية ، أن يمنعوا منح الجنسية « للكلفينيين » . ألم يقبض عليهم ؟ ألم يتعرضوا لحكم الإعدام لولا أنهم هربوا ؟ ألم يحكم على زوجاتهم بالنفي ؟ ألم يصدر الحكم بعدم عودتهم إلى « جنيف » تحت تهديد الإعدام ؟

قال « كلفن » : نعم ، كانت الإجراءات عنيفة ، شديدة العنف !!

قلت : تقول عنيفة فقط ، نفي وتعذيب وإعدام وتقول عنيفة فقط ؟ هل تعتبر هذه الإجراءات مسيحية ؟

قال : انها كانت ثمن فرض نظام الإصلاح !

قلت : وهل تقول الإصلاح ، على القوانين الصارمة الخاصة بإصلاح المدافن وإنشاء المراحيض وبناء السياجات ومراعاة نظافة الشوارع .. وعدم تأجير الغرف إلا باذن من الشرطة ؟ أنا أقر أنها إصلاحات اجتماعية ، لكن ما لك ولها يا سيد « كلفن » ياقسيس كلفن ؟ مالك وطب الأسنان الذي تدخلت فيه ؟ هل كان الإصلاح الذي قمتم به إصلاحاً اجتماعياً أم كان إصلاحاً دينياً ؟ هل كان المسئول عنه وزير الصحة أم « القسيس كلفن » ؟ ثم ما هذه العقوبات القاسية التي وقعت على كاسرى نواميس الرب ؟ العقوبات التي وصلت إلى حد الإعدام ؟ لقد كان الخطاة في اليهودية يأتون بذبائحهم ويعترفون بخطاياهم وكان « إله اليهود » « إله الناموس » يغفر لهم . ألم يكن أجدر « بإله النعمة » أن يغفر ؟ ما الذي ارتكبه « جروت » حتى تقطع رأسه ؟ وماذا فعل « بيرين » و « برتلبير » حتى يضطرا إلى الهروب وحتى تنفى الزوجتان وحتى يعدم الكثيرون من المؤيدين لهما ؟ وتقول لي إن هذا ثمن الإصلاح ؟ ولعل أعجب ما سمعته من أصدقائك قولهم أن الصراع انتهى بطرد المنشقين على السلطة أم عليك أنت يا صديقي ؟ لقد سمعت منهم أنَّ « كلفن » الذي كان حسب الظاهر مسئولاً عن الكنيسة وليس مسئولاً مدنياً كان يشترك اشتراكاً فعلياً في وضع القوانين وتنفيذها ، القوانين التي شردت ونفت وأعدمت !!!

وقال كلفن : لا تتحمس كثيراً يا صديقي . لقد كانت هذه القوانين بركة ، فانه رغم هذه القوانين الصارمة ، بل بالحري من أجلها تدفق اللاجئون من كل أوربا إلى جنيف . نعم جاء أشخاص — لهم مكانتهم ، أولاد « وليم بود » أستاذي الأسبق ، و « لوران دي نورماندي » من « نويون » . و « ووليم دي تري » التاجر الكبير من « ليون » . والأستاذ العالم « برناردينو » من إيطاليا و « جون نوكس » الإسكتلندي المعروف . بل

أيضاً أحد أبناء « البابا بول الرابع » ــ وقد كتب « نوكس » لأحد أصدقائه في إنجلترا في ١٥٥٦ يقول إن « جنيف » هي أكمل مدرسة للمسيح وجدت على سطح الأرض منذ أيام الرسل . و « وليم فاريل » قال : « إنني أفضل أن أكون الأخير في « جنيف » من أن أكون الأول في أي مكان آخر » !!

ابتسمت وقلت : أنا أعرف أنك رجل جد يا « كلفن » . إن ما تقوله يضحكني . ماذا كان ينتظر من هؤلاء أن يقولوا وقد هربوا من الجحيم .. « فاريل » وقد سبق أن نفي من أجل الإصلاح ، و « جون فوكس » هل كان يمكن أن يقول غير ما قال ؟ رجل كان يرى أقذر أوحال جهنم .. أوه يا صديقي . إنه كان يقارن بين شرّين . لم يكن يقارن بين الشيطان والمسيح . كلا يا صديقي . إن المسيحية الصحيحة لا تفرض فرضاً . إنها حبة خردل تنمو حتى تصبح شجرة كبيرة . إنها خميرة صغيرة تخمر العجين كله . لا تقل لي يا صديقي أنك غرست إصلاحاً . قل أنك فرضت إصلاحاً والإصلاح المفروض لا يستمر . ومع ذلك فلنمر على هذا الجزء ولنسأل : هل سارت الأمور كما تشتهي ، أم قام صراع آخر ؟

قال : أنت تعلم أن عدو الخير لا يسكت . لابد أن يثير الغبار بين حين وآخر . قامت صراعات قاسية . جاءت في أوقات كنت أجوز فيها في متاعب نفسية . لم يشفق القوم عليّ بل اندفعوا يناوئونني . قلت لقد سمعت عن متاعبك ، وأنا من كل قلبي أشاركك فيها . وأنا أنتظر أن تحدثني عنها لكي أحمل معك بعض أثقالها . لكني أرغب أن أسمع شيئاً عن المناوئين ؟

ــ متاعب في البيت

قال « كلفن » : كانوا كثيرين لكن ثلاثة منهم ناوأوا بشدة .

قلت : لقد قيل لي .. أو الأفضل أن نبدأ القصة من الأول .

قال « كلفن » : بينما كنت أصارع في هذه المعارك المريرة لإقامة مجتمع مسيحي نموذجي في « جنيف » كنت أواجه أقسى الصعاب في حياتي الشخصية . كنت أخفي عن كل الناس ما أعانيه من هذه المتاعب . والآن وقد انتهى كل شيء أستطيع أن أقول لك . بدأ المرض يدب في جسد زوجتي الحبيبة . بدأ خفيفاً وأخذ يزداد شيئاً فشيئاً حتى لازمت الفراش . لقد تزوجنا سنة ١٥٣٩ . وبدأ المرض معها بعد ثلاث سنوات ، وظل يشتد إلى أن اضطرت إلى ملازمة الفراش تماماً سنة ١٥٤٤ وانطلقت إلى المجد سنة

١٥٤٩ . كانت الضربة قاضية . لم يستطع الإيمان أن يخفف كثيراً من لهيب الجرح . كنت في حاجة إليها ، كانت يدها تمتد إلى جبيني تمسح عرقي فأحس أن أثقال العالم التي كانت تجثم على صدري قد رفعتها تلك اليد الرقيقة . وهل كنا بلا متاعب في البيت ؟ كانت زوجتي ومعها ابن وابنة من زوجها الأول يقيمان معنا . أما ابننا الوحيد فقد مات في طفولته . وابنتها الوحيدة « جوديت » من زوجها السابق والتي أصبحت وصياً عليها ، فقد جاءت مع والدتها من « استراسبورج » لتعيش معنا . وبعد زواجها بوقت قصير اتهمت بالزنا . لا أعلم إن كانت التهمة صحيحة أم لا ، لكن المجلس حكم عليها بالسجن . وقد سبب لي هذا إزعاجاً شديداً حتى اضطررت أن أهرب إلى الريف وأحبس نفسي عدة أيام لألتقط أنفاسي . « وأنطوان » أخي أيضاً كان سبباً لاضطراب في البيت ، فقد تزوج من امرأة اتهمت بالزنا . وقد سجنت بسبب التهمة ، ولكنها برئت . على أنها ما فتئت أن حكم عليها بالسجن تسع سنوات لارتكابها الزنا مع خادمي الأحدب ... !

وأنا طيلة هذا الوقت كنت أعاني أشد الأمراض . الحقيقة أن الأمراض بدأت معي وأنا بعد صبي . وعندما بلغت الثلاثين بدأت أشكو من الرشح والربو وعسر الهضم والصداع . وأضيف إلى هذا فيما بعد النقرس والبواسير والحمى ، والحمى الراجعة والإلتهاب البللوري الذي انتهى إلى الدرن الخبيث . ولك أن تعرف أثر تلك الأثقال النفسية والجسدية على جسدي الضعيف . على أني حاولت ألا أخلط بين هذه المتاعب ومتاعب الخدمة . بل حاولت أن أحولها إلى قوة دافعة !

قلت : أخشى أنها أضعفت روح الرقة والعطف بك ، وأنت معذور من يلومك إذا قابلت بالخشونة مقاومة تعتقد أنها غير أمينة ، في وقت أنت محتاج فيه إلى مساندة ؟

قال : أبداً ، لقد كنت صديقاً رقيقاً حبيباً ، والذين عرفوني رأوا فيّ الصديق الأنيس . فقد استطعت أن أكوّن صداقات قوية استمرت طويلاً مع كثيرين . فهذا « ماتورين كورديه » الصديق القديم ، كان يكبرني بثلاثين عاماً وكان أستاذي في كلية « دي لامارش » . قبل هذا الصديق دعوتي لرئاسة مدرسة جنيف سنة ١٥٣٨ وشاركني المنفى سنة ١٥٣٩ ، وعاد وبقي معي إلى سنة ١٥٦٤ — إلى أن انتقل كلانا إلى الأعالي — و« فاريل » ماذا أقول لك عنه ؟ « فاريل » الأب الحبيب . « فاريل » هذا سلّم العمل لي . لم يحس بشيء من الغيرة . كان صديقاً ، نعم ، نعم الصديق . وقد حضر خصيصاً ليعقد قراني من زوجتي الحبيبة . ولما سمعت بمرضه الأخير تركت كل شيء وذهبت لزيارته . ولكن « فاريل » أذهلنا كلنا إذ أبل من المرض ، بل عاد إلى شبابه ، بل فكر في الزواج .

ومع أني عارضت في زواجه فقد بلغ التاسعة والستين ، والزوجة التي اختارها لا تبلغ نصف عمره . ولكن صداقتنا ظلت كما هي . وفوق ذلك لم يكن أصدقائي من الشيوخ فقط ، كان لي أصدقاء من الشباب ، منهم « فبيير فيريه » الذي كان صديقي وصديق زوجتي ، وقد شاطرني الحزن على وفاتها سنة ١٥٤٩ . و « تيودوردي بيزا » الذي كان يصغرني بعشر سنوات ، كنت أعزّه ، وفي نهاية خدمتي طلبت أن يخلفني في الخدمة نعم ، كان لي أصدقاء كثيرون من الشيوخ والشباب ، بل ممن هم أصغر من الشباب !!

قلت : ولكن الكثيرين لم يروا فيك إلا الرجل المجادل الذي لا ينزل عن رأيه مهما كان الأمر ؟

قال : هذا صحيح ، فقد كنت إذ أتيقن من رأي ، أتمسك به . جادلت مع الكثيرين الأقدمين والحديثين . مع « أبيلارد » في موضوع الكفارة ومع « إنسلم » الذي شدد على حرية الإرادة معارضاً سبق الإختيار . ومع « جون الك » حول كل شيء تقريباً . ومع « أرازميس » الذي كنت معجباً به أشد الإعجاب . ولكني كنت آخذ عليه أنه لم يعلن بروتستانيته . ومع « بلتازار » بسبب المعمودية . ومع ــ« بيتر لومبارد » الذي أيد كل بدع روما في أحكامه . أوه مع كثيرين وكثيرين !!

أما الرجال الذين كنت أرجع إليهم بالرضى والتقدير ، فأولهم « أوغسطينوس » . لقد عارضته مرة واحدة ، و« بوسر » و « لوثر » وكان إعجابي به يفوق الوصف بالرغم من اختلافنا في فريضة العشاء ... ويدهشك أني كنت شديد الإعجاب « ببرنارد دي كليرفوه » فقد كان مع كثلكته أقرب من بعض رجال الإصلاح إلى الإصلاح !

١٩٨٢/٩/١٩

ــ عقيدة سبق التعيين :

قلت ، لقد ذكرت سابقاً أن ثمة ثلاث مجادلات استنفذت أكبر جهد بذلته لا تزال تحمل آثارها في نفسك وفي قلبك ؟

قال : نعم ثلاث مجادلات لعبت دوراً بارزاً في خدمتي ؟

قلت : وهل كان فيك « جهد » لمثل هذه المجادلات في ظروفك التي ذكرتها ؟

قال : بل يبدو أن ظروفي كانت بالعكس ، عاملاً من عوامل القوة !

ـــ عقيدة سبق التعيين :

كانت أولى هذه المجادلات مع « جيروم بولسك » حول موضوع « سبق التعيين » وقد استمر النزاع طيلة عام ١٥٥١ !!

قلت : لقد سبق أن سمعت عن هذا الراهب . أليس هو الراهب الكاثوليكي العالم ؟ لقد سمعت أنه حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة باريس . كما حصل أيضاً من نفس الجامعة على شهادة في الطب !

قال « كلفن » : إنه هو . وقد هرب من فرنسا وجاء إلى جنيف بسبب الاضطهاد . وعاش معنا في أول الأمر متمسكاً بعقيدة الإصلاح . ولكنه اختلف معي في عقيدة « سبق التعيين » . قال : انه يؤمن أن الخلاص هو بالنعمة فعلاً ، لأن أي صلاح لا يكفي ليغطي خطايانا ، لكن لابد من فرق بين المختارين وغير المختارين . لابد أن يقوم المختارون بجزء من العمل يجعل الله يختارهم . وإلا فلماذا يختار هؤلاء ويترك أولئك ؟ قال : لابد أن المختارين هم من يقبلون النعمة بينما غيرهم يرفضها . وقد طلبت من الرعاة أن يستدعوه للمثول أمام اجتماعنا الأسبوعي . كان ذلك في الثامن من مارس ١٥٥١ وقد أثبت من الكتاب ما كان يمكن أن يقنعه بفساد عقيدته لو أنه كان مخلصاً في مجادلته . بل استدعيناه مرة أخرى بعد ذلك بشهرين . وقد عنفه زملائي على استمراره في المناداة بتعليمه الفاسد . ولكنه لم يرعو . فقد عاد مرة أخرى بعد ذلك بنحو خمسة شهور وهاجم الرعاة مدعياً أنه على صواب وأنهم هم على خطأ . وكان ملخص حديثه « أن الذين يطيعون كلمة الله هم المختارون الذي قد عينهم الله للخلاص . أما الذين لا يطيعونها فهم الذين قد رفضهم » . وبذلك جعل أمر الاختيار مستنداً على أمانة الناس لا على حرية الله . إن الله يختار من يشاء . إنه حر . « ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم » . وبعد مباحثات كثيرة اجتمع الرعاة في الثالث والعشرين من ديسمبر واستمعوا إلى الرأي والرأي الآخر وبتوا في الأمر إذ حكموا أن « بولسك » على ضلال ومن ثم قرروا نفيه من مقاطعة « جنيف » !

قلت : هل ترى أن هذا الخلاف البسيط يستحق هذا الجدل الطويل ؟

فقال : إنه ليس خلافاً بسيطاً . إنه يمس صلب العقيدة الإنجيلية . هل نحن مخلّصون بالنعمة أم أننا ندفع ثمن الخلاص ؟ لا يمكن أن نقول النعمة والعمل . هل ندفع ثمن خلاصنا أم أننا نأخذه مجاناً ؟

قلت ؟ : فهل تعتبر جميع الذين يكرزون بالتوبة ، ويقولون : « ليترك الشرير طريقه ورجل الاثم أفكاره » .... ؟

قال : ان كل هذا من عمل النعمة . إن الأعمال الصالحة هي من عطايا النعمة !!

قلت : وحكم النفي هذا أصدره الرعاة .. ألست ترى أن هذا عمل يخرج عن صميم عمل الرعاة أولاً ، نعم يمكنهم أن يحكموا بحرمانه من عضوية الكنيسة . أما الحكم بالنفي فهو على ما أعتقد ليس من اختصاص الكنيسة . ثم ، دعني أتجاوز عن هذه النقطة .. وأسأل : هل يكون عقاب الخلاف العقائدي بهذه القسوة ، النفي من المدينة ؟

وقال « كلفن » : إن الوقت كان حرجاً ووجود « بولسك » في المدينة سيكون سبباً لبلبلة واضطراب أفكار . كان من الحكمة لسلامة الإصلاح !!

قلت : ترى هل وافقت الكنيسة العامة على رأي كنيسة جنيف ؟

وأجاب كلفن : أني بناء على طلب الجماعة كتبت إلى خدام الكنائس الأخرى في « بازل » و « نيوشاتل » و « زيوريخ » . وقد وافق البعض على ما أجرينا والبعض الآخر أعلنوا معارضة « بولسك » في غير محلها . أنه مخطيء ورأيه مخالف للكتاب ولكن مخالفته لا يجوز أن تعتبر بدعة . هي خطية ولكنها تجد طريق الخلاص ..

قلت : معنى ذلك أن الرأي لم يكن واحداً ؟

وصمت « كلفن » ......

ــ قضية سرفيتوس :

قلت : لنترك هذه القضية ولنأت إلى القضية الثانية .

قال : تعني « قضية سرفيتوس » ؟

قلت : نعم ، « ميشيل سرفيتوس » المؤلف الأسباني ، الطبيب والأستاذ واللاهوتي ؟

وقال « كلفن » : والمعروف بإشاعة البلبلة والجدال بين جميع الناس . حتى أنه إذا لم يجد من يخاصمه خاصم نفسه ، وإذا لم يجد أحداً يكتب ضده كتب ضد نفسه . ولقد كتب يقول : أن المسيح ليس إلهاً ، لا أزلية له ، وأن الثالوث قصة ليست حقيقية . أذاع ذلك وهو يظن أنه يحسن عملاً إذ يتفق مع اليهود ومع المسلمين . وقد تقابلت معه عندما

كنا ندرس في باريس وتكلمنا في هذه الموضوعات . كان شاباً مغروراً مدعياً . ولما جئت إلى « جنيف » وسمع أنني أتزعم حركة الإصلاح ، سلّط سهام سخريته عليّ . وقد كتب كتاباً يحاول أن يفند فيه كتابي « المباديء » ودعاة « العودة » ظن أنه يكون صفعة مباشرة لي . وقد طارده الكاثوليك بالطبع ، فهرب من بلد إلى بلد من أجل بدعته المستحدثة !!

قلت : قد قيل أنك أعلنت أن الرجل إذا جاء إلى « جنيف » فلن يخرج منها حياً . حكمت عليه بدون محاكمة ؟

قال : وهل تتطلب بدعته محاكمته ؟ ألم تكن نفس كتاباته جريمة واضحة ؟

قلت : لقد سمعت أنك عرفت شيئاً من القانون ؟ وفي القانون ما يحتم المحاكمة وإعطاء فرصة للمتهم . أعتقد أنك أخطأت بهذا الإعلان . لقد مهدت الأذهان للحكم عليه .. وسكت « كلفن » !!

وقلت : وذهب « سرفيتوس » إلى « جنيف » ؟

قال : نعم جاء متحدياً . كان يظن أنه يستطيع أن يواجه الإصلاح بسفسطته . ذهب إلى « جنيف » وحضر في كنيسة « المجدلية » في منتصف الشهر الثامن من سنة ١٥٥٣ ، فعرفوه في الحال وقبضوا عليه !!

قلت : نعم ، قبضوا عليه بناء على اتهامات قدمها « سكرتير كلفن » ولكنها كانت مكتوبة بخط « كلفن » وقدموه للمحاكمة لا بمقتضى قانون « جنيف » المدني الذي كانت أحكامه في مثل اتهامات « سرفيتوس » السجن مدة طويلة أو قصيرة ، بل حوكم بمقتضى قوانين « جستنيان » وهي القوانين الدولية للإمبراطورية الرومانية ، نعم بمقتضى القوانين التي هربت منها ياصديقي « كلفن » ، وحكم عليه بالإعدام حرقاً لانكاره الثالوث الأقدس ومعمودية الأطفال .

قال « كلفن » : كان يمكن أن ينجو من العقاب لو أنه رجع عن ادعائه ، لكنه أصر على انكاره للعقيدتين ، بل أظهر احتقاره الشديد لهما . وقد أظهر أثناء المحاكمة اطمئنانه أن الحكم لن يكون ضده . لم يأخذ المحاكمة على سبيل الجد . كان يظن أن له عدداً من الأصدقاء ممن لا يكنون الولاء لي . قيل له أنهم يرغبون أن يشنع عليّ ، ولذلك أظهر سخريته بي وبتعاليمي ومؤلفاتي . ولكن « قانون جستنيان » كان واضحاً والتهم التي

الصقت به كانت واضحة ـــ وقد اندهش كل الناس من الحكم ، واندهش هو نفسه من الحكم . لم يكن يتوقعه . لقد خدعه أصدقاؤه !!

وقد زرته في السجن وتوسلت إليه أن يتعقل ويتخلى عن موقفه . ولكنه رفض وأصر على الرفض !

قلت : لقد كان يؤمن بما يقول . وكان يرى أن من النفاق أن يتخلى عن إيمانه ولو في سبيل الحياة !!

وقال « كلفن » : كان الأمر كما تقول ، لقد أعلن لي أن الحياة ثمن رخيص بالنسبة للضمير . قال إني أومن بما أعلنته . لا أخدع نفسي ولا أخدع الناس بالنكوص . أنا مستعد أن أموت !

قلت : لقد سمعت أنه طلب منك طلبة !

قال : نعم ، طلب أن ألتمس من المجلس أن يكون الإعدام بالسيف بدلاً من الإعدام حرقاً . وقد قدمت هذا الالتماس للمجلس ولكن المجلس رفضه . نعم المجلس هو الذي رفض ولكني أعترف أني لم أكن متحمساً في الطلب !!

ولكني أعترف أني لم أكن متحمساً في الطلب !!

وقال « كلفن » : ويمكنك أن تقرأ في سجلات مجلس جنيف هنا الوصف الدقيق الموجز لهذا الحكم !!

« في يوم الجمعة السابع والعشرين من أكتوبر ١٥٥٣ بعد مراجعة قرارات « ريو » و « بازل » و « زيوريخ » و « شافهاوزن » بخصوص موضوع « سرفيتوس » حكم عليه السادة بأن يؤخذ إلى « شامبي » ليحرق حياً . وقد تم هذا دون أن يبدي « سرفيتوس » في لحظة الإعدام أية علامة على توبته » !!

كان « فاريل » في « جنيف » في يوم التنفيذ فاصطحب « سرفيتوس » إلى مكان الإعدام حرقاً حيث تم حرقه وقد سمع الموجودون « سرفيتوس » من بين لهيب النيران المتأججة يقول : « يا يسوع ابن الله الأزلي ارحمني . لم يقل يا يسوع الأزلي .. أنه نسب الأزلية للآب . وهكذا مات « سرفيتوس » !!

قلت : وهل كنت مستريحاً للحكم ؟ وهل كان زعماء الإصلاح مستريحين للحكم ؟

قال : لم أسمع واحداً منهم يعترض . بالأحرى سمعت موافقتهم « بيزا » و « فاريل » و « بوسر » و « بولنجر » و « ميلانكثون » !

قلت : « ميلانكثون » ؟

قال : نعم ، الرجل الوديع المعتدل « ميلانكثون » !

قلت : وأنت مستريح لما حدث ؟

قال : إن الإصلاح كان يتطلب الحزم . كان « سرفيتوس » يمثل هرطقة . لقد أنكر لاهوت المسيح . ولو أن الأمر ترك لتزعزع الإيمان المسيحي نفسه !

قلت : وهل تظن أن الحكم بالحرق قد ثبت الإيمان المسيحي ؟

قال : انك تتكلم في ١٩٨٢ . لا تنس أننا حكمنا في ١٥٥٣ . وأنت تتحدث إليّ كما لو كنت أنا الذي أصدرت الحكم ؟ فابتسمت وقلت : لقد سمعت من قال أنه لو كان الأمر بيدك لما حكم على « سرفيتوس » !!

قال « كلفن » : أقول لك إن الحكم كان في محله ولو أنه آلمني !

قلت : تقول آن الحكم في محله ؟

قال : نعم ، وأرجو أن تذكر أن الحكم كان في سنة ١٥٥٣ !!

قلت : إنني أتحدث إليك لا من سنة ١٩٨٢ بل من سنة ٣٠ . عندما جاء تلميذان وطلبا من السيد أن يقول أن تنزل نار من السماء لتهلك الذين رفضوا أن يقبلوه . ألم تسمع القول الذي سجله الوحي ؟ « فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أي روح أنتما . لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص » . ألم تقرأ ياصديقي هذه الكلمات في الكتاب في سنة ٣٠ أو نحو ذلك ؟ وأنت يا « كلفن » ، لماذا عشت شريداً كل أيام حياتك . كانت الكنيسة الكاثوليكية تظن أنها تحافظ على الإيمان وهي تجري أحكامها . وأنت قد أخذت عليها ذلك . وصديقنا « نقولا كوب » أخذ عليها ذلك ؟!

إن العنف ليس الطريقة المثلى . إن الحوار هو الطريق الأسلم . لقد سلكت ياصديقي نظير الكنيسة التي لومتها . أنا أؤكد لك أن العنف لا يبني . ولئن طال أمد ظهور الإصلاح فان ذلك أفضل من إتمامه بمثل كيفية الكنيسة الرومانية . لقد أخطأت ياصديقي . أنا لا أتحدث إليك بصفتي الشخصية . فمن أنا حتى أقف موقف المنتقد « لكلفن » العظيم . ولكني أتحدث إليك باسم التاريخ !!

الحديث التاسع

عَوْدٌ

١٩٨٢/١٠/٨

عدت إلى المذكرات التي كتبتها عن هروبك إلى « بازل » في ألمانيا . رأيت أن هناك ثغرات كثيرة تتطلب أن تملأ . أرجو أن تسمح لي أن أستوضحك بعض ما كان يجب أن يكون وقت حديثنا السابق . وحتى لا يضطرب التاريخ ، سأحاول أن أضع هذه المذكرات حالاً بعد المذكرات السابقة .

سبق أن قلت لي أنك لم تؤخذ بالتهمة التي ألصقوها « بالدكتور نقولا كوب » ولكنك اضطررت أن تهرب . ألا ترى أن القصة مبتسرة ؟ ألا يمكن أن نستكمل الناقص ؟ أو ربما يمكن رواية القصة من الأول .

وقال « كلفن » : إن « نقولا » لاحظ وهو يلقي محاضرته — أو لنقل عظته — أن القوم سمعوا له بإصغاء .. ماذا أدعوه ؟ بالطبع ليس بإصغاء الراضي ، بل بإصغاء الساخط المنتقد . وأنه بعد أن فرغ من محاضرته ، قامت ثورة عاتية . وترتبت مظاهرة كبيرة ، واجتمع أساتذة السوربون وناقشوا المحاضرة كشيء خطير يهدد الكنيسة . وحكموا بهرطقة « كوب » . وحكموا عليه قبل أن تحكم عليه الكنيسة أو « الإمبراطور فرنسوا » ، حكموا عليه بالإعدام حرقاً . وأرسلوا من يحضره ليناقشوه ولكنهم لم يجدوه . كان قد أحسّ بقرب هبوب العاصفة واستطاع أن يهرب متخفياً . فلما طلبوه كان قد جاوز الحدود الإقليمية وهرب . لم يأخذ معه إلا محاضرته والقليل من كتاباته !!

قلت : لعلي أكون مكرراً كلاماً سبق أن قلته ، لكني أود أن أسمع أيضاً ، ألا تحس بالدهشة أن أساتذة علماء لهم صيتهم العلمي ، يظهرون أمام العالم بهذه الأذهان المغلقة ؟ إن « كوب » لم يقدم في كلامه إلا الأسلوب العلمي ، الأسلوب الذي يوصي بالبحث ،

الأسلوب الذي لا يضع نقطة نهائية عقب كل حقيقة أو ما ينتهون إلى أنه حقيقة . لأن العلم بحوث واكتشافات !!

قال « كلفن » : الحقيقة أني لا أستطيع أن أقدم لك جواباً شافياً . نعم إن البحوث العلمية تتطور كلها تقريباً . ينبغي أن أقول إلا ما يتصل بالعقائد الكنسية . إن العلم لا يجوز أن يقف في سبيل الإيمان . ومهمة الأساتذة تثبيت الحقائق الدينية لا مناقشتها . وقد أعطى السيد المسيح مفاتيح ملكوت السموات « لبطرس » .. « والبابا » هو خليفة « بطرس » !!

قلت : يدفعني هذا إلى أن أسأل عن الأساس الذي كانت الكنيسة تبني عليه حقائقها !!

قال : ان رئيس الكنيسة « خليفة بطرس » هو وحده المنوط بهذا الأمر .

قلت : والكتاب المقدس ؟

قال : الكتاب المقدس ليس للشعب .. على الشعب أن يسمع ويطيع . وكل من ينادي بغير ذلك فهو هرطوقي !!

قلت : ألم يكن « كوب » يعرف هذه الحقيقة ؟

قال : بل كان يعرف ، ولكنه كان يطمئن إلى أنه لم يهاجم عقيدة الكنيسة . إنه كان ينادي بمحاولة رد الهراطقة عن سبيل الحوار لا عن سبيل العنف . خصوصاً وقد أعلن في بدء محاضرته وفي ختامها أنه ابن مخلص للكنيسة . أعلن ذلك بكلامه وأعلنه بتقديم تكريم وطلب الشفاعة من السيدة العذراء « والدة الإله » وهي العلامة الكبرى للولاء للكنيسة !!

قلت : وأنت ، ما شأنك ؟ أنك لم تشترك في المحاضرة ولم تتهم ، ولكنك أخبرتني أنك هربت ؟

قال : لقد رأيت بعض الغيوم . رأيت مظاهرات الأساتذة وسمعت همساً وصل إلى حد الحديث المسموع ، وبعد يومين ، على ما أذكر ، طرق بابي شخص تحدث معي بلهجة أجنبية . وقد قال انه بحث جدياً عن مكاني وأنه عثر عليه بالجهد ، وقدم لي قصاصة ورق كتب فيها « يحسن بجون كلفن أن يهرب لحياته في الحال » . وقد عرفت القليل عما حدث « لكوب » وأنه هو الذي أرسل القصاصة .. ولذلك فكرت في الهروب في الحال . هل أخرج من الطريق العام ؟ لاحظت أن هناك من يحوم حول المكان .. عدت إلى غرفتي

.. ومن النافذة الخلفية تدليت إلى المزارع المتصلة بأرض الجامعة ، وجعلت أركض وأركض .. وقد قضيت طول الليل نائماً في العراء .. ووصلت إلى أقرب مدينة واستأجرت هناك بغلا لينقلني خارج حدود فرنسا . لا أظن أنك في حاجة لأن أقص عليك ما لقيت من جوع وعطش ومشقة .. الأمر الذي يهمك أني وصلت بعد أتعاب .. إلى « بازل » المدينة الكبيرة التي كانت ملاذاً للهاربين من الكنيسة . وهم جنسيات مختلفة من كل نواحي العالم !!

وضحك « كلفن » وقال : كنت راكباً على البغل وهو يركض بي في خلاء متسع ، لم يكن معي إنسان أو حيوان سوى البغل . وأن أحسّ أني يجب أن أتكلم ـــ فوجهت حديثي للبغل :

« أيها البغل العزيز .. هل تعلم من الذي تحمله على ظهرك . هل تعلم ؟

أنه انسان ، يتيم ، مطارد . لا أهل ولا أصدقاء ، وقد تركه ذووه ، ورفضه معارفه ، الجميع نبذوه ، لا وطن ولا مستقر ، الكل تركه ، والله نسيه » . وصمتّ قليلاً ثم قلت أحدث نفسي : « هل نسيني الله حقاً ؟ ألم يبق لي عقلاً ؟ ألم يترك لي رجالاً عظماء ؟ ألم يترك لي شهوداً أمناء ، سحابة من الشهود ؟ ألم يترك لي « أغسطينوس » ؟ ألم يترك لي « أثناسيوس » ؟ لكن ما الذي رتبه الله لي لأقوم به ؟ هنا بدأ تفكيري في المهمة التي رتب الله أن أقوم بها » !!

قال « كلفن » : أظن أني قلت هذه الكلمات نفسها . طبعاً كان هذا من سنين كثيرة . غالباً كانت هذه نفس الكلمات !!

ـــ العودة إلى سرفيتوس

قلت « لكلفن » : أما وقد عدنا إلى الخلف هذه الحقبة الطويلة ، فإني أنتهز الفرصة وأعود إلى قصة « سرفيتوس » . ما كنت أرغب أن أعود إليها لولا أن أصدقاء كثيرين اجتمعوا حولي في الأيام الماضية . انتهزوا فترة بقائي في البيت . فقد انزلقت قدمي وسقطت على الأرض وأصبت برضوض ألزمتني الفراش وجاء كثيرون لزيارتي ، وكان منهم عدد يذكر يهتمون بقضية الإصلاح . العدد الأكبر أظهر إعجابه الشديد « برجل جنيفا » . مدحوه كشخصية لم « يلد » التاريخ نظيرها . إلا العدد القليل جداً . ولكنهم في نفس الوقت أخذوا عليك الحكم أو دعني أقول رضاءك على الحكم بإحراق « سرفيتوس » . لكن ثلاثة أشخاص منهم طالت جلستي معهم . أحدهم صديق قديم لي هو السيد

« رولاندبنتون » . والثاني « دنكان نورتون تايلور » . والثالث « هارولد ويتني » . لم أستطع أن أنفرد بالأول . لم أسمع منه إلا القليل مع أنه يعرف الكثير جداً خصوصاً عن قضية « سرفيتوس » . أما الثاني فقد أحسست أنه أنصفك ولو أنه أخذ عليك هذه النقطة السوداء في تاريخك . أما الثالث فقد وقف إلى جانبك بشدة ونجدة في هذه القضية . كان ملكيا أكثر من الملك ، جعل يأتي بالحجة تلو الحجة أن إحراق « سرفيتوس » لم يكن فقط شيئاً لا غبار عليه . بل إن إحراقه كان نوعاً من البر وأن إطلاقه حراً إذا أطلق يكون جريمة نكراء . على أنه انزلق في حديثه معي فقال : أيجوز لك أن تنسى عظائم « كلفن » ؟ أيجوز لك أن تنسى الأذهان المتفتحة التي فتح لها هذا الرجل العظيم الطريق ؟ أيجوز لك أن تنسى المدينة الحرة ملاذ اللاجئين مدينة الكتاب المقدس ، مدينة التنظيم العجيب ؟ مدينة .... مدينة ؟؟ أيجوز لك أن تنسى التفاسير الجبارة « والمباديء » الخالدة ؟ تنسى هذا وتذكر نقطة سوداء واحدة ؟ .. وقد قلت له : يكفيني أنك تقول إنها نقطة سوداء ؟ .. ثم قلت : أرجو أن تعرف أني أهتم بقضية « سرفيتوس » لا لأني نسيت عظائم « كلفن » ، لكن لأني أذكرها . أني أراه عملاقاً قام بعظائم لم تستطع أجيال من العمالقة أن تقوم بمثلها . لو أنه كان عظيماً عظمة عادية لمررت بهذه القضية ....

كذلك أرجو أن تعلم أني أهتم بها لا من أجل « سرفيتوس » كفرد . لقد مات كثيرون وأحرق كثيرون .. لكن الأمر عندي كان موضوع مبدأ . هل نسند الحق بالقوة ؟ هل نمكّن الإصلاح بالعنف ؟ نعم ، إن العملية الجراحية لازمة في بعض الأوقات . ولكن قضيتنا هذه كانت قضية حق . كان على « كلفن » أن يسأل نفسه : ماذا كنت أعمل مع « سرفيتوس » لو لم أكن في مركز القوة ؟ فالموضوع هنا هو هل لأني أملك القوة أتكلم عن الحق ؟ أليست هذه هي قاعدة الحروب ؟ القاعدة التي ننتقدها كلنا ؟ ومتى استطاعت القوة أن تحل المشاكل ؟ قد تحل مشكلة واحدة ولكنها تخلق مشاكل أكثر !!

لم يجاوبني « ويتني » على سؤالي ، ولكنه قال إن « كلفن » لم يحاكم « سرفيتوس » . لقد حوكم أمام هيئة قانونية وأن « كلفن » لم يكن له شأن في الحكم . بل لقد ساعده ، أرسل له كل الكتب اللازمة له ليدافع عن نفسه وكل الأوراق التي طلبها . وبعد الحكم ، ذهب إليه وحاول أن يرده إلى الصواب فلم يوفق . وقد بذل جهداً لتغيير وسيلة التنفيذ ولكن المجلس رفض . وأرسل إليه « فاريل » ليحاول أن يرده عن عناده ، ولكنه راكب رأسه .

سمعت هذا ياصديقي من السيد « ويتني » . فقلت له : لن أتكلم معك . سأعود

إلى « جون » وأستعيد القصة ولو أن تكرار الحديث غير مرغوب . هل صحيح أنك لم يكن لك شأن ؟ ألم تكن أنت خلف الاتهام ؟

وتكلم « كلفن » :

نعم ، أنا الذي كتبت صحيفة الاتهام وأنا الذي وقفت خلف القضية . كنت أدافع عن سلامة الكنيسة . كنت أذكر طول الوقت شريعة الله نحو من يعمل على جذب المؤمنين بعيداً عن الله . كنت أذكر كلمات الله .. دعني أذكر نفس الكلمات التي جاءت في الكتاب ...

« إذا أغواك سرّاً أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب الذين حولك القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها ، فلا ترض منه ولا تسمع له . ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره ، بل قتلاً تقتله . يدك تكون عليه أولاً لقتله . ثم أيدي جميع الشعب أخيراً . ترجمه بالحجارة حتى يموت لأنه التمس أن يطوحك عن الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . فيسمع جميع اسرائيل ويخافون ولا يعودون يعملون مثل هذا الأمر الشرير في وسطك » (تثنية ١٣:٦ــ١١) .

ابتسمت وقلت : ترى هل أنت إلى الآن متمسك بالرأي المستمد من تفسيرك لهذا الجزء من الكتاب ؟

فأجاب : ولماذا لا ؟ أليس هذا هو الكتاب الذي نؤمن به ؟

قلت : إن السيد المسيح تعمق في الناموس ووصل إلى القلب وقال : سمعتم .. أما أنا .. ألا ترى أنه خير لك أن تسأل السيد عما يجب أن يعمل مع مثل « سرفيتوس » ؟

قال : كانت الكنيسة في خطر و « سرفيتوس » كان ماهراً في البلبلة . ألم يقل السيد نفسه إن أعثرتك عينك فاقلعها .. ان أعثرتك يدك فاقطعها ؟؟

قلت : وهل هذا هو الدرس الذي تعلمته من الصليب ؟ هل درست كل المعاني السامية للصليب ؟ هل استطاع الطوفان أن يغلب الخطية ؟ وهل استطاعت نيران سدوم ؟ ألم تقرأ في نفس سفر الرؤيا هذه الكلمات :

« فاحترق الناس احتراقاً عظيماً وجدفوا على اسم الله الذي له سلطان على هذه الضربات ولم يتوبوا ليعطوه مجداً .. وكانوا يعضّون على ألسنتهم من الوجع وجدفوا على إله السماء من أوجاعهم ومن قروحهم ولم يتوبوا عن أعمالهم » « فجدف الناس على الله من ضربة البرد لأن ضربته عظيمة جداً » (رؤيا ١٦) .

أرأيت أن العنف لم يستطع أن يسحق الخطية ؟ ألم تر في الصليب أعظم قوة ؟

قال كلفن : لقد حاولت معه مرتين وحاول « فاريل » وحاول الجمهور . ولكنه أصر على عناده !!

قلت : لقد وصلت إليّ قصة « سرفيتوس » من أولها . ألا ترغب أن تسمعها .. تسمعها من وجهة نظري أنا ....

قال : اني أعرفها لأني عاصرتها !

قلت : ولكنني أرجو أن أرويها كما رأيتها أنا !!

قال : لا أمنعك من ذلك ولو أني سأظل متمسكاً برأيي ..

قلت : ربما غيرت رأيك !

لقد طلب أحدهم منك أن نتقابل مع « سرفيتوس » وقد كان مطارداً من الكنيسة الكاثوليكية بتهمة إنكار الثالوث . وقد تمت هذه المقابلة ولم يكن ليناً في مقابلته . وقد قال لك أنه يؤمن بالمسيح العظيم القدوس ولكنه ينكر أزليته وينكر « ثلاثة في واحد » . ويقول أين هذا التعليم في الكتاب ؟ . إن هذا جاء في مجمع نيقية لا في الكتاب .. وحاولت أنت أن تتفاهم معه على أنه تهرب ووعد أن يقابلك في مكان ما ، ولكنه لم يف بوعده . أليس هذا ما حصل ؟ وأشار « كلفن » برأسه أن نعم !

قلت : ومرت الأيام .. وسمع الناس اسم « سرفيتوس » وترامت الأخبار إليك في « جنيف » . وبلغ إلى سمعي أنك قلت أنه إذا جاء « سرفيتوس » إلى جنيف فلا يجوز أن يخرج منها حياً ...

وجاء « سرفيتوس » إلى جنيف وأبلغوك عن مجيئه وعن القبض عليه ، فأسرعت إلى خزانتك وأخرجت كتبه التي حوت « هرطقته » وكتبت مذكرة طويلة جداً عددت فيها معاصيه وكلفت من يمد جهاز الاتهام بالمعلومات .. كما بثثت روح العنف . كانت المحاكمة

طويلة وقد بدا كما لو أن هيئة المحكمة غير مقتنعة بالشكوى . وربما كان في الإمكان لو أنها تركت بعيداً عن مؤثرات خارجية لأمكن أن يخرج « سرفيتوس » بريئاً . لكن العوامل الخارجية لم تصوره هرطوقياً فقط ولكنه صوّر عاملاً على إفساد الحياة في المدينة . و « سرفيتوس » كان أحمق في بعض تصرفاته ، إذ أنه بدلاً من الدفاع عن نفسه هاجمك . وأنا أحسن الظن بك يا أخ « كلفن » ، ولكنك إنسان . وقد تأثرت من هجومه ، لا أقول أن العامل الشخصي كان كل شيء في حماستك ضده . لكن أرجو أن تسامحني إذا قلت أنه قد يكون أحد العوامل . أنا لست من عباد الأبطال . أنت بطل ، ما في هذا شك . وأنت عبقري بدون جدال . وأنت عملاق يشهد لك التاريخ . أنت خلّدت اسمك وخلدت نظامك . ولكنك برغم كل ذلك إنسان . أعتقد أن العامل الشخصي كان له شيء من التأثير في حماستك للعقيدة السليمة !!

ألم يُطرح اقتراح أن تعطى فرصة لمعالجة هذا الرجل العالم المطارد أيضاً من كنيسة روما ؟ الرجل الذي تحالف الكل ضدّه ؟ ولو أنه عولج فربما كان يصبح أداة للخير .

ولكن رجالك صاحوا ، أنه كالأبرص لا يعالج ، ينبغي ملاشاته لئلا يصيب البلاد بالوباء . ينبغي أن يقتل ، يقتل بدون شفقة ..!!

وحكم على « سرفيتوس » بالإعدام حرقاً !

لماذا « حرقاً » يا « كلفينوس » ؟

ألن تكفيه نيران الجحيم التي سيذهب إليها ؟ هل لابد من نارين ؟ إن الكاثوليك أفضل منا .. إنهم يرسلون الناس إلى المطهر . أرسله يا كلفن إلى مطهر السجن . أو إن كان لا بد أن يعدم فليعدم قتلاً بالسيف !

وقال « كلفن » : لقد وقفت أحاول أن يكون الإعدام بالسيف ولكنهم أثاروا ضوضاء ورفضوا .

قلت : أنا سمعت ذلك ولكني أقول إن اعتراضك لم يكن جدياً . لقد سجل التاريخ لك أنك وقفت يوماً أمام جمهور غفير لتنقذ صديقاً لك وقلت للمتظاهرين ان كان ولا بد من دم فهذا صدري ، وكشفت عن صدرك ، وقلت فاطعنوني أنا ، ونجا الرجل . ترى هل قمت بمثل ذلك من أجل سرفيتوس ..

ثم .. ثم إن الرجل طلب أن يقابلك !

وتقابلتما .

هل أعيد ما حدث في تلك المقابلة :

عد إلى ذاكرتك واسمع هذا التسجيل :

كلفن : لقد طلبت أن تقابلني فماذا تريد منّي ؟

سرفيتوس : لأخبرك أني لا أحمل لك في قلبي أي ضغينة شخصية !

كلفن : وكذلك أنا !

سرفيتوس : اننا لسنا مختلفين كثيراً .. نحن الاثنين نعتبر هرطوقيين (من كنيسة روما) أنا أنظر إلى الأمور بميزان العقل والمنطق . هذا هو السبب الذي يجعلني أرفض عقيدة الثالوث . واضح أني أومن بالله وأنا أضع المسيح فوق جميع البشر ولكن ثلاثة في واحد ؟ هذا ينافي المنطق !!

كلفن : إن الإعلان يوضح المنطق ..

إن عنوان كتابك « عودة المسيحية » يعلن التجديف !

سرفيتوس : سأدعو كتابي الثاني Rationality Restored .

كلفن : انك لن تجد الوقت الذي تكتب فيه شيئاً ، بل إن الكتب التي كتبتها كلها ستذهب معك .

سرفيتوس : أوه .. لماذا جئت أنا إلى جنيف ؟

كلفن : أنا نفسي أسأل هذا السؤال : ما الذي جاء بك إلى جنيف ؟

سرفيتوس : لقد هربت من فينا إلى « بدمونت » ثم إلى إيطاليا . كانوا يطاردونني في كل مكان . إذ ذاك فكرت أن أذهب إلى « جنيف » . « كلفن » رجل علم ، بالرغم من اختلاف وجهة النظر ، إن رجال العلم لا يسلكون نظير الأتراك !!

كلفن : ترى هل اكتشفت أنك أخطأت في حسابك ؟

سرفيتوس : لقد وجدت في جنيف نفس الهمجية التي رأيتها في فينا !!

كلفن : إن الدفاع عن اسم الرب يسوع ضد التجديف ليس من الهمجية في شيء !!

سرفيتوس : إنك رجل ضليع يا « كلفن » ولكن علمك ضيق !!

كلفن (لنفسه) : استعاد الرجل وقاحته . أخذ « الكلب » يجابهني بالنباح . (لقد سجلت هذا الهمس في مذكراتك) .

سرفيتوس : ماذا تعرف من العلم ؟ ماذا تعرف من الفلك ، الرياضيات ؟ ماذا سمعت عن « كوبرينكوس » المجيد ؟

كلفن : أعرف أن « لوثر » دعاه أحمق .. هل جئت بي إلى هنا لتعلمني ؟

سرفيتوس : لا ، لا ، استمحيك عفواً .. ترى من هو الأحمق ؟ لقد علمنا « كوبرنيكوس » إن ما نظنه حقيقياً ونحن نراه بعيوننا قد يتضح أنه أكاذيب . نحن نظن أن الشمس تدور حول الأرض بينما الأرض هي التي تدور .. نحن يا « كلفن » أحرار . لقد تحررنا من الأكاذيب !!

كلفن : اني أعلم ما جاء في سفر أيوب أن الله علق الأرض على لا شيء . ولو أن الناس فحصوا الكتاب لوجدوا الكثير من مثل هذا مما يبين حكمة الله . هل أصلح « كوبرنيكوس » العالم ومصير الإنسان بإعلان أن الأرض تدور حول الشمس ؟

سرفيتوس : العلم يجعل حياتنا محتملة .. إذ نتخلص من الأكاذيب !

كلفن : إن العلم أعظم أكذوبة إذ أنه يمجد الإنسان ويجعله أعظم من الله !

سرفيتوس : العلم يرفع الإنسان إلى الله . إن الله يحرضنا أن نبحث ونفحص أعماله . إن أكذوبة الثالوث سببت لي صداعاً مستمراً إلى أن اكتشفت الله الحقيقي ويسوع المسيح الحقيقي !

كلفن : إن البشر لن يجدوا تعزية في مسيحك !

سرفيتوس : هل يجد البشر تعزية في منطق نيقية ؟

كلفن : نعم لأنه يحدثهم عن إنسانية المسيح وأنه تألم ومات من أجلهم بصفته الله في الجسد .

سرفيتوس : (يضحك ضحكة جوفاء ويمسك بيد كلفن) اثنان من رجال العلم كل منهما موقن .. ليس منا من هو موقن . ولكني يا سيد « كلفن » سأعرف الحقيقة قبلك

(هنا خانته شجاعته وأخذ يئن) ينبغي أن تقنعهم أن يقتلوني بالسيف . أنا لا أحتمل النار !

كلفن : لقد حاولت ولم أنجح !

سرفيتوس : (ينطرح على الأرض ويقول) قد تخور عزيمتي فأسحب كلامي !

كلفن : اسحب كلامك الآن . ليملأك روح الله !!

سرفيتوس : (ينظر بوحشية إلى كلفن) : اذهب عني (باكياً) اتركني وحدي يا « كلفن » . اتركني وحدي . ثم رفع عينيه إلى فوق وقال : يا يسوع إذا كان هذا ما تعمله أنت معي فماذا بقي للشيطان ؟ يا مسيح هل تأمرهم أن يمزقوا الناس ؟ أن يقطعوا رؤوسهم ؟ أن يحرقوهم ؟ يا مسيح هل نذهب إلى حيث تمارس هذه القساوة ؟

وقلت لكلفن : هل لا تزال تصر على ما قلت للرجل المسكين ..

وقال كلفن : إنني إنما أدافع عن حق السيد !!

ــ قصة تنفيذ حكم احراق سرفيتوس .

قلت : وهل تسمح لي أن أقدم لك صورة لما حدث يوم تنفيذ الحكم على الرجل ، أم هل تروي لي أنت هذه المأساة ؟

وتكلم « كلفن » وقد بدا عليه كثير من التأثير :

خرجت من باب السجن إلى منزلي الذي لم يكن على مسافة بعيدة ، ووجدت صديقي « هوك » ينتظرني عند الباب . يبدو أن صوتي كان مرتفعاً وأنا أتكلم مع « سرفيتوس » فقد سمع على ما خمنت كل شيء . سار معي حتى وصلت إلى باب البيت ، وقد فوجئت برؤية القس « فاريل » فهتفت بابتهاج : ما الذي جاء بك ؟ قال : ظننت أنك في حاجة إليّ .

وقد ذكرت له أني كنت مع « سرفيتوس » وقد تركته من دقائق . قال ألا يمكننا أن نجعل ذلك « الكلب » يعترف بشره لينقذ نفسه ؟ وإذ ذاك ربما أمكننا أن نقنع مجلس المدينة أن يكتفي بنفيه ونحن نسامحه إذ ذاك سواء كان اعترافه حقيقياً أو ظاهرياً . هذا لا يهم . لنترك لله الحكم . إنه يعرف . موته لن يكون على رأس الكنيسة !!

قلت : لقد حاولت أن أقنعه بلا فائدة ... لقد حكم على نفسه بالإعدام .

وقال « فاريل » : هل سترافقه ؟

قلت : كلا ، أني لا أستطيع . سيغمى عليّ من المنظر !!

وقال « فاريل » : إذن سأذهب أنا . سأصلي طول الطريق . من يعلم ؟ فإنه قد يعدل عن عناده عندما يقترب من « شامبل » حيث ينفذون الحكم عليه !

لم يكن باب السجن في مدى نظري .. ولكنني استطعت أن أتخيل ما حدث . فتح الباب الحديدي وخرج « القوّاسون » يجرون المحكوم عليه وقد طوق عنقه بالسلاسل وقيدت يداه وقدماه بالأغلال . لاحظت أن « القواسين » غيروا طريق الموكب . علمت أنهم قصدوا أن يتجه الموكب أمام بيتي . كان « فاريل » يسير إلى جانبه وقد رفع يديه في صلاة طالباً الهداية للمذنب و « سرفيتوس » يصرخ : « الرحمة .. الرحمة » . وازدحم الجمهور في الطريق بعضهم يعطف عليه .. كثيرون وجهوا إليّ نظرات غاضبة وأيادي مهددة . آخرون قالوا له تعقل ، ارجع إلى الصواب ، نجّ نفسك .. و« سرفيتوس » ينادي : « الرحمة .. الرحمة ، هذا ظلم ظلم ظلم » ....

وقال له « فاريل » : أنا جئت لكي أصلي من أجلك لكنني سأتركك إذا تمسكت بادعائك هذا .

وقال « سرفيتوس » : لا تتركني ياقسيس « فاريل » . أنقذني يا« فاريل » !!

وقال فاريل : إذن اعترف بخطيتك واشهد أن يسوع هو الابن الأزلي للآب .

وقال سرفيتوس : لا أستطيع ، هو ابن الله ولكن ليس الابن الأزلي . كيف تستطيعون أن تغتالوني من أجل هذا ؟

وصاح « فاريل » بصوت عال حتى يسمع الجميع : إنه ليس اغتيالاً ، إنه عقاب لإنقاذ العالم من الهرطقة !!

وظهرت امرأة في الطريق وصرخت وقالت : انكم ستحرقون البريء . ثم شوحت بيدها نحوي وقالت : هاك الوغد ، هو الذي يستحق الاحراق . وقد عرفت المرأة التي جذبها إلى الخلف أحدهم ، غالباً زوجها . ظل « سرفيتوس » يسير وهو يقول : اللهم ارحمني .. وسار الموكب حتى اختفى عن عيني !!

قلت : ألم تتأثر من المنظر ياصديقي « كلفن » ؟

قال : بل تأثرت ولكنني سمعت الصوت : لا تشفق عليه .. طهّر الأرض من الأدناس .

وأتم « كلفن » القصة .

قال : رافق « فاريل » « سرفيتوس » إلى حيث تمّ إعدامه . كان « فاريل » قد استعار ردائي الاكليريكي . عاد يحمله وقد وضع فيه بقايا المبتدع ، جسده وكتبه وأوراقه ، وقص كيف تم التنفيذ . كان الرجل يسير صارخاً : الرحمة . الرحمة ، أنا مظلوم . انهم يقتلونني اغتيالاً . كان يسير وهو يطوّح برأسه يميناً ويساراً والقواسون يسحبونه بالسلسلة المتصلة بالسلاسل التي طوقت عنقه . وعندما وصل إلى مكان الإعدام قال إنه لا يستطيع أن يقف فأجلسوه على حجر . وجاءوا بكمية من الحطب وضعوها على رأسه . وجاء الجلاد وصب على رأسه حامض الكبريتيك ثم تقدم بالشعلة وقبل أن تصل النار إلى الحطب صاح سرفيتوس : يا يسوع يا إبن الله الأزلي ارحمني . وقال « فاريل » : ياالأحمق . تغيير بنسيط كان يمكن أن ينقذه من الموت إلى الحياة من جهنم إلى السماء لو أنه قال يا يسوع الأزلي يا ابن الله . ولكنه لم يقل ذلك فهوى بكل إلحاده وكتاباته الإلحادية إلى قاع الجحيم !!

قلت : ياأخ « كلفن » لن أعيد عليك ما سبق أن قلته لك . ولكني أحسّ الآن بعظمتك فان هذه « العملة » الشنيعة لم تستطع أن تخفي عظائمك . حسن أن تكون نقطة سوداء في حياة كل عظيم وإلا عبدنا العظماء . لابد أن نعلم أن الإنسان إنسان .. ليس أحد بلا لوم بين البشر . الله وحده الطاهر القدوس الصالح المبارك إلى الأبد !

قلت لكلفن : لعله لا يروقك أن أسجل لك ما تحدثت به إلى نفسك في أيامك الأخيرة إن أحداً لم يسمع ما قلته لأنك لم تنطق به بشفتيك . لا تسألني من أين استقيت هذا السجل . كل ما أطلبه منك أن تخبرني ما إذا كان صحيحاً أم لا . لم يتم هذا الحديث في يوم أو في شهر . لقد تم في أيام كثيرة غير متواصلة !!

لقد نال « سرفيتوس » جزاءه . الحق . أنا لم أظلمه . لقد تأثرت قليلاً لما سمعت عن الإذلال الذي وصل إليه ، ولكنه يستحق . هو الذي قتل نفسه . هو متكبر ، متشامخ ، عنيد ، لكن ، ما هذا الضيق الذي ينتابني ؟ لقد ظن المأفون أنه يستطيع أن يهزم « كلفن » في عرينه . هو يعلم أن لـ « كلفن » خصوماً .. وأن هؤلاء الخصوم سيسرون إذ يرون « كلفن » مرتبكاً . هو يعلم أن ... (سمعت بعض الاسماء ولكنها لم تكن

واضحة) وهؤلاء فعلاً وقفوا يؤيدونه ، لا لأنهم يتفقون معه ، لكن لأنهم يبغضون « كلفن » . ياللمجرمين . لقد حاولوا أن يشوهوا سمعتي . سمعتهم يقولون : الفرنسي الغريب يتحكم في مدينتنا . ينبغي أن يطرد . بل ينبغي أن يكون هو المحكوم عليه بالحرق ، لا الرجل المسكين « سرفيتوس » .. لكن .. لكنني انتصرت . شكراً لله انتصرت . انتصرت على « سرفيتوس » وجميع أعوان « سرفيتوس » . بل إن الذين أيدوه دحرهم الله . خسروا كل شيء ، فقد هرب البعض ، وقتل البعض ، وعلقت رؤوس البعض على باب المدينة . أثاروا فتنة في المدينة . هددوا بقتلي . لكن الله أنقذني ، وهم نالوا جزاءهم ، ارفع رأسك يا « كلفن » فقد انتصرت .

من هذا الذي يقف إلى جانبي ؟ انه رسول المجلس الكبير يحمل إليّ براءة الجنسية لمدينة « جنيف » . جنسية معفاة من كل الضرائب . براءة جنسية يصحبها كتاب ثناء على ما أداه « كلفن » من خدمات مجيدة للمدينة .. ومعها هدية أخرى ــ برميل نبيذ .. واذن بصرف جميع نفقات علاجك من خزينة المدينة انه نصر كبير . ها أنا أقف مرفوع الرأس أسأل أين مقاوميّ ؟ أين هم ؟ أين أعدائي ؟ ضربهم الله على الفك .. لكني متضايق . إني أبصر « سرفيتوس » يسير أمامي في أغلاله ورأسه تتطوح يميناً ويساراً . أراه والدخان يحيط برأسه وهو يقول : يا يسوع ياابن الله الأزلي ارحمني .. هل أخطأت في الاشتراك في الحكم عليه . ما هذا الضعف الذي يساورني ؟ ما هذا المرض ؟ الأنفاس « المكروشة » .... السعال الدموي .. المعدة الضعيفة .. الرئة المسلولة .. ارحمني يا رب !!

ها هم يأتون إليّ ليسألوا عن صحتي .. ماذا أقول لهم ؟ سأقول لهم إني كنت كل حياتي مخلصاً . أنا أعترف أني خاطيء ، ولكني كنت طول حياتي مخلصاً !

كنت أدافع عن الحق . كنت أدافع عن الثالوث . إني أحمل شيئاً من دم « سرفيتوس » بالحري كل دمه ، لكنه يستحق . انه ينكر الثالوث . وفي طغيانه كان يهاجمني ، يقول إني لا أعرف شيئاً من العلم ، لا أعرف الفلك ولا الرياضيات ولا الطبيعة يقول إني درست ولكن ذهني ضيق . هه ماذا نفعه علمه ؟

أنا فقير وهو غني . لقد أخبرني السجان أنه كان يملك ثروة من ذهب ومجوهرات هذه ستحترق معه ، ماذا أفاد منها .. ستتحول إلى تراب !

ما هذه الأوجاع ؟ جسدي ونفسي .. ابنة زوجتي تمثل أمام القضاء بتهمة الزنا .. بيتي أهلي .. آه إن رأسي تكاد تنفجر !!

وهنا تكلمت .... ياصديقي الكبير :

دعني أسألك : لماذا أوصيت ألا يكون حفل دفن جثمانك إلا في كل بساطة . وقبرك طلبت أن يكون مجهولاً . هل قصدت أن ينساك الناس وينسوا اشتراكك في قتل « سرفيتوس » والكثيرين ممن دعوتهم هراطقة ؟؟

وضحك « كلفن » وقال : ان خيالك خصيب جداً . اني لست بنادم على عمل قمت به . أنا لم أحكم على « سرفيتوس » أو غيره . صحيح ان لي ضلعاً غير مباشر في جميع الأحكام ولكن الأحكام كانت صحيحة جداً من الناحية القانونية ، وكان الخطر من وجود « سرفيتوس » وأمثال « سرفيتوس » يتطلب مواجهة صارمة !!

قلت : اسمع ياصديقي سأترك كل هذا لأني أرغب كل الرغبة في دراسة كتابك « المباديء » كل ما أرجوه ألا يكون عقلك الكبير الجبار قد طغى على قلبك فسلبه أفضل ما فيه .. لقد قالوا لي أيضاً إنك كنت تملك قلباً !!

ـ قضية سبستان كاستللو :

وبعد صمت طويل قلت : لماذا لا تترك هذه المأساة ونأتي إلى المواجهة الثالثة . وقد كانت على ما سمعت مع « سبستان كاستلو » الذي كان أستاذاً للعلوم الإنسانية . وقد تابعت قصته فلم أجد فيها إثارة مثل التي لازمت قصة « سرفيتوس » . لقد كانت قضية « سرفيتوس » واضحة . فانه أنكر الثالوث وأنكر لاهوت المسيح . ومعنى ذلك أنه أنكر القواعد الأساسية للمسيحية . لم يكن الأمر معه يحتاج إلى أخذ ورد . أما « كاستيلو » فان قضاياه كانت تتطلب بحوثاً لاهوتية . لذلك أرجو ياصديقي « جون » أن تسرد لي تفاصيل قصته . وقال « كلفن » :

هذا رجل جاء إلى « جنيف » مختاراً . لم يأت هارباً من اضطهاد كما أتينا نحن . جاء لأن مباديء الإصلاح اجتذبته . وفي « جنيف » أصبح مسئولاً عن المدرسة . وبالرغم من سمو مكانته كمسئول علمي فقد سعى أن يكون راعياً ، ولكن المجمع رفض أن يستجيب لطلبه . فانه برغم مؤهلاته العلمية اللازمة للتعيين وبرغم ما أظهر من الشجاعة الأدبية اللازمة . إذ أنه تطوع للخدمة بين المرضى بالطاعون معرضاً حياته للموت وقد مات كثيرون بالطاعون . وبرغم أن كل المؤهلات للخدمة توفرت فيه ، إلا أنه اختلف مع المجمع في تفسير بعض أجزاء الكتاب . فقد استنكر التفسير المجازي الذي كتبته بخصوص النزول إلى الجحيم .. كما رفض الاعتراف بوحي سفر « نشيد الأنشاد » في العهد القديم . على أننا

لم نكن ضيقين معه بل أظهرنا حسن نيتنا معه وبرهاناً على رضانا عنه وعن عمله أعطيته أنا وزملائي في « جنيف » خطابات توصية للمدارس الأخرى . فترك « جنيف » ١٥٥٢ إلى « بازل » حيث تعين هناك أستاذاً لليونانية .

وفي « بازل » قام بثورته ضدي فانه قبل أن ينصرم عام على إعدام « سرفيتوس » بدأ يثير الشكوك حول الدوافع اللاهوتية في القضية . قال « كلفن » : وجدت نفسي مضطراً للرد عليه . ولكن « كاستيلو » هاجمني . قال إن استنادي على الكتاب المقدس في تبرير معتقداتي استناد خاطيء . لا يستطيع إنسان أن يجزم ما هو الرأي الصحيح في المسائل المختلفة . لا يستطيع إنسان أن يقول إن رأيه هو الرأي الصحيح النهائي وأن كل رأي آخر باطل .. وقد تطرف فقال أن الحكم في قضايا مثل المعمودية وعشاء الرب والتبرير والتعيين السابق هو العقل وليس الكتاب !!

قلت : أظن أنه لم يقصد نفس الكتاب بل تفسير الكتاب وأن التفسير يتطلب حكم العقل لا التمسك بحرفية كلام الكتاب !!

قال « كلفن » : لقد قامت مجادلات وأثار بلبلات .. كان ملخص المجادلات بيننا ثلاث نقاط :

« كاستيلو » يقول إن كل فكرة تعتبر جيدة مثل غيرها ، متى كان صاحبها مخلصاً فيها .

وقلت أنا أن تأييد فكرة خاطئة شريرة هو أمر خطير . ينبغي أن تنظر إلى ذلك بحذر !!

كاستيلو يقول : إن الاقتناع العقلي هو الوسيلة الوحيدة لمعالجة أي باطل !!

وقلت أنا أن القسر لازم أحياناً !!!

كاستيلو قال : إن المسيحية أمر باطني تماماً .

وقلت أنا إن هناك صورة منظورة للمسيحية ، هي الكنيسة التي يجب الاعتراف بها والدفاع عنها .

وهنا قلت « لكلفن » : وهل انتهيتما إلى شيء .. أم أنكم حكمتم على « كاستيلو » بالإعدام حرقاً ؟

ثم قلت : ألست ترى أن حوارك مع « كاستيلو » كان برهاناً على أن الحوار وليس القسر هو الوسيلة للإقناع . وأن مؤلفاتك أدت من الخدمة للإصلاح أضعافاً مضاعفة .. بل الحقيقة لا يجوز أن أقول ذلك . أن أحكام السجن والإعدام عطلت نمو شجرة الإصلاح . أن مؤلفاتك كانت هي العامل الأكبر للإصلاح في القرن السادس عشر .. وفي القرن العشرين . إن التاريخ يصفح عما قام به « الإصلاح » من مآسي إكراماً لما قدم من نور وما قمتم به من عظات وافتقاد ومؤلفات .. و .. إني أذكر الآن المدارس ، فقد سمعت عن الأكاديمية التي قمت بتأسيسها .. وسمعت كذلك عن المرسليات التي أرسلتموها .. هل تؤجل الحديث إلى الغد ؟

الحديث العاشر



١٩٨٢/٩/٢١

لقد تألمت ياصديقي العظيم وأنا أذكر الإصلاح الذي فرض . رأيت العظائم التي قمت بها . ولكن قصة « جروت » و « سرفيتوس » وغيرهما من الذين سجنوا وأعدموا غطت في بعض الأوقات على عظائمك . غير أن ما قمت به أخيراً بعد أن استقرت الأمور ملأ قلبي بالابتهاج ولو أني كنت أرجو لو أنك قمت به أولاً .

وقال كلفن : تقصد تأسيس الأكاديمية ؟

قلت : نعم !

قال : وهل كان عندي الوقت في أول الأمر لتأسيسها ؟ لقد فكرت فيها من الأول وبدأت أخطط لها ، ولكني لم أستطع أن أتفرغ لها إلا بعد أن استقرت الأمور . لقد بدأتها فعلاً منذ ذهابي إلى جنيف . لكني انشغلت بالمقاومات !

قلت : لقد أشغلت نفسك أكثر من اللازم . ومع ذلك فقد قام بعض أتباعك بعد اصلاحك بثلاثة قرون . جاءوا إلى مصر يحملون علم الاصلاح . جاءوا بلا مجلس كبير أو مجلس صغير . جاءوا ، وكل القوات تناوئهم ، والمسيحيون أقلية ، وقد حاربتهم بشراسة . والأكثرية غير مسيحية ساندت الأقلية الوطنية . في ذلك الوقت جاء المصلحون وقد بدأوا خدمتهم ١٨٥٤ . وفي سنة ١٨٦٣ أسسوا أكاديميتهم . صحيح أنها كانت أكاديمية متواضعة ولكنها خرّجت إلى اليوم عدة مئات حملوا منار الإنجيل ، وقد ظهر منهم أبطال تحدثت عنهم — لا مصر وحدها لكن — كل بلاد كان لها صلة بكنيستنا . ابتدأت كما قلت لك شيئاً متواضعاً . متواضعاً في اسمه وإن كان عظيماً في منهاجه ، ابتدأت باسم « صف اللاهوت » .. وتقدمت إلى « مدرسة اللاهوت » . ثم ارتفعت إلى « كلية

اللاهوت » . وقد خرّجت عمالقة نشروا الاصلاح في جميع البلدان المصرية والسودان وكينيا في أفريقيا ، والبلدان العربية في سوريا ولبنان والأردن والعراق والكويت والبحرين والحبشة .. بل أرسلت بعضاً من خدامها إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا والنمسا وإيطاليا وكندا والولايات المتحدة والبرازيل وأستراليا . وذهبت مؤلفاتنا إلى كل تلك البلدان . لقد تأسست « الأكاديمية » يوم أن وضع أساس الاصلاح . وبذلك استغنينا عن المجلس الكبير والمجلس الصغير . ولم نكن في حاجة إلى أحكام نفي أو أحكام إعدام . على أني أشكر الله أنك أسست الأكاديمية أخيراً . خبرني ياصديقي ، خبّرني عن هذه الأكاديمية وعما قامت به من أعمال جليلة !!

صمت « كلفن » فترة طويلة .. ثم تكلم وقد بان التردد في لهجة كلامه . قال : لقد فكرت في الأكاديمية منذ ذهبت إلى « جنيف » لأول مرة . ولكنني لم أفكر في أكاديمية صغيرة ولا في أكاديمية ضعيفة . كنت أفكر في أكاديمية كبيرة فيها معلمون يستطيعون أن يواجهوا علماء المقاومين . كان عدد كبير من رهبان الكاثوليك علماء في اللاهوت والعلوم الإنسانية والطب . لقد نجحت مدرستكم اللاهوتية لأن غالبية شعبكم كانت .. كانت متوسطة الثقافة العلمية . لم يكن عندكم الكثيرون ممن يحملون درجات علمية . والذين قاموا بالتعليم عندكم كانوا برغم ما حازوا من معارف ، غير متخصصين لكنهم استطاعوا أن يبرزوا أقطاباً لأنهم لم يجدوا مواجهة قوية . كانت مدرستكم تضم أستاذاً واحداً لكل العلوم ولم يكن لها مكان مستقر . أما أنا فكنت أحلم بأكاديمية تضم كبار الأساتذة يقصدها طالبو العلم من كل نواحي أوربا !!

لا عجب إن تأخرت حوالي عشرين سنة بعد وصولي إلى « جنيف » لأول مرة . ظللت أجمع المال اللازم وأفكر في العلماء المنفتحين ، ونجحت أخيراً . جمعت المال ووجدت المكان واخترت « ثودور بيزا » عميداً للأكاديمية ووضعت النظم التي تدور حول مناهج الدراسة اللاهوتية الحديثة والقديمة . وبالطبع كانت اللغات ضمن المنهاج المطلوب خصوصاً « العبرانية » و « اليونانية » و « اللاتينية » و « السريانية » ... وكان فيها شيء من دراسات الفلسفة والمنطق والرياضة والطبيعة وكل ما كانت المدارس العالية تقدمه لطلبتها . وكان حفل الافتتاح في الخامس من يونيو ١٥٥٩ .

كلا ياصديقي اني بالرغم من تقديري لكليتكم لا أرى أي وجه للمقارنة بينها وبين أكاديمية جنيف .. أنا لا أقصد أي تقليل من أعمالكم العظيمة لكن ...

قلت : لا بأس ، لا بأس . لقد سمعت عن ذلك الافتتاح العظيم الذي رأسته أنت ..

ومن ذلك الوقت ابتدأ الناس يرون فيك رمز الحركة الاصلاحية بل بدأوا يقولون « أكاديمية كلفن » ، « كنيسة كلفن » ، « اصلاح كلفن » ، « رعاة كلفن » !!

وقال كلفن : لقد قال بعضهم ذلك . ولكنهم آمنوا أنه اصلاح حقيقي . اصلاح مبني على قواعده السليمة . وقد توفر لنا الخدام الأكفاء الذين استطاعوا أن يقدموا الحق الإلهي المدعم على المعرفة الكتابية التي أمكنها أن تقابل أكاذيب العالم ، بالحق الإلهي ، لا أقول الحق المسنود بالمعرفة العلمية ولكني أقول الموضح بالأسانيد العلمية . سهى عليّ أن أقول لك أنه قد كانت لنا أيضاً دراسة علمية ، فقد قمنا بتدريبات وممارسات للخدمة الوعظية والرعوية . وقد تمكنا من ارسال بعثات تبشيرية إلى مختلف الجهات . لقد أرسلت هذه البعثات من قبل تأسيس الأكاديمية . فقد أرسلت خادمين إلى بلاد البرازيل سنة ١٥٥٣ ــ ولكني استطعت أن أنظم هذه البعثات منذ ١٥٥٩ أرسلت إلى إنجلترا واسكتلندا وايطاليا .. وكانت فرنسا هدفي الأول . إنها وطني . أرسلت إلى « باريس » و « ليون » و « كان »و« بوردوا » و « أورلبان » و « تولوز » . وقد نجح الإنجيل في فتح القلوب وفتح الأذهان . واحتمل المرسلون الكثير من الاضطهاد ، من مطاردة وسجن وقتل . بل صدرت الأوامر بملاحقة هؤلاء المرسلين ، وقد قبض على بعض هؤلاء حال وصولهم إلى حيث ذهبوا ، وحكم عليهم بالإعدام بدون تحقيق ، وقبل أن ينطقوا بكلمة . قال « كلفن » هذه الكلمات ثم أخرج منديله ومسح العرق المختلط بالدموع من وجهه وهو يقول : أليسوا مجرمين ؟

قلت : هل تراهم كذلك ؟

قال : وأي إجرام !!؟

قلت : ألم يكونوا يدافعون عن الكنيسة ؟ ألم يكونوا مخلصين ؟ لقد كانوا عمياناً ولكنهم كانوا مخلصين . ألم تفعل أنت كذلك ؟

قال : اني كنت أسير في النور ؟

قلت : وكيف تؤكد ذلك ؟ من الذي أعطاك الحق أن تحكم أن رأيك هو الرأي الوحيد الصحيح ؟ ومع ذلك فقد انتهينا من هذا الموضوع ياصديقي . أما الآن ألم تقل لي أن إعدام الخارجين كان ثمناً للإصلاح ؟ لا ياصديقي . إن الإعدام لم يشتر الإصلاح . لقد اشتريته بمداد القلم الذي كتب كتبك .. الرسالة التي قدمتها أكاديميتك ...

ولقد أتيح لي منذ سنوات قليلة (١٩٦٤ على ما أظن) أن أقضي ثلاث ليال في

« جنيف » . بالطبع لم تكن هي جنيف ١٥٦٤ ولكن الأمر المدهش أن التغيير بالرغم من أنه شمل أكثر الأشياء وبالطبع شمل النظم الحكومية والاقتصادية والسياسية . بالطبع نسيت أشياء وأسماء ، ولكنني دهشت أن التغيير لم يصل إلى اسم « كلفن » أو اسم « أكاديمية كلفن » أو « كتب كلفن » . ولقد أخذوني إلى حيث رأيت على ما أظن « تمثالاً لكلفن » وكرسياً قالوا إن « كلفن » كان يجلس عليه وكتباً يعيدون طبعها قالوا إنها كتب « كلفن » وأروني كتاباً كبيراً قالوا إنه « كتاب المباديء » أو أصول الإيمان المسيحي الذي كتبه « كلفن » . لم يذكروا « جروت » ولا « سرفيتوس » . الغريب أنهم حاولوا أن يخفوا عني اسم « سرفيتوس » . بل أن بعضهم قال إن « سرفيتوس » أعدم رغماً عنك (أرجو أن تكون قد ندمت على تأييدك لإعدامه) .. نعم ، كانوا كلهم يهتفون لعظاتك وكتب المواعظ التي تركتها وكتب التفسير التي أخرجتها ، وكتاب أصول الإيمان ــ الكتاب الخالد ــ ويذكرون هذه على أنها دعائم الاصلاح . وقد قلت لهم إني مسرور أنك أتيت هذا الخطأ الكبير وإلا كنت إلهاً معبوداً . من الطبيعي أن تكون لكل إنسان ضعفات . هكذا كان لكل الناس العظماء . هكذا كان الرسول بولس . وقد سررت أن « جنيف » تخلّد ذكرى رجل لا يمت بعلاقة المواطن لها . وسررت أن المسيح جعل من الفرنسي المنفي أعظم إنسان تفتخر به المدينة الجميلة . ولا تزال مدينة « جنيف » إلى اليوم مصدر اشعاع لكل بلاد العالم يخرج منها ويأتي إليها أقطاب رجال ونساء الإصلاح ..

وهز « كلفن » رأسه شاكراً وتركني بدون وداع !!

الحديث الحادي عشر

تواريخ تذكرها جنيف

١٩٨٢/٩/٢٢

ملاحظة : يلاحظ القاريء أن التواريخ لا تسير طبيعيا . السبب أني عدت ورتبت المذكرات بحسب مواضيعها تاركاً التواريخ كما كانت .

يالها من مركبة غريبة سمعت أنها تدعى مركبة الزمان . صعدت إليها فنقلتني في لحظات إلى المدينة الجميلة جنيف واجه التاريخ المؤلم . كانت ورقة التقويم تعلن أن اليوم هو السادس من فبراير ١٥٦٤ . وإذ بي أبصر « كلفن » يلقي العظة . لم يكن قوياً في جسده . كانت العظة قوية في روحها .. مرت أيام فبراير دون أن أسمعه يعظ مع أني ذهبت خصيصاً إلى الكنيسة التي يرعاها بل سألت ما إذا كان سيعظ قالوا أنه معتكف !!

في السادس من مارس أعلن مجلس « جنيف » تكريس عن إقامة صلوات عامة من أجل « كلفن » . لم يسبق أن حدث شيء مثل ذلك لأي إنسان آخر . في السابع والعشرين ذهبت مع المجلس في موكب كبير لزيارته زيارة الوداع ...

كان « كلفن » مضطجعاً على فراشه ، وكان صدره يرتفع وينخفض في شبه حشرجة . ودع « كلفن » رعاة المنطقة بالكلمات « لقد أحزنتني خطاياي دائماً . ولكن خوف الله كان يملأ قلبي » !

لم يكف « كلفن » عن الكلام ولو أنه كان يتكلم بصعوبة . كان يملي على القائمين بالسكرتارية كلمات « تفسير التثنية ، وأيوب ، وصموئيل » . كان يملي في نفس اليوم الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة .. قبل النهاية ببضع ساعات !!

جاء « فاريل » من « نيوشاتل » مع الرعاة ولم يخرج معهم بل ظل بجانبه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في السابع عشر من مايو ١٥٦٤ .. كما بقى إلى جانبه « بيزا » الذي

كتب : « اليوم مع غروب الشمس عاد إلى السماء أبهى نور كان في العالم لهداية كنيسة الله » !

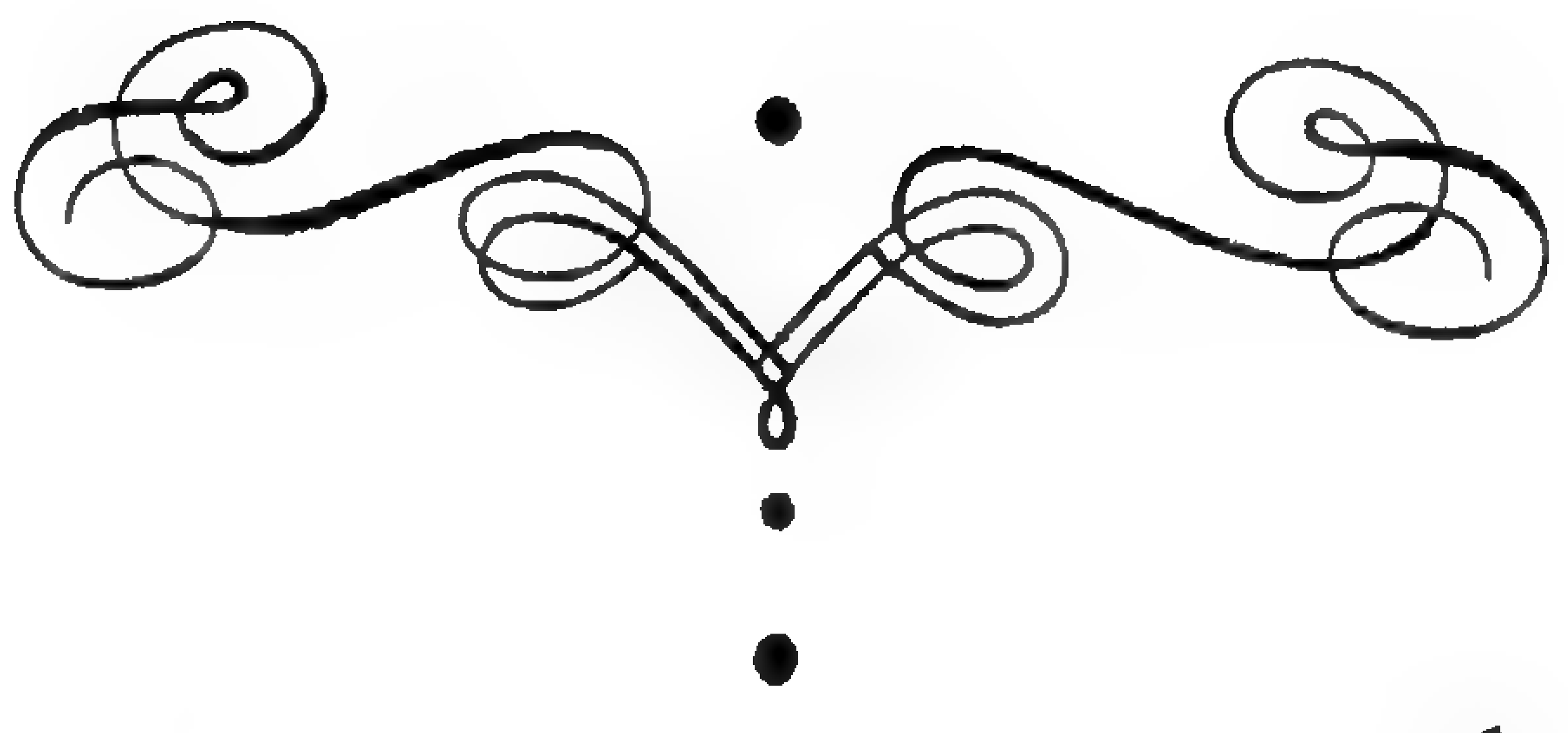
حضرت حفل دفن رفات القديس وكان حفلاً باكياً ، ولكنه كان حفلاً مملوءاً بالرجاء ! كان رعاة الكنائس يجتمعون تقريباً طول النهار وجانباً كبيراً من الليل وهم يسكبون قلوبهم أمام الله !

وفي الثاني من يونيو ١٥٦٤ أي بعد أسبوعين من انتقاله ، اجتمعوا مع أساتذة الأكاديمية لانتخاب من يخلفه في القيادة . وفيما هم في حضرة الله تلا واحد منهم كلمات وصيته الأخيرة : « أن نحاضر بكل اهتمام وشجاعة للقيام بمسئوليتنا كاملة . وأن نحب بعضنا بعضاً وأن نسهر بكل أمانة على الكنيسة أمام كل مقاومة . وأن نحارب كل أنانية » . وقالوا : « إنهم لا ينسون « كلفن » أباهم الروحي ، كان أباً لكل الجماعة وكان أباً لكل فرد . لقد منحه الله الفضائل السامية وحباه بتأثير قوي على الشعب مما ساعدنا على القيام بخدماتنا .. لقد كان رمزاً للأمانة والحياة المكملة ، الحياة التي لم تطلب أبداً ما لنفسها بل كانت تهتم دائماً بالآخرين . لم يطلب لنفسه مقاماً أو مالاً ، ولم يطلب شيئاً لأهله .. انه فعلاً قدوة يليق بنا أن نتمثل بها . لم تكن قيادته قيادة السلطان بل قيادة اللطف والمحبة .. !!

هذا ما كتبه أولئك الرعاة في سجلاتهم ، كان جانب كبير مما كتبوه صحيحاً تماماً ، على أن شيئاً من الانفعال العاطفي أضفى ولا شك شيئاً من المبالغة . وليس هذا غريباً على الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان ...

لكن الواقع أن المبالغة ان كانت ثمت مبالغة ، هي مبالغة أقرب إلى الحقيقة !! .. كان كلفن يستحق كل تقدير !!

الجزء الثانى



كتاب المبادئ

الحديث الأول

كتاب المبادئ

١٩٨٢/٩/٢٣

(أ) قمة الكتب التي أخرجها « كلفن » ـــ كتاب المباديء :

تركت آلة الزمان وعدت إلى مكاني فوجدت « كلفن » جالساً ينتظرني . قلت له : لقد أخذت آلة الزمان وحضرت أيام جسدك الأخيرة و .. وهنا لاحظت أنه لا يستمع لي فقطعت كلامي . يبدو أن لا علاقة بينه وبين تلك الأيام . لقد كنت أفكر أن أساله عن موت الجسد ، وهل تعرف النفس ما يحدث في أيامها الأخيرة على الأرض ، كما كنت أريد أن أسأله عن علاقته بالعالم الأرضي وهو في عالمه الجديد . يبدو أنه لا يريد الكلام في مثل هذه الموضوعات . ولذلك فكرت أن أقصر حديثي على كتابه « المباديء » . البعض يدعوه « المباديء » والبعض يدعوه « أصول الإيمان » وآخرون يدعونه « أساسيات الديانة المسيحية » . لكن الأكثرية دعته كتاب « المباديء » وهو أشهر ما كتب !!

لقد ترك بعض الألوف من العظات والنبذ كما ترك تفاسير هامة لا تزال إلى الآن مراجع أساسية لكبار العلماء والمفسرين . وقد شملت تفاسيره غالبية الأسفار المقدسة . لقد ظل يملي كتاباته إلى آخر يوم من أيامه على الأرض ، لم ينقطع عن الإملاء إلى عدة ساعات قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . وقد شغلت كتبه ومؤلفاته الأخرى بحوثاً لا تزال إلى الآن تحتل مكانها العالي . غير أن كتاب « المباديء » يقع في القمة . وأنا لم أفكر أن أناقش معه كل كتاب المباديء بل بعض العقائد الهامة فيه . وسأنتهز فرصة وجوده معي وأناقشه فيها ...

كان « كلفن » طول الوقت ينظر إليّ وكأنه يقرأ في وجهي سياحتي الفكرية . فلما انتهيت إلى قرار ، سمعته يقول : يبدو أنك عدت ، فماذا تريد أن تقول ؟

قلت : لقد تكلمت معك قبلاً كلام التاريخ وكلام الكنيسة العامة ، ولذلك ظهر كما لو أني أتكلم بشيء من القوة ، وفي بعض الأوقات شط اللسان ، وأنت احتملتني لأني كنت أتحدث باسم غيري . أما اليوم فاني أتحدث إليك حديث الطالب الذي يبغي أن يتعلم . أنا بطبيعتي لا أفهم كثيراً في العقائد . إني أهتم بالعقائد الجوهرية الأولى . أقبلها بالإيمان ، لا أدخل في فلسفة جوهرها ولا أحسن المجادلة فيها . ولكني أهتم أن أعرف ما هي العقيدة السليمة . وقد رأيت كتابك الكبير .. الجزءين الكبيرين أو الأربعة أجزاء ، ولا أريد أن أبحث فيه كله . أرغب أن أبحث بعض النقاط ، أبحثها لا مجادلا بل متعلماً .. لكن قبل أن ندخل في الدراسة الفنية أرغب أن أعود إلى ما سبق أن سألته وما سبق أن سمعته ـــ لقد سمعت قصة هروبك وذهابك إلى المانيا وأنك ذهبت إلى « بازل » كنت تنوي الاختلاء للدرس والكتابة ، ولكنك سمعت ما أثارك وألهب مشاعرك ، وجعلت تفكر في سلاح تستله ضد المضطهدين . أرجو أن تعيد لي بعض الأخبار التي سمعتها .. كما أرجو أن تذكر لي شيئاً من التفصيل عن إشارتك للملك فرنسوا .

وقال كلفن : أظن أني ذكرت لك أكثر من مرة عن ذلك ، يظهر أنك .... ولكن لا بأس أني سمعت عن المذابح المروعة التي قام بها البرلمان والملك والكنيسة . سمعت عن الذين قطعت رؤوسهم والذين شقت بطونهم والذين أجلسوا على الخوازيق والذين وضعوا في الزيت المغلي والذين أحرقوا بالنار . سمعت عن الخراب والدمار الذي لحق بالشعب المسكين الذي فتحت عينه للحق الإلهي .. ولم يكفِهم ذلك بل حاولوا أن يشوهوا سمعتهم فاتهموهم بالزندقة والمروق عن الدين والخيانة للملك والتعامل مع الأجنبي ضد الوطن..

التهبت النار في صدري . ثرت . وقفت أهز يدي كأني أنوي أن أقبض على أولئك المجرمين . ليس معي سيف . ليس معي جيش ..

لكن معي قلم لأكتب .. وبدأت أكتب ..

قلت : إذن كان هذا الباعث الأصلي لكتاب « المباديء » ؟

قال : لا أعلم تماماً ، ربما كان هذا صحيحاً ، على كل حال ، كانت عوامل كثيرة خلف هذا الكتاب . ربما كان من أوائلها ، هذه الأخبار بدليل أني وجهت كلامي أولاً للملك ربما كان من المناسب أن ترجع إلى هذه الاشارة في مقدمة « المباديء » . لكن لا بأس أن أذكر .. على قدر ما أذكر ـــ الكلمات التي كتبتها :

« يافرنسوا الجبار العظيم .. ياملك فرنسا المسيحي »

وهنا التفت كلفن إليّ ، وقال :

(أرجو أن تعلم أني لم أكن أسخر منه ، كنت أتكلم كما يتكلم المحامي أمام القاضي) . كتبت له أقول :

« ان ما قام به بعض الناس ضد كنيستنا الصغيرة (الكنيسة المصلحة) من المظالم المروعة لم يبق في كل مملكتك مكاناً لعقيدة مسيحية سليمة . فقد هوجمت كنيستنا المسكينة الصغيرة هجوماً لا يستند على قانون أو ضمير . إننا لم نهاجم كنيسة المسيح . إني أناديك لتؤدي واجبك كملك أقامك الله خادماً له لتجري الحق والعدل . إن الملك الذي لا يخدم لمجد الله ليس الملك الذي أقامه الله !

ليفحص الملك هذه الكنيسة المضطهدة . ماذا عملنا ؟ من نحن ؟ إننا لا ندعي أننا أفضل من غيرنا . لقد كنا عرايا عن الفضيلة فكسانا ببره . كنا خالين من كل صلاح نطلب أن نمتليء به هو . كنا عمياناً نلتمس أن نستنير بنوره . كنا مقعدين نرجو أن يساعدنا لنقف ونمشي . وقفنا عراة من كل مجد باطل نطلب أن ننال مجد سيدنا .. ثم وجهت الكلام متسائلاً عن خصومنا . قلت له : من هم هؤلاء الخصوم ؟ من هم ؟ هم القوم الذين لم يكن يهمهم الإيمان بالله طالما كان هذا المؤمن يقدم الولاء للبابا الأعظم ، ويقبل كل الأمور التافهة مثل تلاوة القداس والإيمان بالمطهر بصفتهما أسمى تقوى . لقد أطلقوا على تعاليمنا أنها تعاليم مستحدثة ضد تعاليم الآباء ..

يدعون أننا ابتعدنا عن تعاليم الآباء القديسين .. نحن أم هم ؟ ادّعى خصومنا أن البابا معصوم وهكذا وهكذا .... » .

وبعد ذلك بدأت أكتب عن مباديء الكنيسة ، الكنيسة الحقيقية ، الكنيسة السليمة العقيدة .. شكراً لله فأنت تلاحظ أن كتاب المباديء لم يكن أول تفكير لي ، بل أنه على ما أعتقد لم يكن في تفكيري أصلاً .. وأكثر من ذلك لم أكن أفكر في إخراج كتب تفاسير . كان اهتمامي الأساسي للوعظ .. وجاءت كتب التفسير نتيجة للوعظ .. على أن الظروف التي سبق أن ذكرتها لك دفعتني دفعاً إلى أن أكتب ما كتبت ....

نعم فكرت أن أكتب ما كتبت لكي أكشف الأمور لدى الجمهور . وأن « البروتستانت » يسيرون وفق تعاليم المسيح . ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ على أني لم أكن أفكر في أن يكون الكتاب كما هو الآن . لقد ظهرت الطبعة الأولى في ١٥٣٦ ولكن ظهرت

عدة طبعات بعد ذلك نقحت فيها وأضفت إليها ، ويمكنك ملاحظة ذلك من المقارنة بين مختلف الطبعات ــ ظهرت الطبعة الأولى ١٥٣٦ ــ والطبعة الثانية ١٥٣٩ والثالثة ١٥٤٣ . وقد ظلت هذه الطبعة مدة كبيرة . لم تظهر الطبعة الأخيرة إلا سنة ١٥٥٩ .

نشرت الطبعة الأولى كما ذكرت ١٥٣٦ وكان بها ستة فصول : الناموس ، العقيدة ، الصلاة الربانية ، الأسرار . وبعد ذلك بثلاث سنوات : أي في سنة ١٥٣٩ أخرجت الطبعة الثانية وقد أضفت بعض الأبواب على الطبعة الأولى . وظهر اهتمام أكثر باللاهوت وفي سنة ١٥٤٣ أصدرت طبعة منقحة وقد قسمت الكتاب إلى واحد وعشرين فصلاً . كما أصدرت طبعة أخرى سنة ١٥٥٠ لم يجر فيها أي تنقيح . أما الطبعة الأخيرة سنة ١٥٥٩ فقد أصدرتها في أربعة مجلدات وقد حوت ثمانين فصلاً . وهي الطبعة التي تراها اليوم !!

(ب) الطبعات المختلفة والتطور في الكتاب :

قلت : لقد لاحظت أن بعض ما كتبت في الطبعة الأولى ظل كما هو : لكن تطويراً شمل البعض الآخر !

قال : الحقيقة أن التطوير لم يلمس بعض التفصيلات أو التوضيحات !

قلت : اني بالطبع لا أقصد أن أدرس كتاب المباديء كله . كنت أرغب في ذلك ولكن وقتي لا يتسع لذلك . انني أرغب أن أمر ببعض التعاليم . ربما كان يكفي أن أقرأ الكتاب نفسه ، لكنني أرغب أن أسمع توضيحك مبسطاً بعيداً عن التعبيرات العلمية ــ كانت لي فرصة أن أتحدث إلى بعض العلماء العالميين وقد سألت بعضهم أن يشرح لي احدى النظريات العلمية كما يفهمها الشخص العادي ، وقد فعل أحدهم ذلك بمثال كما فعل الثاني بقصة . وهذا ما أرجو أنك تفعله معي . أنا شخص بسيط لم أتوغل في العلوم !!

(جـ) اللاهوت الكتابي :

أما أول سؤال أقدمه لك فهو : ماذا تقصد ، أو ربما ماذا قصد الناس بقولهم أن كتاب المباديء هو كتاب اللاهوت الكتابي ؟ هل يوجد لاهوت كتابي ولاهوت غير كتابي ؟

وقال « كلفن » (أو هذا ما فهمت أنه قاله) :

ان كل دراسة عن الكائن الأسمى أو ما يسمونه الحق الأسمى الذي يدعونه الله تعتبر

دراسة لاهوتية . وقد قدم سقراط وغيره فلسفات تتصل بالله ، ويمكنك أن تدعو هذه « دراسة لاهوتية » ـــ « الفكر اللاهوتي » ، الدراسة العلمية التي تبدأ من الله كما رآه الوثني الجاهل إلى الفيلسوف الكبير . هذه دراسة لاهوتية . وهناك غير هذا قواعد السلوك وهو ما يسمى « باللاهوت الأدبي » ، وهكذا . إن كل ما يتصل بدراسة حول الله هي دراسة لاهوتية . أما « اللاهوت الكتابي » فهو الدراسة عن الله عن طريق الكتب المقدسة وهي الدراسة التي قمت بها . ولذلك رأيتني أطور كتاب المباديء على قدر تعمقي في دراسة الكتاب . كانت هذه الدراسة تفتح ذهني للحقائق الإلهية . وأنت تلاحظ العلاقة بين ظهور الطبعات المنقحة والفراغ من شرح وتفسير بعض أسفار الكتاب المقدس . اللاهوت الكتابي هو الدراسة الكتابية ، ربما يكون الأفضل أن أقول أن الاعلان الكتابي لله ، لا في ذاته ، فإننا لا نستطيع أن نراه ، ولكننا نرى الله كما أعلن ذاته لنا-في علاقته بنا . ان كل دراسة لاهوتية غير كتابية قد تنحرف إلى أقصى اليمين أو إلى أقصى اليسار ، ولكنك في اللاهوت الكتابي تستريح إذ أن الفرق لا يصل إلى أبعاد بعيدة . قد نختلف في بعض وجهات النظر ولكننا لا يمكن أن نبتعد عن القواعد الأساسية . والذين يحاربون الاصلاح يعجزون أمامه لأنه يستند أولاً وآخراً على الكتاب !!

(د) « المباديء » وقانون الإيمان :

قلت : ها أنا أضع كتاب « المباديء » أمامي أقصد الطبعة الأخيرة منه وأقرأ الأبواب الأربعة الأساسية فيه . وهي على ما لاحظت على الأقل في ظاهرها أنها تسير مع كلمات قانون الإيمان ، الذي يدعونه قانون الإيمان النيقوي . فهل يمكن أن توضح لي سبب الدراسة بهذا الأسلوب ؟

وأجاب كلفن : أظن أن هذا أسلوب طبيعي فالدراسة اللاهوتية تبتديء بالله . وأكثر ما يشغل المسيحية في الله ، أو يلفت أنظارها فيه أكثر من أي شيء آخر هو أبوته . بالطبع نرى الله الخالق القوي ، السيد الأزلي ، الأبدي وهكذا .. وهي كمالات أساسية ، ولكن هذه يراها الوثني أو يخيل إليه أنه يراها في آلهته ولكن عن بعد سحيق . أما نحن فنرى الله أول كل شيء وقبل كل شيء ، الله الآب . من أجل هذا يبدأ كتاب المباديء : أنا أومن بالله الآب الضابط الكل ...

وبعد ذلك نرى بطبيعة الحال تجسد هذه الأبوة في تجسد الكلمة ، وتجسد المحبة ، في ابن الله ، في السيد يسوع المسيح . ولذلك كان من الطبيعي أيضاً أن يكون الكتاب الثاني : الرب يسوع المسيح !

ولا يمكننا أن نقف هنا ، لأن الاستنارة الروحية لرؤية الله في المسيح لا يمكن أن تنمو وتثبت إلا عن طريق عمل روح الله القدوس فينا إذ ذاك كان من الطبيعي كذلك أن يكون الكتاب الثالث : وأنا أومن بالروح القدس المنبثق من الآب والابن !

وهنا أيضاً نكتشف أن السيد المسيح الذي وعد بارسال المعزي ، والروح المعزي نفسه ، إذ ملأ التلاميذ ، أسس الكنيسة المسيحية التي حملت رسالة الخلاص عن طريق محبة الله في إرسال ابنه الذي مات عنا . وهكذا رأينا الكنيسة تحتل مكانها الذي وضعها الله فيه ....

ولقد حاول رجال روما أن يتهمونا بالانفصال عن الكنيسة بدعوى أننا حاربنا الكنيسة التي كان بطرس والرسل حجارة أساسها !!

وقد بيّن كتاب المباديء أن الاصلاح لم يهدم الكنيسة ، أولاً ، لأنه لا يقدر أن يهدم الكنيسة التي بناها السيد ، وثانياً : لأنه هو الحجارة الحية في بناء الكنيسة . ولئن كان أحد قد انفصل عن الكنيسة فلن يكون الاصلاح هو الذي فعل ذلك . انهم هم الذين انحرفوا عن الكيان الذي أسسه السيد المسيح نفسه !

وهذا كتاب المباديء يعلن سلامة بناء الاصلاح : الآب والابن والروح القدس ... والكنيسة التي تكرز بهذا الإيمان !

(هـ) المباديء والكتاب المقدس :

وكتاب المباديء يستند دائماً في التعاليم المكتوبة فيه على « الكتاب » . إذن ليس الاصلاح بدعة أو هرطقة كما يدعون . ان الكنيسة الاصلاح هي الكنيسة الأولى ، الكنيسة التي اجتمعت في العلية ، الكنيسة التي حل عليها الروح القدس ، الكنيسة التي خرجت تكرز بالمسيح المصلوب كفارة عن الخطية . الكنيسة التي بنيت على الرب يسوع المسيح نفسه . إنها ليست كنيسة « كلفن » كما يحاولون أن يدعوها ساخرين وليست « كنيسة لوثر » .. ولا كنيسة « بطرس » ولا كنيسة أعظم القديسين . إنني أشكر الله من أجل « لوثر » و « كلفن » ، وأشكر الله أكثر من أجل القديسين . وبالطبع أشكر الله من أجل بطرس وبولس وباقي التلاميذ . ولكني أشكر الله جداً أن الكنيسة لم تبن على أي واحد ممن ذكرتهم ، وإلا انهارت من قديم الزمان . بعد أن قال السيد لبطرس طوبى لك .. لم يلبث أن قال له : اذهب عني يا شيطان . انني لا يمكن أن أطمئن على بقاء كنيسة تبنى على بطرس أو بولس ، وبالتالي على لوثر أو كلفن . شكراً لله أن الكنيسة هي كنيسة

المسيح . وهو الصخر ، صخر الدهور ، وأساس الكنيسة . هكذا كتب « كلفن » في كتاب المباديء : « نقلاً عن كلمة الله » !!

كان « كلفن » يقول هذه الكلمة وقد خرجت الكلمات من فمه باندفاع وقوة . كان يلهث وقد ملأ العرق وجهه ، وقال : نعم ، أنا أعترف بالكنيسة ، الكنيسة الحية ، كنيسة الرب يسوع .. كنيسة الرب يسوع !

قال كلفن هذه الكلمات ، ثم ودعني بيده .. وما لبث أن اختفى ولم أعرف كيف ؟!!

الحديث الثاني

كلفن التقدمي

١٩٨٢/٩/٢٥

(أ*) كان « كلفن » في مكانه ينتظر . قلت له : لعلك لا يسوءك أن أسأل أسئلة جانبية قبل أن أدخل إلى أعماق « المباديء » .. ولم أنتظر فقلت : إنهم يتهمونك بالعصرية ينعتونك ساخرين بالطبع أنك تقدمي . ويقصدون بهذا أنك مارق عن الكنيسة القديمة والحق القديم ، وأن أفكارك الحديثة هرطقة . وأنا أرجو أن أسمع ، هل أنت تقدمي ؟ هل تركت القديم ؟ هل .. ؟

ولم ينتظر « كلفن » حتى أكمل السؤال ، وقال : بالطبع أنا تقدمي . لقد تركت ظلمة الخرافات والأساطير التي اخترعها البشر ليمتصوا بها دماء الشعب .. بالطبع تركت الأساطير والخزعبلات . تركت حياة الأحجبة والتعاويذ والتبرك بعظام القديسين وبثياب الشهداء . وأنا أحقق لك أن القديسين والشهداء أبرياء من هذه العظام وهذه الثياب . انهم يختلقون قصصاً تسخر من كل تفكير سليم والشعب يصدقها ويدفع ثمنها . ان واضعيها لا يؤمنون بها ، انهم يزعمون أنهم يملكون مفتاح الكنز . وهم يقدمونه إليّ لأغتني بينما يعيشون هم في الفقر المدقع . يقولون إنهم ممنوعون من استعمال الكنز لأنفسهم . نعم يا صديقي ، أنا تقدمي ، أنا تقدمي . لقد تركت الظلام . أنا أتحدث باللغة الحديثة وبالأسلوب الحديث ، لكنني أقدم الحق القديم ، والكتاب القديم الذي تركوه ، نعم ، الذي تركه أولئك المؤمنون . كل ما عملته أني حفرت الآبار القديمة . انها ليست آباراً جديدة إنها نفس الآبار القديمة التي طموها بالخرافات والخزعبلات والأساطير . يكفي أن تعود إلى كتاب « المباديء » لتقرأ فيه الكتاب القديم الذي يقول : « الإله القديم ملجأ والأذرع الأبدية من تحت » !!

(ب) التعاليم العقائدية وخشونة طريقها :

ترى هل يضيق صدرك يا سيدي إذا سألتك سؤالاً سألته لنفسي عدة مرات ؟ هكذا بدأت حديثي مع « القس كلفن » . ولم أتبين من ملامح وجهه ما يدل على رضاء أو عدم رضاء .. وأنا لم أنتظر أن يبين ذلك في كلامه بل أسرعت وقلت : ألم تكتشف أن كيفية معالجة التعاليم العقيدية .. أقصد أن .. أو دعني أقول أن الدفاع عن « الأرثوذكسية » وانتقاد التعاليم المنحرفة وابراز التعاليم الصحيحة والحماسة في ... في الانتقاد والـ ...

قال : بل اني أظن أن أساس التقوى هو صدق التعاليم ، أقصد التقوى الحقيقية .

قلت : اني لا أتحدث عن ذلك . فأنا أعرف أن التقوى الحقيقية تؤمن بالحقائق وكلما كانت التعاليم سليمة كانت التقوى صادقة . ولكني أسأل عن تأثير المناقشة التي قد تصل إلى المجادلة . ولنضرب مثلاً لذلك ، بدء تفكيرك في كتابة كتابك « المباديء » . لقد حدثتني على ما أذكر ، أنك عندما ذهبت إلى « بازل » في ألمانيا ، وسمعت ما أشاعه رجال الكنيسة في فرنسا ، أن « رجال الاصلاح » هم هراطقة ، يعملون على هدم الكنيسة ، أنهم خونة للكنيسة وخونة للوطن ، ورأيت في اشاعاتهم محاولاتهم أن يبرروا اضطهادهم للمصلحين ، بل تحريضهم على زيادة الاضطهاد . لما رأيت ذلك بدأت في كتابة ما كتبت . لا شك أنك أحسست بالمرارة ضد أولئك « الجهلة الأشرار » . لا شك أنك انفعلت ضدهم ورأيت فيهم شياطين ، يجب أنك تسحق ضلالاتهم . وترسب هذا في ذهنك . فرأيت في أشخاصهم شياطين يجب أن تلاشيهم . وتولدت تدريجياً في نفسك بغضة لهم . لا أقول أنك أبغضتهم من أول الأمر . لكن كثرة الجدال بدأ يقتل كل إحساس بالمحبة .. وقد جاء وقت رأيت أن تنفذ فيهم حكم القتل . لا أتكلم الآن من هذه النتيجة . لكني أتكلم من الجفاف الروحي !!

وقال كلفن : لئن كنت تقصد التقوى الإنفعالية ، فأنت صادق . ليس من الضروري أن تكون التقوى منغّمة ، مشحونة بالألفاظ الباكية . لذلك أعتقد أن التقوى الحقيقية لا تتناقص بعوامل مقاومة التعاليم الباطلة بل أني أعتقد أنها تتنقى .

قلت : هل تذكر كنيسة أفسس ؟ هل تذكر كلمات السيد لملاكها .. « أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك وأنك لا تقدر تحتمل الأشرار وقد جربت القائلين أنهم رسل وليسوا رسلاً فوجدتهم كاذبين .. لكن لي عليك أن تركت محبتك الأولى .. إن الانحدار يبدأ دون أن نشعر به . أننا نبدأ بكراهة الأعمال ولكننا ننزلق إلى كراهة الأشخاص !!

وقال كلفن : فماذا كنت تعمل إزاء الذين قاوموني ، أقصد الذين قاوموا تعليمي في « جنيف » ؟

قلت : هل تقصد في ١٩٨٢ ، أم في ١٥٣٩ ، و١٥٤٨ و١٥٥٥ و١٥٦٤ ؟ .. ومع ذلك فإن الحق الحقيقي يثبت ، هو هو كما كان وكما يكون . الا أن غيرتنا على سلامة الحق تنحرف عادة ، فإن عدو الخير لا يتركنا . ألم تر هذا في غيرة قادة الكنيسة الكاثوليكية ؟ ألم يكونوا ، أو على الأقل عدد منهم ، يفكرون في الدفاع عن الكنيسة ؟ ألم يكن بعضهم مخلصاً ؟ ولماذا أقول الكنيسة الكاثوليكية ؟ لماذا لا أقول شاول الطرسوسي ؟

وقال كلفن منفعلاً ، لذلك أسألك أنا : ماذا كنت تفعل لو أنك كنت في مكاني ؟

قلت : هل أنت ترى أنك انفعلت ، ونحن لم نختلف بشأن ضلالات تجوز أو لا تجوز . ان اختلافنا يتصل بكيفية محاربة الضلالات . أنت تسألني أنا .. ومن أنا بازاء قطب الاصلاح الذي يراه البعض أعظم من جميع المصلحين ؟ أعظم من « زونجلي » و « سافانرولا » و « هس » و « ويكلف » و « بيتر والدو » .. أعظم من « نقولا كوب » و« مارتن بوسر » ؟ بل يعتبر البعض أن « كلفن » أعظم من « مارتن لوثر » ورجال « مارتن لوثر » « ميلانكثون » وغير « ميلانكثون » . لكني أظن أني كنت أتخذ سبيلاً آخر . أجثو على ركبتي ، وأضرع إلى الله أن يفتح العيون لترى الحق . ربما كنت أختار هذا السبيل لأني أضعف من أن أقاوم الضلالات كما قاومتها أنت ، ومن قاوموها بمثل ما قاومت !!

قال « كلفن » : فهل معنى ذلك أنك تنصح بعدم إرسال البعثات الدينية ؟ هل أخطأت كنيسة أمريكا لأنها أرسلت بعثاتها في القرن التاسع عشر ، وأسست الكنيسة الإنجيلية في مصر ؟ هل أخطأت في طبع الكتاب المقدس وتوزيعه ، وتوزيع النشرات الدينية ، واقامة الندوات وتقديم التعاليم ؟

قلت : بالحقيقة لا أعلم ماذا أقول لك ولكني إذ أشاهد روح المرارة في نفوس قادة الكنيسة القديمة ، بل في نفوس الشعب ، وإذ أرى بعض آثار ذلك في نفوس أبناء الكنيسة الإنجيلية ؟ أسأل نفسي : هل هذا روح المسيحي ؟ وأسأل هل كان من المحتم تأسيس الكنيسة الإنجيلية ؟ أرجو ألا تسيء فهمي ، فأنا انجيلي ، وأبصر الآثار العملاقة للكنيسة الإنجيلية . أراها في الانارة الروحية في كل البلاد ، وجماعاتها ونواديها ومحافلها ومستشفياتها ومستوصفاتها ومؤلفاتها وعظاتها ومجلاتها ، وعشرات بل مئات مشروعاتها .. نعم أبصر كل ذلك ، ولكنى أخشى أن أسمع كلمة السيد ، ولكن لي عليك أنك تركت محبتك الأولى !!

تسألني : ماذا كنت أنا أعمل لو وجدت مكانك ؟ أقول لك : فعلاً ، أني لا أعلم . وفي نفس الوقت ، أنا .. الحقيقة من أنا حتى أنتقد أو ألوم ؟ أنا أسأل مجرد سؤال نعم مجرد سؤال ... وفي نفس الوقت ينبغي أن أجثو شاكراً الله ، من أجل العظائم التي تممها الله على يديك وعلى يد معاونيك !!

على إني في نفس الوقت أقول اني أحاول أن أكون إيجابياً . إن طرد الظلام يتم بإدخال النور . انه لا يحتاج إلى سياط لتطرده . نعم قد يقاوم النور ، وأنا لا أحاربه إلا بادخال نور أكثر . لقد نجح غاندي في « حربه » ضد المظالم بدون عنف من جانبه ... ولماذا لا أقول انك قد نجحت بكتابك الهادي كتاب « المباديء » ؟ أنا لا أوافقك في كيفية هذه الحرب المقدسة .... وها أنا أجلس عند قدميك لتعلمني من كتابك العظيم بعض الحقائق التي أحس أني في أشد الحاجة إليها .

أحاديث في كتاب المبادئ

الحديث الثالث

١ ــ قلت لكلفن : سبق في أحاديثنا أن ذكرنا أن « المباديء » ليس الكتاب الوحيد الذي كتبته، فقد كتبت كتب تفسير رائعة، لا تزال إلى الآن مراجع ذات قيمة لأحدث كتب التفاسير ، بل أن ظهورها في القرن السادس عشر لم يقلل من قيمتها بازاء كتب القرن العشرين . وقد رأيت بعيني بعضاً من كبار العلماء يعودون إليها ، ويلتهمون كنوزها . ولا تزال المكتبة المسيحية تعتز بها . وعلمت أن لك مئات العظات التي لا تزال تحفظ جدتها . إنها لم تحو إلا الحق القديم الذي يظل باستمرار حقاً جديداً وقد رأيت عدداً كبيراً من النشرات . على أن كتاب « المباديء » بين كتبك العظيمة ، يحتل الصدارة . ولذلك سأحاول أن أقرأه قراءة دقيقة جداً ، بل اني سأقوم بدراسته دراسة الباحث ، وستتطلب هذه الدراسة سنة أو سنتين ، إذا سمحت العناية أن أبقى على ظهر الأرض . على أنه إذا لم تسمح العناية بذلك ، فلن أخسر شيئاً ، لأني هناك سأعرف كما عرفت ...

ولكني أرغب أن أعرف الآن بعض ما يهمني من هذا الكتاب العظيم . وأقول لك من الأول ، كما سبق أن قلت ، أني أرجو أن تكون اجاباتك خالية من التعقيدات اللاهوتية ، فأنا بالرغم من أني درست الكثير وكتبت الكثير ، فأنا شخص عادي ، عادي جداً .. أطلب أن توضح الحقائق أمامي في أبسط صورها !!

وقال « كلفن » إن الحقائق الإلهية يفهمها أبسط الناس . ومع ذلك فسأبسّطها أكثر وسأجعلها على قدر إمكاني في متناول الريفيين ، غير المتعلمين !

قلت : حسناً .. وأشكرك !!

ثم استطردت أقول :

إن عندي عدداً من الأسئلة سبق أن سألتها . أنت تلاحظ اني لم أجلس لأرتب أبواب كتاب عادي . انه كتاب « أحاديث » . والأحاديث كما تعلم لا تتبع في العادة الأسلوب العلمي أو التنسيق الأدبي . وقد يختلط فيها النظام كما قلناه بالأمس أو أول أمس قد نكرره دون أن ندري ثم ...

ونظر إليّ « كلفن » وقال : من حسن حظك أن حديثك معي ليس مع « كلفن » عندما كان في الجسد .. لماذا نكثر من الكلام قل يا اخي وأوجز ماذا تريد أن تقول ؟

قلت : إنني أريد أن أسأل عن الهدف الأساسي للكتاب وسؤال ثان عن مصادر الكتاب ، وثمت سؤال ثالث عن استقبال الكتاب .. وإذا أمكن عن بعض النتائج الإيجابية في الكتاب و .....

وقاطعني « كلفن » لقد سألت هذه الأسئلة أو أكثرها أزيد من مرة ، وأجبت عليها أزيد من مرة ، ومع ذلك فاسمع .. وأنا أحذرك اسمع للمرة الأخيرة .

(أ) هدف الكتاب :

وأجاب كلفن : لقد سبقت فقلت إن الهدف الأصلي تبرئة رجال الاصلاح مما حاولوا أن يلصقوه بهم من تهم ولذلك جعلت كل مراجعي الكتاب المقدس وكتابات الآباء . وقد كتبت في مقدمته في ١٥٣٦ أطلب من فرنسيس ،/ ملك فرنسا . أن يعامل رجال الاصلاح بالرفق فلا يضطهدهم ، لأنهم رجال مخلصون لدينهم ومخلصون لوطنهم . ولم يستجب بالطبع لطلبي . بل أوغل في إساءاته هو وجمهرة الشعب . أصدر أمره بتأليف لجنة لتنظيم الاضطهاد . وقد كتبت الكلمات التي سبق أن وضعتها في الطبعة الأولى في الطبعة الأخيرة . ولكنهم أوغلوا في الإثم ، فتألفت لجنة تحكم على « الهراطقة » أين وجدوهم ، وبدون محاكمة . بل كان مجرد وجودهم هو نفسه تهمة . ما أكثر من حبسوا ومن جلدوا ، وما أكثر من قتلوا . وأنا كلما ذكرت مجزرة القديس « برثلو ماوس » يقشعر بدني . في ليلة واحدة ، ذبح عشرة آلاف بروتستانتي . على أن الاضطهاد أتى بعكس ما قصد المضطهدون ، ففي سنة ١٥٥٠ تأسست أول كنيسة إنجيلية منتظمة ، وفي سنة ١٥٥٥ تألف أول سنودس يضم العدد الكبير من الإنجيليين . شكراً لله !

(ب) مصادر الكتاب :

أما من أين استقيت مصادر الكتاب ، فإن أكثر ما فيه من الكتاب المقدس . وأنت تلاحظ أني كنت أسير في التفسير والوعظ ، والكتابة عن « المباديء » ، في وقت واحد . كان كل جزء يشرح الجزء الأخير . فأنت ترى أنه كتاب خالد لأنه يحوي الكتاب نفسه ، بحيث أنك إذا حاولت أن تهدمه عجزت . فان العالم كله حاول أن يهدم الكتاب ولكنه وقف عاجزاً كل العجز !!

قلت : ألا ترى أن في منطقك شيئاً من .. من من .. لا أجسر أن أقول .

قال : قلها ، قل « شيئاً من المغالطة » ؟

قلت : لا أقصد بالتأكيد هذا اللفظ . وإن كان هذا اللفظ يحوي جزءاً من المعنى ! أنت تقول أن هدم كتاب المباديء .. لا ، لا . أنت تقول إن محاولة هدم كتاب المباديء هي محاولة لهدم الكتاب المقدس . أن هذا غير صحيح ، على الأقل من وجهة نظر هؤلاء المحاولين . إنك بذلك تضع الكتاب المقدس وتفسيرك له على مستوى واحد . وقد سبق أن قلت لك إني بالرغم من أني أقبل الجانب الأكبر من وجهة نظرك ، فإني لا أقبل أن أي تفسير مهما كان دقيقاً يعلن الحق الوحيد الصحيح . لا أقبل أن أضع أي تفسير على نفس مستوى الكتاب . ينبغي أن أضع هذا التحفظ في الحساب . أنا دائماً أقول إني أعتقد أن تفسيري من وجهة نظري بالطبع هو أقرب وجهة نظر إلى الكتاب !!

ومع ذلك فلنمر بهذه النقطة ونتقدم خطوة أخرى !

(جـ) استقبال الكتاب :

قلت : فكيف استقبل هذا الكتاب من الجمهور على مختلف مستوياته ؟

١ ــ قال : أما كنيسة روما فقد اعتبرته هرطقة جديدة خصوصاً في إشارته إلى الكتاب المقدس . إذ من ذا الذي يجوز له أن يفسر الكتاب إلا الكهنة ورؤساء الكهنة . إن تعدي العامة على الكتاب هو في ذاته خطية . هل يجوز لغير الطبيب أن يتكلم في الطب ؟ أو لغير المهندس أن يناقش في الهندسة ؟ كذلك لا يجوز لغير رئيس الكنيسة أن يفسر الكتاب . ولو أننا تركنا الكتاب المقدس للشعب ، لأصبحت قواعد الدين مزعزعة والسياسة العامة للكنيسة فوضى . إن « مارتن لوثر » وأمثال « مارتن لوثر » من

« الهراطقة » أتوا الجريمة الكبرى بتحديهم للسلطة الكنسية العليا بحجة أنهم يستندون على الكتاب المقدس . مالهم هم والكتاب ؟ إن الشخص الوحيد الذي يجوز له أن يفسر الكتاب هو رئيس الكنيسة . هو وحده الذي يفسره ، وهو وحده الذي يضع قواعد الدين ، وهو وحده الذي تسلم الكنيسة من بطرس وسائر الرسل . أما هذه الكتب ، فانها ضلالات ليس لها مكان إلا الحريق ، هي وأصحابها !

فأنت ترى ياصديقي ، أن الموضوع عند هؤلاء القوم ليس المنطق ، أو العقل ، أو الكتاب . ولذلك لم يترك الكتاب أي أثر في أولئك القوم . كان أصدقائي يظنون أنه بمجرد ظهور كتاب « المباديء » ، تنهار عمد تلك الكنائس التي بنيت على الخرافات والأساطير . ولكن هذا الكتاب أشعل فيهم نيران التعصب والكراهية والحقد . كانت النتيجة في فرنسا مثلاً ، أن اتحدت السلطات الكنسية مع السلطات الحكومية ، بل اتحدت الجامعات مع هذه السلطات ، فشنوا حرباً شعواء ضد « الهراطقة » البروتستانت . وقبضت السلطات الحكومية على الوعاظ البروتستانت ، وسجنوهم بمجرد أن وطأت أقدامهم أرض البلاد . وشكلت المحاكم للحكم العاجل . بل صدرت المراسيم باعتبار البروتستانت عصاة متمردين على الوطن ، والحكم عليهم كخونة . حكم على البعض بالسجن ، والبعض الآخر بالجلد ، بينما حكم على البعض بالإحراق !!!

٢ ــ أثر الكتاب :

قلت : وهكذا ظهر أن كتاب المباديء فشل في اجتذاب البعيدين عن الكتاب بل تسبب في اضطهاد القريبين !!

قال : أعتقد أن الأفضل ألا أقول أنه فشل . نعم ، ان نتيجته الإيجابية لم تأت مباشرة ، فقد كانت نتيجة الاضطهاد عكس ما قصد المضطهدون ، إذ جعلت الكثيرين يفكرون في تلك المباديء التي يقبل تابعوها أن يموتوا في سبيلها وكما حدث مع المسيحية إذ نمت وازدهرت في أوقات الاضطهاد ، حدث أيضاً مع البروتستانتية . فقد أقبل إلى كنيستنا أعداد غفيرة اجتذبتهم نيران الاضطهاد ، وتأسست كما سبق أن قلت لك ، في فرنسا ، كنائس ، وكذلك في غيرها من البلاد .

٣ ــ نتائج إيجابية :

قلت : لكن ألم تكن هناك نتائج إيجابية ؟ ألم يوجد من تأثر من الكتاب فقبل الحقائق التي دونتها فيه ؟

قال : بلى ، لقد تأثر البعض وإن لم يكونوا كثيرين .. وكذلك كان الكتاب بركة للإنجيليين ، فقد ساعد على تثبيت إيمانهم وتمكنهم من الحقائق الإلهية . والكتاب لا يزال مرجعاً هاماً للكنائس المشيخية من جهة النظام والإيمان ، بل تقريباً في كل الكنائس الإنجيلية لايزال مرجعاً أساسياً . شكراً لله .. !

قلت : أعتقد أن سؤالي لم يكن له من داع . لا أعلم لماذا قدمته ؟ إذ يكفي أن أجد الكتاب يحتل مكانه في كل بلاد العالم .. وها هو اليوم ، وبعد أكثر من أربعمائة سنة من ظهوره ، يحتل مكاناً بارزاً في المكتبة المسيحية ، لا باعتباره كتاباً قديماً عفا عليه الزمن ، بل كتاباً يتطلبه العصر الحاضر أيضاً .. ألا يكفي أن العالم كله لا يزال إلى الآن يجلس إليه ليناقش القضايا التي قدمها ؟ وها أنا أجلس إليه لأغترف من منهله العذب ما يقويني ويثبت إيماني ؟

وتبسم كلفن وقال : لا بأس ، لا بأس . إنها ليست أولى أخطائك . ولن تكون الأخيرة . أعتقد أنك تحتاج إلى فترة راحة ، فلنؤجل حديثنا إلى الغد . قال هذا وانصرف وهو يلوح لي بيده !

(د) المسكونية بالنسبة « للمباديء » :

١٩٨٢/٩/٢٩

ها نحن مرة أخرى مع كتاب « المباديء » . أحب قبل أن أدخل فيه أن أسألك ياصديقي ، وأرجو ألا يسوءك أن أتمسح في صداقتك ، أرجو أن أسألك عن علاقة الكتاب بالكنيسة العامة . فقد فهمت أن الكتاب ينادي بالمشيخية ، أي أن كل كنيسة أخرى لا علاقة لها به . ترى هل يصلح هذا الكتاب للعصر الحاضر الذي ينادي بالمسكونية ؟

وقال كلفن : لقد سبق أن سمعت مني أني سعيت يوماً ما في الكرازة بالمسكونية . إن كتابي لا يحارب المسكونية . أنك تجد فيه جزئين : الإيمان والنظام . أما الإيمان فأعتقد أن كل الكنائس يجب أن تتفق فيه . لقد ناديت بالإيمان بالثالوث الأقدس ، بالآب والابن والروح القدس ، ثلاثة أقانيم وإله واحد . ناديت بلاهوت المسيح ابن الله ، الله الذي صار جسداً ، ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب ، المسيح الذي ولد من العذراء مريم بدون زرع بشر . المسيح الذي عاش بين الناس إنساناً ، وصلب على الصليب كفارة عنا ،

ومات لأجل خطايانا ، وقام لأجل تبريرنا .. هل توجد كنيسة لا تؤمن بذلك ؟

وناديت بالروح القدس المنبثق من الآب ، أو من الآب والابن . لا يجوز جعل هذا الانبثاق موضوع خلاف ، المهم الروح القدس ، الأقنوم الثالث في اللاهوت ، المعزي والمبكت والمرشد والهادي . هل يوجد أحد لا يؤمن به ؟

وقد ناديت بالكنيسة التي بناها السيد نفسه على صخر الإيمان لتكون شاهدة لمحبة الله وبانية لنفوس المؤمنين . هل يوجد أحد يختلف في هذا ؟

قلت : كلا ، كلا . لا خلاف ، لكن ...

وقال كلفن : لكن ماذا ؟

قلت : لكن هناك بعض الخلافات في بعض تفاصيل الإيمان . لا أقصد نفس الإيمان ، فقد اختلف القوم مدة طويلة في ....

قال كلفن : بالطبع أنت لا تريد أن تتحدث عن لاهوت المسيح الأزلي ، ولا عن ناسوته . لا تريد أن تتحدث عن شيء من مثل ذلك ؟

قلت : لا . لا . أنا أتحدث عن الذين يؤمنون الإيمان الأرثوذكسي ، ولكنهم يختلفون في وقت الخلاص ، هل يتم قبل الأعمال أم بعد الأعمال . والفرائض ، هل هي أسرار أم فرائض . وهل لها قوة في ذاتها ، أم أن القوة تأتي عن طريقها ، أم لا قوة لها إطلاقاً . وهل هي اثنتان أم سبع فرائض ؟

قاطعني كلفن وقال : أعتقد أن البحث في هذه الموضوعات ليس وقته الآن . ستكون لنا الفرصة الكافية عندما نصل إلى « الكنيسة » . وفي الكتاب باب كامل عن الكنيسة !

قلت : أنا أعلم ذلك . وأنا لا أقصد الدخول في هذه الدراسة . أنا أسأل عن المسكونية . هل يمكن أن تتم مع هذا الخلاف في .. في العقائد ؟ بالطبع أنا أعلم أنه يمكن أن تتم المسكونية ولو اختلف النظام !!

وقال كلفن : ان أقل خلاف في النظام أو في العقيدة قد يعطل المسكونية . إن الأمر الهام في المسكونية هو حسن النية مع التمسك بالكتاب . إن حسن النية وحده بالطبع لا يكفي .. ودعني أقول لك إني فشلت في المسكونية مع الكاثوليك ، ولم أنجح كثيراً مع البروتستانت . لكني أعتقد أنها قد تنجح إذا حاولتم مخلصين ، على شرط ألا تكون

التضحية لمبادىء أساسية . ولا مانع عندي أن نجلس جلسة لدراسة المسكونية بين مختلف الكنائس المختلفة المذاهب ، بعد أن نفرغ من دراسة أهم ما تبحث عنه في كتاب المبادىء ، بل أني أعتقد أن هذه الجلسة يمكن أن تتم أثناء أو بعد الفراغ من دراسة أساسيات الكنيسة في كتاب المبادىء !

قال كلفن هذه الكلمات ، والتفت إليّ يسأل ما إذا كنت مستعداً للبدء في دراسة « المبادىء » . أشرت أني على أتم الاستعداد ، وأخرجت من حقيبتي كراسة كانت تحوي عدداً عديداً من أسئلة هامة ، سبق أن أعددتها لهذا الموقف الخطير ...

وحتى نسير بنظام نلقي نظرة عامة على الكتاب فنرى أنه ينقسم إلى أربعة أبواب :

الباب الأول نرفع فيه عيوننا إلى الله .

الباب الثاني ... المسـيح .

الباب الثالث .. الروح القدس .

الباب الرابع .. الكنيسـة .

وستكون أقسام صغيرة وتفصيلات تحت كل باب .

والآن فلنبدأ دراستنا :

الحديث الرابع

استيضاحات خاصة بالباب الأول

من كتاب المباديء

(١) الإعلان :

عندما اطلعت على كتاب المباديء ، لاحظت أنك تنبر أشد تنبير على حتمية الإعلان (REVELATION) ، فهل تقصد أننا لا يمكن أن نعرف الله بعيداً عن ذلك ؟ بل أني أسأل ، ما هو مصير من لم يصل إليهم الإعلان ؟ وماذا يكون موقفهم بازاء الله المحب ، الذي أعلن سيدنا أنه محبة ؟ وقال بصريح اللفظ : « هكذا أحب الله العالم ... » .

وأجاب كلفن : لست أنا الذي يجيب عن هذا السؤال . لقد أجاب هو عن ذلك . انه لم يترك نفسه بلا شاهد . إن « أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته ، حتى أنهم بلا عذر » !! لقد أعلن الله نفسه في الطبيعة وجاء إلى أجهل إنسان ، ورآه . ولكن الإنسان لجهله وشره لم يفتح قلبه ، بل أطاع شهواته ، وصور شهواته آلهة . وأنت ترى ذلك ، ليس في الطبقة الجاهلة فقط ، بل في كل الطبقات حتى بين من ندعوهم فلاسفة . ألم ترهم يصورون غرائزهم وطبائعهم المنحطة آلهة ؟ فمن هو « مارس » (إله الحرب) ؟ ومن هي « فينيس » و « أرطاميس » و « باكوس » (آلهة الجمال والشهوات والخمر) ومن هو بوسيدون (إله البحر ؟) ومن هو « زفس » و « هرمز » وبقية من دعوهم آلهة ؟ لقد أظهر الله ذاته في الطبيعة ولكنهم جمحوا بأفكارهم ، « وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء . وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى والطيور والدواب والزحافات . لذلك أسلمهم الله أيضاً في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم ، الذين استبدلوا حق الله بالكذب ، واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذي هو مبارك إلى الأبد » (رو ١:٢٥) .

وهكذا رأيت أن القوم لم يسلكوا بحسب الإعلان الذي ظهر لهم . وقد تركهم الله ليسيروا في طريقهم ، إن الله لم يحرمهم من إعلان محبته في ما أعطاهم من خير في الطبيعة ، ولكنهم ساروا خلف شهواتهم ، إنهم لا يمكن إن يقولوا أن الله تركهم بلا شاهد .

وأنا ، وقد رأيت الإعلان ، دعني أقول ، الإعلان الناقص ، شكرت الله من أجل اعلان الله الكامل . إن أقصى معرفة أن تعرف الله .. ثم تعرف الإنسان . وقد عرفنا الله جزئياً في الطبيعة .. ولكننا عرفناه معرفة واضحة في الكلمة الإلهية !!

الحديث الخامس

استيضاحات خاصة بالباب الثاني

الله الفادي

١٩٨٢/٩/٣٠

(١) عدت إلى المكان المحبوب أنتظر إجابة النداء الذي أطلقته خلف الصديق المحبوب . وجاء بعد شيء من الانتظار . ألقي نظرة استفهام . قلت : عندما تركتك ، ألم أكن أدري أنك قد فرغت من الحديث عن الله الآب !

كنت أعتقد أننا سنستكمل الحديث . ولكني عدت إلى أوراقي ، وعلمت أننا سنتحدث عن الله الابن . وقد شغلني هذا الأمر كثيراً . نعم ، إن الله الكلي العظمة ، الله السيد ، الله ملك الملوك ، الله الخالق ، الله المغني ، الله المدبر لكل الأشياء ، الله المهتم بكل الخلائق . هذا شيء عظيم . ولكن ألم تنس شيئاً هاماً ؟ انني أسمع حولي من يقولون : إن الله عادل وقدوس وطاهر . وهو قد قبض على الإنسان الخاطيء ، وقصد أن يقتله وإذا بالابن جاء بين الله والإنسان ، وسلم نفسه ليموت بدلاً عنه . أعتقد لا داعي لأن أقول « قد » أو « غير قد » ، بل أنا أسأل : هل توافق على هذا التصوير ؟ ألست ترى فيه صورة مشوهة للإله العظيم ، أو دعني : أقول صورة ناقصة ؟

وقال « كلفن » : أعتقد أن لك شيئاً من الحق . على أنني ظننت أني أستكمل الصورة عندما نتحدث عن الله الابن . أنت تذكر أني قلت لك أنه مع أن كل أقنوم مستقل في ذاته ، إلا أن كل أقنوم يعمل مع الأقنوم الآخر . فالله الابن كان يعمل في الخلق مع الله الآب بالروح القدس . على أنه فعلاً كان ينبغي أن أذكر ما ظننت أنت أني نسيته . الآب المحب « لأنه هكذا أحب الآب » . العالم حتى بذل « ابنه » . إن عملية الفداء كانت عملية « الله » . وأنت تذكر أني قلت إننا عندما نقول « الله » فإننا نقصد الله المثلث الأقانيم !!

وبعد ، أظن أن هذه الإشارة تكفي لإزالة ما عسى أن يكون قد علق بأذهان البعض من

أن عملية الفداء هي عملية الابن وحده ، إذ أنها عملية « الله » الثالوث الأقدس .

قلت : معنى هذا أن الإعلان ليس واضحاً تمام الوضوح في الطبيعة !

قال : هذا صحيح ولكنه يكفي ليدفع المرء إلى البحث عن إله . إذ أنه من المؤكد أنه لا يجد كفايته في الطبيعة ، يتلفت هنا وهناك باحثاً عن ذاك الذي يوجد خلف الطبيعة . هؤلاء سيجدونه ولا شك . ألم تسمع عن ذلك الروماني الذي قام بصيامات وصلوات وصدقات وهو يشعر بجوع إلى ذلك الكائن الأعلى ، كيف استجاب الله وأرسل له ملاكاً يرشده إلى « بطرس » ليقدم له الكلمة !

قلت : معنى ذلك أن الإعلان في الطبيعة لا يصل بنا إلى الهدف المنشود إذا وقفنا عنده ؟

قال : هذا صحيح ، وانما الإعلان في الطبيعة يدفعنا إلى البحث عن الإله في الكلمة الإلهية . الكتاب المقدس . الذي يقودنا إلى أكمل إعلان ، إلى الرب يسوع المسيح !!

قلت : هلا ألقيت قليلاً من الضوء على هذه النقطة مما سجلته في كتابك ؟

قال : لم تكن لدي مشكلة فيما يختص بلاهوت الآب ككائن أو أقنوم في جوهر الله . لم أشعر أني في حاجة أن أدافع عن هذه النقطة . إن جميع من يؤمنون بالله يؤمنون بلاهوته . غير المسيحيين يؤمنون بلاهوت الله . وقفت الصعوبة أمامي في لاهوت الابن ولاهوت الروح القدس . أقول ذلك ، ليس بالنسبة لي ، فقد آمنت من الأول بلاهوت الابن والروح القدس . لكني عندما بدأت أكتب ، أحسست بالمشكلة . ليس من السهل أن أرى إنساناً يأكل ويشرب وينام ويقوم ويجوع ويعطش ويمشي بين الناس ويصوم ويصلي ، وأقول : هذا إله . لذلك وضعت نفسي أمام الله وطلبت إرشاده . أغمضت عيني وقلت : تحدث يارب . وتحدث الله في الكتاب !

« في البدء كان الكلمة » .. أليس الكلمة هو الحكمة الأزلي الأبدي ؟ « والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » . « هذا كان في البدء عند الله » . « والكلمة صار جسداً وحل بيننا » . وها هو الكتاب يشهد عن أعمال المسيح . فقد شارك الآب في عملية الخلق ، لأن « كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » . وهذه المعجزات والآيات ... وغفران الخطايا ونوال البركات وباسمه ندخل إلى مقدس الآب . عندما جلست أمام المسيح ، رأيت الله وسمعت الله وقبلت الله ونلت الحياة !!

والروح القدس ؟ ألم يشهد الكتاب أن روح الله كان من البدء يرف على وجه الغمر . كان يعمل في الخليقة مع الآب والابن . والكتاب المقدس مليء بالأقوال الإلهية التي تعلن الحقيقة . إن الروح القدس يعلن في كلمات الكتاب عن لاهوت الروح القدس ، بل هو الذي ينير قلوبنا لنؤمن بالآب والابن أيضاً !!

لذلك نحن نؤمن إيماناً جازماً بالثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس الإله الواحد .

قلت : إنك تستطيع أن تعرف الله مؤلف « سفر الطبيعة » لأن الطبيعة تتحدث بذلك بكل وضوح . لا تحتاج إلى من يخبرك أن الله هو المؤلف . بل أن البعض بسبب هذا الوضوح أخذوا الطبيعة على أنها هي نفس الله . أما كلمة الله فكيف عرفت أن الله صاحبها ؟

وقال : أن الأمر مع الكلمة هو نفسه كما كان مع الطبيعة . إن الكلمة تحدثني بكل وضوح : الله هو الأول والآخر فيها . إن أثار الكلمة في حياتي تبرز بكل قوة اسمه . ولولا ذلك ما سمعت للكلمة !!

« الكلمة » تحدثني عن الله حتى ليخيل إليّ في بعض الأوقات أنها هي الله . إنني أغمض عيني في بعض الأوقات ، أقول تكلم يارب !

قلت : وهل تكشف لك « الكلمة » عن ذات الله ؟

قال : إن ذات الله أعظم من أن يكشفها كلام . هل كان ذهني القاصر يستطيع أن يحيط بهذه الذات غير المحدودة . إن الكلمة تكشف لي عن الله بالنسبة لي !

نعم ، فإن الكتاب المقدس لا يعلن لنا الله كما هو في ذاته ، بل كما هو من نحونا ، لا أحد يستطيع أن يعرف الله كما هو في ذاته ، ولكننا نعرف كما هو لنا ومن أجلنا . نراه في تصرفاته معنا . والكتاب المقدس يخبرنا كل ذلك . والكتاب المقدس هو الذي أخبرنا عن الثالوث !!

أسرعت ، وأنا أقول ، ما هو الثالوث ؟ وما هي الأقانيم الثلاثة ؟ وما معنى الأقانيم ؟ وهل تجد في الكتاب ما يوضح لنا معنى الأقنوم ؟ والعلاقة بين الأقانيم ؟

قال : أني تعلمت كما ما تعلمت عن الله من الكتاب المقدس . وتعلمت أيضاً عن الله المثلث الأقانيم . لقد وقفت أمام كلمة « أقنوم » أسأل عن معناها ، وأقول لك الحق أني لم

أجد لها « كلمة » في لغتنا . أعتقد أن كلمة « كائن » أقرب الكلمات لها !

قلت : وهل وجدت في الكتاب المقدس كل الوثائق التي بنيت عليها التعاليم عن الله وما يحيط بالثالوث من مختلف الأسئلة المتعلقة بعلاقة كل أقنوم بالآخر وبوحدانية الله في الثالوث .. و .. من مختلف الأسئلة التي يسألها الناس عادة !!

وأجاب كلفن : لقد وجدت في الكتاب تقريباً كل ما يوضح لي كل مغلق . غير أن أشياء قليلة تتصل بتدبير الله للأحداث كان من اللازم أن أقبلها بالإيمان ، وهو إيمان مبني أيضاً على اعلانات واضحة عن الله وعنايته !

قلت : دعني قبل أن ندخل في تفاصيل أعمال الله وعنايته أسأل : هل حوى كتابك أشياء لا يؤمن بها المسيحيون في كنيسة روما أيضاً ؟

وأجاب : إنهم فعلاً يؤمنون على الأقل بأفواههم !!

قلت : إذن ، لماذا أسهبت في هذا التعليم وأبرزته كما لو كان تعليماً جديداً ؟

قال : لأن كنيسة روما كانت تبرز الكنيسة . وإذا قلت الكنيسة ، فانما أقصد رؤساء الكهنة ، وما ينبغي للشعب نحو هذا الكاهن ، وكانت تعلّم عن القّديسين والشهداء .. والعذراء المباركة . وأنا لا أقلل من قيمة القديسين والشهداء .. وبالطبع لا يمكن أن أنتقص من قدر العذراء المطوبة من جميع الأجيال . ولكني أردت أن نأتي جميعنا إلى الله الآب الخالق المعتني المحب ، وإلى الله الابن الذي بذل حياته من أجلنا ، وإلى الله الروح القدس الذي قدمنا إلى الابن والآب . الله الأول والأخر ياصديقي . هذا كتابي الذي حوى أهم موضوع يحتاج إليه العالم « الله » . « الله قبل كل شيء » . « الله الأول والآخر » . « الله الأزلي الأبدي » .

وكذلك حوى « كتابي » بناء تعاليم الكنيسة على المصدر الوثيق ، على الكتاب المقدس . الكتاب الذي أخفته روما تحت أكوام الأساطير والخزعبلات ...

وهكذا استيقظ الناس وجعلوا يتطلعون نحو الله ويمسكون بجمع أيديهم كنز الكنوز « الكتاب المقدس » يغترفون من كنوزه ما يغنيهم بعد فقر وما يشبعهم بعد جوع ، وما يحّكمهم بعد جهل ، وما يهديهم بعد ضلال . نعم ياصديقي وجه « كتابي » النظر نحو الله — إله كل شيء .. وكذلك قدم لهم كتاب الكتب : الكتاب المقدس ، الكتاب الذي كتبه الله نفسه والذي هدانا إلى الله !!

ـــ الله الثالوث الأقدس الإله الواحد :

١٩٨٢/٩/٣٠

قلت : أرجو أن تقدمني إلى الله . لا أقول تقدم الله لي . أرجو أن أراه كما رأيته أنت . أرجو أن أرى الله الآب والله الابن والله الروح القدس ، الله الوحد . أرجو أن أرى لا أقصد « بعيني حسي » .. بل في الحقيقة لا أعرف أن أقول بأي عينين ، المهم أني أرغب أن أرى كما رأيت ، « الله الخالق » « الله الفادي » « الله المقدس » « الله المعتني » أريد أن أراه .

وقال كلفن : إنك ستراه في الكتاب وستراه بالإيمان !

قلت : الأمر الهام . أني أرجو أن أراه كما رأيته أنت .. وكما سجلت عنه في كتابك « المباديء » !

قال : إنني في الحقيقة لا أعرف أن أقود حسك أو ذهنك إلى الله . ربما أستطيع أن أقود ذهنك إلى رؤية الله ، على الأقل كما رآه العالم الوثني ، في الطبيعة . لقد رأوا السموات والأرض ، وقالوا : لابد لهذه من صانع . ولكنهم أساءوا التصرف فصوروا هذا الإله بأذهانهم القاصرة ، في الصور التي تحدثنا عنها ، نزلوا إلى الوحل . أما نحن فنعود إلى كلمة الله ، وهو يخبرنا أن الله نور ، الله قدوس ، الله طاهر ، الله رحوم ، الله محسن . وبالطبع لم تستطع هذه الصور أن تعطينا صورة كاملة لله وقد كشف لي الكتاب المقدس أن الله محبة وحتى يقدم لي صورة أستطيع أن أراها ، تجسدت المحبة إنساناً . وهكذا رأيت الله إنساناً ... وقد جمع هذا الإنسان ، على خلاف كل إنسان آخر ، كل كمالات الله !!

قلت : لقد سهى عليّ أن أسألك أن تشرح لي معنى كلمة « إله » . ما هو معنى كلمة إله ؟

قال كلفن : وهل أستطيع أن أقدم لك المعنى ؟ ألم أقل من البداية أننا لا يمكن أن نعرف الله في ذاته ؟ سنعرفه في تصرفاته معنا فقط . نرى المخلوقات ، فنقول الله الخالق . نرى تدابير العناية ، فنقول إله العناية . نرى الشمس والقمر والنجوم فنقول مسيّر الأكوان ... هذا كل ما استطعت أن أعرفه عن الله . وهذا أقصى ما وصلت إليه بذهني . وإذ ذاك ، ربما بعد ذلك كتبت عن السيد القدوس . وأنا أقول لك : كل ما خطر ببالك ، فالله خلاف ذلك !!

قلت : إذن لا تستطيع أن تشرح لي معنى كلمة لاهوت . يبدو أنك لم تتعرض للكلمة في كتابك العظيم ؟

قال : إنك تجابهني بكلمات لم أفكر فيها ساعة أن كتبت كتابي . إني أخذت الكلمة بدون فهم ذهني ، أقصد بدون إحاطة ذهنية . الله سيد الأكوان . وهو روح أزلي أبدي غير متغير ، كليّ الحضور (حاضر في كل مكان) ، كليّ القداسة ، كليّ القدرة ، كلي الكمالات . وبعد ذلك أقول لك : إن هذه الكلمات ناقصة كل النقص في تفسيرها لكلمة الله أو لكلمة إله !!

لذلك قبلت بالإيمان أن الله هو الكائن الأسمى القدوس الطاهر الكلي الكمالات . هكذا ذكر الكتاب المقدس . ويدهشك أن تعلم أن كلمات الكتاب كانت ذات سلطان على نفسي . عندما جلست إلى الكتاب وصلت كلماته لا إلى أذني فقط ولا إلى ذهني فقط ، ولكنها اخترقت قلبي . كيف حدث ذلك ؟ لا أعلم . وصلت الكلمات إلى قلبي فجثوت على الأرض وقلت : ربي وإلهي !!

قلت : حسناً حسناً .. ولكنك تقول إن الله واحد ، ولكنه أيضاً ثلاثة أقانيم . إنك لا تقول ثلاثة آلهة . ولا تقول بالطبع ثلاثة كائنات يكمل أحدهما الآخر ، وإذ ذاك يصير الثلاثة إلهاً واحداً !!؟

قال : كلا كلا . إني أقول ثلاثة أقانيم : الله الآب ، الله الابن ، إله الروح القدس . الآب إله ، والابن إله ، والروح القدس إله . ثلاثة أقانيم ولكنه الله الواحد !!

قلت : ألا ترى ما في قولك هذا من غرابة ؟

قال : وهل الغرابة قائمة في أن الله ثلاثة أقانيم فقط ؟ هل استطعت أن تدرك كل شيء عن الله ، ولم يبق غير مفهوم لذهنك إلا موضوع الأقانيم ؟ أليس كل ما يحيط بالله فوق كل عقل ؟ هل تستطيع أن تدرك ذاتية الله ؟ هل تستطيع أن تدرك أزليته ؟ هل يستطيع ذهنك أن يفهم أنه لم يوجد زمن لم يكن فيه الله ؟ هل تستطيع أن تفهم كيف خلق الله الأكوان ؟ هل تستطيع أن تفهم كيف يوجد الله في كل مكان ؟ بل ، هل تستطيع أن تفسر لي معنى الله واحد ؟ ياصديقي ، إن آخر ما يستطيع العقل أن يفهمه أن الله هو فوق العقل . ولو استطعنا أن ندركه ، ما كان إلهاً .. !!

ــ العلاقة بين الأقانيم :

قلت : إني أقبل كل ما تقوله ، بل سبق أن قبلته فقط بالإيمان . إنها حقائق فوق العقل . ومن هو الإنسان حتى يطلب أنْ يرى الله . وقد آمنت أن الله واحد مثلث الأقانيم ، وآمنت أن كل أقنوم إله ، لا أقول إن الأقانيم مجتمعة تكوّن إلهاً واحداً ، بل أن كل أقنوم إله ، ومع ذلك فإن الأقانيم لا تكوّن ثلاثة آلهة ، بل الثلاثة أقانيم إله واحد . إنه أمر لا يسير مع المنطق البشري ولا عجب ، فانه الله العجيب . على أني هنا أسأل عن العلاقة بين الأقانيم ؟

وقال كلفن : إنك لست أول من أشار إلى معجزات اللاهوت ، وأنا أسمّي الأمر معجزة . إن كثيرين من العلماء تعثروا . لا أذكر « أريوس » في القديم ، لكن أذكر « سرفيتوس » الذي نادى بعدم أزلية الابن ، قائلاً إن هذا يقرّب المسافة بيننا وبين الأتراك .. إن لاهوت الابن كان عثرة للكثيرين من لاهوت الروح القدس ، خصوصاً وأن الكثيرين لا ينظرون إلى الروح القدس بصفته أقنوماً . على أن سؤالك عن علاقة الأقانيم بعضها ببعض يشكل موضوعاً من أعقد المواضيع للذهن البشري !

أعود إلى الكتاب ، أجده يعلن أنه إله في ثلاثة أقانيم ، كل أقنوم له كيانه المستقل . قد رأيت ذلك واضحاً عند معمودية المسيح . فقد جاء صوت من السماء : هذا هو ابني الحبيب . هنا نرى الآب والابن ونرى الروح يحل في صورة حمامة على الابن . ثلاثة أقانيم مجتمعة . هناك جماعة « الموحدين » الذين يقولون الله واحد ظهز كالآب فترة ، وظهر كالابن فترة أخرى ، وظهر كالروح القدس فترة ثالثة . أما نحن فلا نقول كما يقولون ، لأن الكتاب يعلن غير ذلك . إننا نرى ثلاثة أقانيم كل أقنوم له كيانه الخاص . إن نظرية « الموحدين » تجعل القضية سهلة ، ولكننا لا نطلب السهولة بل نبتغي الحقيقة . ونظرية « الأريوسيين » ونظرية « شهود يهوه » عن أن المسيح إنسان كامل وليس إلهاً يجعل القضية بلا مشاكل . ولكن ذلك لا يتفق مع قضية الفداء وقصد الله الأزلي . كلا . كلا . لتكن قضية اللاهوت معقدة كيفما كانت فإننا نؤمن بالثالوث ، ليس فقط لأن هذا إعلان الكتاب ، لكن لأن القصد الأزلي وقضية الفداء ، كل هذا متعلق بالله الواحد ، الثالوث الأقدس !!

إننا عندما نقول الله فان المقصود الله الثالوث الأقدس ، الآب والابن والروح القدس

لكن عندما نقول « الآب » أو « الابن » أو « الروح القدس » فإننا نعني أقنوماً بعينه وليس كل جوهر الله !!

على أن هذا لا يعني اختلافاً بين أقنوم وأقنوم . إن كل أقنوم يعمل مع الأقنومين في شركة كاملة . صحيح أنه إلى الآب ينسب بداية النشاط ومصدر كل الأشياء وفيه يقوم كل شيء . وإلى الابن تنسب الحكمة والمشورة في هذا النشاط . وصحيح أيضاً الخلق ينسب إلى الآب ، والفداء إلى الابن ، والتقديس إلى الروح القدس . ولكن ليس معنى هذا أن كل أقنوم يعمل منفصلاً عن الأقنوم الآخر . فالابن هو الله الواحد مع الآب لأنه يشترك مع الآب في الروح الواحد . والروح ليس منفصلاً عن الآب أو مختلفاً عن الابن ، لأنه روح الآب والابن . فاسم الله يعني جوهراً واحداً بسيطاً فيه ثلاثة أقانيم . هذه صورة تبدو غامضة أمام الذهن الترابي ، ولكنها واضحة وجلية في الكتاب المقدس !!

١٩٨٢/٩/٣٠

ـــ الله الخالق المعتني :

إن وقوفنا أمام الثالوث الأقدس قد أثار في نفسي ياصديقي رهبة . هكذا قلت « لكلفن » ، حالما رأيته هذا المساء . لا أزال إلى الآن أرتجف . أحسست أني أقف على أرض مهتزة . أشعر كأن الجبال حولي تضطرب . قلت كما قال يعقوب في القديم « ما أرهب هذا المكان » . الله مخوف ومهوب . لكنك قدمته أيضاً ....

وقاطعني « كلفن » وقال : نعم ، إنك تمتلىء بالرهبة وأنت تقف أمام الله الثالوث الأقدس . ولكني أمسك بيدك لتقف أمام الله الخالق ، فتحس بكمال الثقة والاطمئنان ـــ خلق الله السموات والأرض . وجعلها في يده وتحت سلطانه . نحن أولاده . هو الذي صنعنا وهو الذي يتعهدنا بالعناية والرعاية . إن الله أبونا ، الله الذي يهتم بالغربان وباقي الطيور . الله الذي يطعم الحيوانات والوحوش . الله الذي يكسو الأزهار جمالاً . هذا الإله الذي يعتني بكل الخلائق هو أبونا ، يعلم ما نحتاج إليه ، ويوفر لنا كل شيء من قبل أن نطلب . وعندما نطرق بابه ، يستقبلنا باذرع مفتوحة ، ويمنحنا كل شيء بغنى !

قلت : هل تقصد أن الإله العظيم يولي الإنسان اهتماماً . هل تقصد ان الإله الذي يدير الأكوان ، الأكوان المؤلفة من ملايين المجرات والنجوم والكواكب . والذي يدير أمور ملايين المخلوقات ، هل تقول انه يهتم بنا أفراداً ؟

قال كلفن : لم أكن أعلم وقت أن كتبت كتابي أن الأكوان عظيمة بقدر ما علمت اليوم ، ولكن الأكوان برغم ذلك كانت عظيم بالكفاية ، ومع ذلك فقد آمنت أن الله لا يرى من السماء كل ما يجري على الأرض فحسب ، بل هو المهيمن على كل الأحداث ... أقول « كل » بكل ما تعنيه كلمة « كل » من معنى . إنه المهيمن على دبيب النملة ، كما على حركة الشمس . أنه أبونا الذي يسخّر كل شيء في سبيل أولاده . لا يوجد شيء اسمه صدفة أو حظ . كل شيء مرتب بحكمة فائقة . احمدوا الرب لأنه صالح ولأن رحمته إلى الأبد . إن عينه علينا ونحن نسير على الأرض كما ونحن نسبح في الماء !

قلت : كما ونحن في الهواء ؟

قال : نعم . نعم ، مع أني لم أكتب ذلك ، ولكنك إذا قرأت كتابي بتدقيق فستجد أني قلت كلمة « كل » ... إن الله يخطط لعنايته بتدقيق ، ويرسم خيوط مدققة بحكمته الفائقة ، لذلك نسير في دروب الحياة مطمئنين تمام الاطمئنان !!

واستمر كلفن يقول : على أن عناية الله لا تعني عدم مسئوليتنا . نعم إنه كثيراً ما يحول أخطاءنا إلى خير ، ولكنه ينتظر أن نقوم بالواجب علينا !!

عندما يقول : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ... ولأجسادكم بما تلبسون عندما يقول الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس .. عندما يقول أبوكم يعلم . لا يقصد أن نهمل الواجب علينا فلا نزرع ولا نحصد .. ولا نذهب إلى الطبيب ولا نستعمل الدواء .. ولا يقصد أننا لا نستعمل وسائط الوقاية وهكذا . إنه لا يقصد ذلك . إن عنايته لا تعفينا من المسئولية . ينبغي أن نقوم بكل ما نستطيعه واثقين أنه هو المعتني والمدبر والمحافظ والمبارك .. سواء بواسطة أو بغير واسطة !!

الحديث السادس

خطأ آخر

أول أكتوبر ١٩٨٢

وقال « كلفن » : وثمة خطأ آخر وقع فيه كثيرون ، وبعضهم من كبار الأقطاب ، مثل « مارتن لوثر » و « أنا » ، قبل أن أقرأ كتابات « مارتن بوسر » وهذا الخطأ هو القول بأن المسيح هو رسول العهد الجديد . الحقيقة أنه لا يوجد عهدان بل عهد واحد ، لأن المسيح هو مسيح ... ماذا أقول ؟ هو مسيح العهد القديم أيضاً ــ أقول العهد القديم تجاوزاً . فقد افتدينا لا بفضة ولا بذهب بل بدم كريم دم المسيح « معروفاً سابقاً قبل إنشاء العالم » . ألست ترى أن الفداء لم يتم على صليب الجلجثة . بل تم منذ الأزل .؟ عملية الفداء تمت قبل أن يأتي آدم عصيانه . وهذا أيضاً لغز من ألغاز النعمة . نؤمن به وإن كنا لا نفهم أسراره . ان مفهومه يفوق جداً مفاهيمنا البشرية . سمعت « كلفن » يلقي هذا الحديث الذي حاولت أن أفهمه عبثاً فأحنيت رأسي وقلت : أرجو أننا بدلا من الدخول في متاهات لاهوتية عن الأزل ، نكتفي بالبدء من آدم .. فهل لك أن تحدثني عن الخطية والفداء في ذلك العهد ؟

وقال « كلفن » : إن أساس الأخطاء التي وقعت فيها كنيسة روما كان في عدم فهم حقيقة الخطية وحقيقة الخلاص !!

فالخطية ليست الشيء الهيّن الذي يسخر به البعض . ليست هي مجرد أن آدم أكل ثمرة شجرة نهاه الله عنها . وهم يقولون إن من غير المعقول أن الله ينظر إلى هذا الأمر النظرة المروعة التي صورها لنا . الحقيقة أن الله خلق الإنسان كاملاً ، ولك أن تتخيل صورة لإنسان كامل بمقارنته بالإنسان الذي تراه اليوم . أنت ترى الإنسان فاسد القلب فاسد العين ، أنانياً ، فاسقاً ، شهوانياً ، طماعاً ، قاتلاً ، جاهلاً ، وأكثر من ذلك . كان آدم الصورة المقابلة . ولكنه بعصيانه فقد هذا الكمال . هذه هي الخطية . والخلاص ليس مجرد

مسامحته على هذه الغلطة أو تلك . الخلاص هو إرجاعه إلى تلك الصورة التي كانت له يوم خلقه الله !!

هذه هي الصورة الحقيقية للخطية والخلاص . فالخطية كما ترى شيء مروع والخلاص شيء يتطلب معجزة لا تنبت من الأرض . لا تستطيع قوة في الأرض مهما كانت أن تعيد الإنسان إلى كماله . قالوا : المعرفة ، الإرادة ، الفلسفة ، التدريب ، ولكنهم فشلوا كل الفشل . صحيح أن الإنسان لما فقد كماله لم يفقد بعض كمالاته العقلية . فقد بقيت له قواه المبتكرة . فرأيناه يخترع ويخرج ثمار اختراعاته . رأيناه يزرع ويحصد ويبني ويعمل في الفنون وفي آلات الحديد والنحاس . ولكن حتى هذه انحدرت نحو طبيعته الفاسدة ، فتحولت بدلاً من البركة إلى لعنة !

هززت رأسي وقلت : هذا صحيح ياصديقي . فقد رأينا الاختراعات التي كان يمكن أن تخدم العالم تتحول إلى لعنة تصبّ الشرور المريرة عليه . فهذه الطائرات التي كان يمكن أن تعمل على الإنقاذ والإسعاف ، تحولت إلى نقل آلات الدمار والإهلاك . وهذا العلم الذي كان يمكن أن يصل بنا إلى أعظم طاقة لإنقاذ العالم ، تحول إلى أعظم قوة مدمرة . أخشى أن العالم الحاضر سيدمر كله بها . في الحقيقة أنا وزملائي لا ننظرَ إلى الخطية هذه النظرة المخيفة : إننا مرات كثيرة نتكلم عنها مستهينين !!

وقال « كلفن » : وكذلك الخلاص ، إن الغالبية لا تفكر إلا في الخلاص من دينونة الخطية ، من جهنم وليس الخلاص من نفس الخطية . لو أن الخلاص هو مجرد عفو الله عن إثم أتيناه ، لكان الأمر هيناً . إن الله طيب ، ويمكن أن يقول : عفوت ! لكن المسألة هي إرجاع الإنسان الذي صار مريضاً ، « من هامة الرأس إلى باطن القدم جرح وأحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت » . إرجاعه صحيحاً كاملاً كما كان !!

وثمة شيء آخر : القول بأن القصاص الذي لحق بآدم ، لحق بأولاده . ويسأل البعض وما ذنب الأولاد ؟ وهنا الخطأ في تصوير الخطية كما قلنا والخطأ في كلمة العقاب !!

فالخطية كما سبق وقلت ، فساد الإنسان وفقدان الكمالات . وهل يمكن أن يلد الفساد إلا الفساد ؟ إن أبناء آدم لم يوضع عليهم عقاب بعيداً عنهم . لقد ورثوا فساد أبيهم بالطبيعة . والعقاب ليس قصاصاً أجراه الله عليهم . إنه نتيجة طبيعية للفساد الذي ورثوه !!

والخلاص ، إذن ليس رفع العقاب عنهم ، بل رفع الفساد عنهم . وهذا لا يمكن الحصول عليه من نفس الإنسان ولا من أي إنسان . الجميع فسدوا .. ورأى الله الإنسان الفاسد المسكين ، ورأى أن لا مخلص ، فخلصت له يمينه . جاء « هو » بشخصه ، وقام بعملية الخلاص !!

قلت : لكن متى جاء ؟ فقد قيل لنا إنه جاء في ملء الزمان .. وصلب على الصليب وكفّر عن الخطية !

قال : بل جاء منذ الأزل ، كما قلت . وأنت قد سمعت السيد يقول للحية : وأجعل عداوة بينك وبين المرأة ، وبين « نسلك » و « نسلها » . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه . ويقول « لإبراهيم » : وفي « نسلك » تتبارك جميع قبائل الأرض . لقد سمعتني أقول لك أن كثيرين من الأقطاب ، ومنهم المصلح العظيم « مارتن لوثر » يقولون إن المسيح لم يكن في العهد القديم . وكنت أنا مع « لوثر » في هذا الأمر ، إلى أن قرأت كتابات « مارتن بوسر » . وإذ ذاك رأيت المسيح ، رأيت الخلاص في العهد القديم !!

قلت : أنت تقول إن الإنسان قد فقد بالسقوط كل الكمالات ، ولكنك قلت إن الإنسان قد استطاع بمعونة روح الله القدوس أن يتقدم في الفنون والعلوم .. أما كان يمكن أن يتقدم بمعونة الروح القدس إلى ما يمكنه من التغلب على الخطية ؟

قال : وهو يهز رأسه : كلا . كلا لقد فقد الإنسان تماماً التمييز الروحي الذي لا يمكن أن يسترده إلا عند تجديده . وهذه البصيرة الروحية تتكون أساساً من ثلاثة أشياء : معرفة الله ، معرفة إحسانه الأبوي من نحونا الذي هو أساس خلاصنا ، ومعرفة كيف نشكل حياتنا وفق ناموسه . ولو أن الإنسان كان يملك الإرادة المتحررة تماماً للسلوك بمقتضى هذه البصيرة الروحية ، لما كانت هناك مشكلة . بل كانت الحياة المباركة من نصيبه حقيقة . ولكن المشكلة بالتحديد هي : أنه لا توجد إرادة متحررة تماماً لاختبار معرفة الله المعرفة الصحيحة والثقة في إحسانه الأبوي ، أو تشكيل الحياة حسب مشيئته . لقد فقد الإنسان كل ذلك بالسقوط . كما فقد في السقوط قدرته على التجاوب مع الله الذي يريد أن يرد لنا هذه البصيرة الروحية !!

فكيف إذن يعالج هذا الداء الوبيل ؟

هنا دخل الله بنفسه ورتب هذا العلاج .... من أجل هذا نهتف مع الملائكة « المجد لله في الأعالي » . وفي كتاب « المباديء » نقرأ عن الله الذي ظهر في المسيح . نقرأ الآية الكتابية « والكلمة صار جسداً وحل بيننا » !!

قلت : أني ... بالرغم من الكثير الذي سمعته عن التجسد أحب أن أسمع أيضاً . أريد أن أسمع وأسمع وأسمع . لا أشبع من السمع . ماذا عمل الله لإعادة صنع الإنسان ؟ لاشك أن « حزنه » كان عظيماً وهو يرى الإنسان النقي الطاهر الكامل الذي صنعه ينحدر ليصير كتلة من الوحل !!

وقال « كلفن » : هذا صحيح . فإنه عندما رأى أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، « حزن » ، « حزن حزناً عظيماً » . بل « حزن أنه عمل الإنسان » فمحاه عن وجه الأرض وتأسف في قلبه . هل أتكلم معك بلغة البشر ؟ إنه لم يستطع أن يبصر هذا الإنسان في الصورة التي وصل إليها ، حتى أنه قال : ينبغي أن أمحوه عن وجه الأرض . لكنه عاد فقال : بل سأعيد خلقه ، سأصنعه جديداً . ينبغي أن يموت هذا الإنسان .. نعم ينبغي أن يموت .. وهنا جاء الوسيط !!

قلت : نعم حدثني عن الوسيط ..

قال : الوسيط هو نفس الله الذي صار إنساناً .. هو المسيح وقد تجلّى في العهد القديم من قبل أن نراه في بيت لحم . تجلّى في المواعيد وفي الناموس !!

١٩٨٢/١٠/٢

هتفت : تقول في الناموس ؟ أما المواعيد فإني قد أفهمها ، أما الناموس ، تقول الناموس ؟ كيف يمكن أن يكون هذا ؟

قال : لقد أعطى الناموس لينمي رجاء الخلاص في المسيح إلى أن يأتي !! فالناموس لم ينحرف بالشعب المختار بعيداً عن المسيح ، بل بالحري حفظ أفكارهم على استعداد إلى مجيئه ، بل أشعل فيهم الشوق إليه وقوى آمالهم حتى لا يفشلوا من طول الانتظار !!

قلت : هذه نظرة جديدة لم يسبق أن فكّر فيها كثيرون من اللاهوتيين !

وقال « كلفن » : نعم هي نظرة سامية إلى الناموس . أخذتها عن « بوسر » وهي تختلف كما سبق أن قلت لك عن مفهوم « لوثر » للناموس . ودعني أذكر لك ثلاث فوائد كبرى للناموس : الفائدة الأولى أن الناموس يعلن بر الله ، إنه يكشف لنا حقيقة أنفسنا وشرّنا . والفائدة الثانية أنه يكبح جماح بعضنا خوفاً من الدينونة . والفائدة الثالثة أنه وسيلة ، بل أفضل وسيلة ليتعلم المؤمن بصورة أشمل كل يوم طبيعة مشيئة الله !!

قلت : اني في الحقيقة لا افهم ما تقول . قد افهم ان الناموس يكشفني لنفسي إذ اني مكشوف أمام الله . الحقيقة أني حتى بدون الناموس كنت غير مستريح إلى نفسي . نعم أن الناموس عرّاني أو كما ذكر الرسول بولس : أني لم أعرف الخطية وشر الخطية لولا الناموس . أعتقد أن بولس قصد أن الناموس كشف عمق شناعة الخطية . أما نفس الخطية ، فإن أحط الوثنيين كانوا يعرفونها ، وقد حاولوا بمختلف الطرق أن يكفروا عنها . لكن ... لكن أن تقول إن الناموس يقود إلى معرفة مشيئة الله ، وتحاول أن تقول إن في هذا طريقاً للاصلاح فـ .....

وصاح « كلفن » : ألم يكن من الأصلح أن تنتظر حتى أكمل حديثي ؟ أقول إنه بما أن الإنسان في حاجة إلى التحريضات كما إلى التعليم ، فإن التأمل الكثير في الناموس لابد وأن يقويه ويدفعه للطاعة ، ويرده عن مزالق الخطية ، وفي هذه الفائدة الثالثة للناموس .

+ لاحظ أني أتكلم في حدود أرضية لأن الله أعلى من ذلك .

هززت رأسي مستنكراً . أني لا أرى ما تراه يا سيدي . اني أرى نفسي الآثمة ! وأرى البر الكامل ، ولكني لا أملك القوة للتحرر . كلا يا سيدي . أنا لا أرى هذه الناحية من الفائدة التي تقولها !!

بل أني على العكس أرى أنها سببت كثيراً من الارتباك في اللاهوت المسيحي حتى ظن البعض أننا يمكن أن ننال الخلاص عن طريق الأعمال !!

قال كلفن : إن سوء الفهم لا يجوز أن يكون حجة لتبرير موقف — إن دراسة الناموس ، وخصوصاً إننا بدراسة الوصايا العشر نصل إلى المعرفة التي تقودنا إلى التجديد . إن الناموس يهدم كل ظن بوجود أي صلاح فينا ، ويعلمنا الاتضاع الصحيح ، وإذلال النفس السليم . كما أن الناموس يعلن لنا البر الكامل ، فلا يلزمنا شيء آخر لمعرفة مشيئة الله !!

قلت : أني إلى الآن لست مقتنعاً بما تقول . يجوز أن تقول لي أن الشيطان قد يوسوس في ذهن الإنسان ليقنعه أنه بار ولا يحتاج إلى علاج . قد يؤثر الشيطان في ذهنه أن لا حاجة له إلى شيء . هنا يمكن أن نقول له : هنا المقياس ، الناموس . أي أن الناموس لا يزيد عن مرآة . بل أني أرى أكثر من ذلك ، أرى أن الناموس ليس بالمرآة الكاشفة بالكفاية . إن الإنسان يمكن أن يرى نفسه على حقيقته إذ مثل أمام الله وسمع الملائكة القديسين يهتفون ، وقد خبأوا وجوههم وأرجلهم . قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده

ملء كل الأرض ... كلا ياصديقي أني لست محتاجاً إلى الناموس ليكشف لي -التي وليد فعني لأطلب منه أن يغيرني . إني عارف بمعاصي وخطيتي أمامي دائماً !!

وقال « كلفن » : إن التأمل الدائم في الناموس لابد أن يقوي المتأمل ويدفعه للطاعة ويصده عن مزالق الخطية . إن الناموس الأدبي في العهد القديم يرشد المؤمن إلى الاتجاه الذي يجب أن يسير فيه !!

قلت : إني أخشى أن هذا يناقض كل ما فهمته عن الخلاص . فهمت أني فقدت كل كمال وأني انحدرت إلى أعماق الإثم . وأن نفس إرادة فعل الخير مفقودة عندي وأني محتاج إلى نعمة خاصة . نعم . نعمة خاصة جداً لأنال هذه الإرادة .. فكيف يمكن أن تأملاً أو ألف تأمل يرشدني إلى سبيل أمين ؟ ... إسمع ياصديقي ، أنا لا أحسن التعمق في اللاهوتيات . دعني ألخص ما فهمته من العهد القديم في موضوع الخلاص . إن هناك الوعد بالخلاص . أجد ذلك في ناموس موسى وسفر المزامير وكتب الأنبياء . وأجده أيضاً في رمز الدم في الذبائح . يكفيني هذا ياصديقي ....

وأشار « كلفن » إنه يأسف أني لا أرى بالوضوح ما رآه هو ، ولكنه يتفق معي في ما رأيته . على أنه يطلب مني أن أهتم بالوصايا العشر . إنها فعلاً ليست في مستوى وصايا المسيح ، لكن خلاصتها أنك تحب الله وتحب القريب . لماذا إذن لا تعيرها التفاتاً وقد جاءت في العهد القديم . أليس معنى هذا أن العهد القديم كان له شيء ، بل كثير ، من الاتصال بالمسيح ؟

و .... دعني أقول لك مرة أخرى : إننا إذا فهمنا الناموس فهماً صحيحاً فإنه يعلمنا معرفة ذواتنا المعرفة التي تقودنا إلى التجديد . فهو في الحقيقة يهدم كل ظن بوجود أي صلاح فينا ويعلمنا الاتضاع الصحيح وإذلال النفس . كما أن الناموس يعلن لنا البر الكامل . فلا يلزمنا شيء آخر لمعرفة مشيئة الله . ولذلك يجب علينا أن نفحص كل وصية خصوصاً من الوصايا العشر ، ونعرف موضوعها والهدف منها إلى أن تكتشف ما يقوله الله ، معطي الناموس ، ما يسر به وما لا يسر به ... من أجل هذا درست الوصايا العشر كل وصية على حدتها !!

قلت : ولكن ياصديقي ألا ترى أن العهد القديم كان ، على قدر ما فهمه الناس ، كتاب اليهود ؟ وكان بهذا الفهم ــ الله ، إله اليهود والناموس ناموس اليهود ؟ حتى ليخيل إليّ أن لا علاقة لي إطلاقاً به !!

قال « كلفن » : أنا لا أنكر أن الطريق ربما كان يمكن فهمه كما تقول لو لم ينته بمجيء المسيح . بل لا . لقد ظهرت علامات كثيرة في العهد القديم تكشف بطلان هذا الفهم وبدراستك دراسة دقيقة للعهد القديم تكتشف أن الله أعلن نفسه إلهاً لكل العالم ، وترى الذبائح في وضعها الحقيقي ، لا مجرد رسوم وطقوس . وأنا أعترف معك أن جانباً كبيراً من الكتاب المقدس ـــ العهد القديم ، قد يوحي بالفهم الناقص عن الله والمسيح . ولكن فيه أيضاً الكثير مما يقدم المسيح . أنت تجده بدءاً من سفر التكوين إلى سفر ملاخي . نعم ستجد المسيح في جميع الكتب . وستسمع هذا الإعلان واضحاً أن الله أحب العالم كله !!

ملاحظة : ضاعت بعض المذكرات هنا .

ـــ الإنسان ـــ الله :

لا زلنا نتحدث ... لا يزال كلفن جالساً أمامي . لازلنا في اليوم الثاني من أكتوبر . تحدثنا طويلاً عن الناموس . أحسست أني برغم قيمة الموضوع أضيع بركات أثمن . أنا محتاج إلى أن أجلس إلى نفس المسيح . لذلك قلت :

اسمع ياصديقي « كلفن » . لقد سبق أن قلت لك أني لست باحثاً لاهوتياً . إنني شخص عادي ، وأرغب أن تقدم لي الحقائق اللاهوتية في أبسط صورها !!

قال : إن كتاب « المباديء » بسيط جداً وعميق جداً يفهمه الأطفال ويحار فيه الفلاسفة . إن الجزء المتعب في مناقشتنا ليس ما أقوله أنا بل ما تتفلسف فيه أنت . والآن سأمثل أمام الوسيط . سأتحدث لتناقش . إن كتاب « المباديء » كلفني حياتي ، دمي ، وأنت تريد أت تحاوره في ساعات . اسمع وتعلّم . لقد « درست » عشرات الكتب ونقبت في ألوف الصحائف وهذا ما وصلت إليه . فاسمع :

(١) إن الوسيط بين الله والناس هو الله نفسه . أتحدث إليك بشرياً . تلفّت الله يبحث عن وسيط فلم يجد . كل البشر فسدوا . لا يوجد بينهم من يصلح وسيطاً . سبق أن قلت لك أن آدم فقد كماله .. ليس في منطقة آدم من يصلح للوساطة . إذن ليتوسط هو بنفسه . هذه هي الحقيقة الأولى . يجب أن يكون هو نفسه الوسيط حتى يستطيع أن يعطينا الملكوت .

لكن كيف يستطيع الله ، وهو الله ، أن يمثّل الإنسان ؟ ينبغي أن يكون الوسيط إنساناً يعرف الإنسان وضعف الإنسان وتجارب الإنسان وآلام الإنسان . وفي نفس الوقت يكون إنساناً كاملاً ... أين هو هذا الإنسان الكامل ؟ كل البشر فسدوا . الملائكة لا يصلحون . الله وحده هو الكائن الكامل . إذن ينبغي أن يصير الله إنساناً ... بالطبع إنساناً كاملاً ، إنساناً حقيقياً ، لكنني يوازن بطاعته هو ، الإنسان الذي أفقده العصيان هذه الميزات . وهكذا جاء يسوع المسيح الذي توفر فيه الأمران . فهو الله حقاً ، إذ أنه في كيانه يشترك في جوهر الله . وهو إنسان حقاً ، فقد ولد من امرأة ، ولد من امرأة بدون زرع بشر ، فولد كاملاً ، بعيداً عن فساد آدم . وقدم يسوع نفسه للآب ذبيحة على الصليب !!

هذا هو الوسيط في شخصه ... الله ظهر في الجسد !

(٢) الوسيط في وظائفه

فما هي الوظائف التي يقوم بها هذا الوسيط ؟

وقد ذكرت وظائف هذا الوسيط . وقد ذكرتها الكتب ، وهي ثلاث : فهو نبي وكاهن وملك . مسحه الروح القدس ليكون داعياً وشاهداً لنعمة الله الآب . وكان تعليمه خلاصة نبوات الأنبياء ! كل نبوات الأنبياء تنتهي إليه . وقد درست كل الكتب المقدسة ورأيت يسوع المسيح النبي الكامل . إنه نبي كامل ، معلم المعلمين . النبي الذي في تعليمه رأينا الله !!

قلت : إنه وجد بين الناس من لم يؤمنوا بالمسيح إلهاً ، ولكنهم آمنوا به نبياً ، نبياً فقط . قال إن رسالة الأنبياء كلهم كانت تتجه إلى المسيح . فقولهم إنه كان نبياً كسائر الأنبياء ، يسلبه مكانه كوسيط . لاحظ أننا قلنا إن الوسيط كان يتحتم أن يكون إنساناً .. لكن إنسانيته ما كان يمكن أن تؤهله لمقامه كوسيط . كان يتحتم أن يكون إلهاً . وكإنسان كانت له الوظائف الثلاث : النبي والملك والكاهن . وملكوت المسيح روحي . هو نفسه قال : مملكتي ليست من هذا العالم . مملكته روحية وأبدية . هو ملك على كل الكنيسة وعلى كل عضو فيها . وللملكه إمتيازات كثيرة . إنه يمنح أتباعه كل ما يلزم لحصولهم على الخلاص . ويعطيهم الشجاعة التي تجعل رعاياه أقوياء أمام كل قوة العدو ، بحيث يستطيعون أن يجابهوا كل التجارب التي تحيط بهم . يجتازون في الماء والنار واثقين أن النصرة لهم ، لأنهم يعرفونه وينالون منه كل ما تغدقه السماء عليهم !!

(٣) أما الوظيفة الثالثة له فهي الكهنوت . هو كاهننا الأعظم . ما كان يمكننا أن نقترب إلى الآب لو لم يكن قد أعد الطريق لنا . وهو يختلف عن الكاهن اليهودي الذي كان يدخل إلى الأقداس مرة كل سنة وهو يحمل دم ذبائح ، خرفان وعجول ، وهو بالدم « يكفّر » عن خطايا نفسه وخطايا الشعب . وبالطبع كان كهنوته ناقصاً ، لأنه كان يتكرر كل سنة ، إذ أنه لو كان كاملاً لما كانت هناك حاجة إلى تكرار . أما كاهننا العظيم فقد دخل إلى الأقداس مرة واحدة ، بذبيحة نفسه ، فوجد فداءً أبدياً . هذا الكاهن العظيم وضع نفسه وأطاع . وقد بلغت طاعته أقصاها في الصليب !!

صمت كلفن قليلاً وقال : دعني أضع أمامك كلمات قانون الإيمان التي قيل أن مجمع نيقية حكم بها :

تألم على يد بيلاطس البنطي

وصلب

ومات ودفن

ونزل إلى الجحيم

وقام من الأموات

وصعد إلى السماء

وجلس عن يمين الآب

وسيأتي ثانية ليدين

قلت : إذن أنت من أنصار قانون الإيمان النيقوي ؟

قال : نعم نعم ، فإن هذا القانون يوجز في كلمات قليلة النقط الرئيسية في عمل الفداء . وهذه الكلمات تصلح لوحة تستطيع أن ترى فيها وضوح الأشياء التي يجب علينا أن نعيرها كل انتباهنا في المسيح . ففي المسيح وحده كل الفداء .

« إذا كنا نسعى للخلاص فإن اسم « يسوع » يدل على أنه لا خلاص إلا « فيه » ».

« وإذا كنا نسعى وراء مواهب الروح الأخرى لا توجد إلا في مسحته » .

« وإذا كنا نريد القوة فهي في سلطانه » .

« وإذا كنا نريد الطهارة فهي في الحبل به . والوداعة ففي ميلاده ، والفداء ففي آلامه ، والبراءة ففي احتماله الدينونة » !!

« وإذا كنا نريد محو اللعنة ففي صليبه . وإذا كنا نريد الشبع ففي ذبيحته . وإذا كنا نريد تطهيراً ففي دمه » !

« وإذا كنا نريد المصالحة ففي نزوله إلى الجحيم »

« إذا كنا نريد إماتة الجسد ففي قبره . إن كنا نريد جدة الحياة ففي قيامته . أو نريد الخلود ففي قيامته أيضاً » !

« إن كنا نريد ميراث الملكوت السماوي ، ففي دخوله إلى السماء . أو كنا نريد الحماية والبركات الفائضة ففي ملكوته » !

« إن كنا نريد انتظار الدينونة بلا خوف ، ففي معرفتنا أن سلطان الدينونة قد دفع ليده » .

« وبالإيجاز ، حيث أن كل أنواع الخير قد ذخرت لنا فيه بوفرة ، إذاً فلنشرب حتى نرتوي من هذا الينبوع وليس من ينبوع آخر » !!

قال « كلفن » هذه الكلمات ونظر إليّ ثم قال : لقد سجلت هذه الكلمات بنصها أمام الشعب قائلاً : هذه الأقوال أمينة وهادفة .

قلت : إني جد مبتهج إذ أعدت لي كلمات قانون الإيمان التي ذكّرتني بأثناسيوس العظيم ، كما ذكّرتني بآريوس الذي كنت أظن أنه مات وانتهى . ولكنني أراه في هذه الأيام يقوم وينشر ضلالته عن لاهوت المسيح !!

قال : نعم ، وقد رأيت هذا الـ « آريوس » في سويسرا . وبالرغم من أننا حاولنا أن نتخلص منه ، إلا أنه لا زال يتحرك !!

قلت : هناك كلمة في قانون الإيمان أرجو أن توضحها لي . هي عبارة تقول عن المسيح أنه « نزل إلى الجحيم » . متى نزل ؟ وماذا عمل ؟؟

وقال « كلفن » : لقد كانت هذه العبارة مصدر تعب لي . فقد أذاع البعض أن المسيح نزل فعلاً إلى الجحيم وبشر الذين كانوا قبل مجيئه إلى العالم من المختارين وكسر قيودهم . وقال غيرهم إنه نزل ليبشر الذين لم يسمعوا عنه ، وبالتالي لم يؤمنوا به ، لأنهم لم يسمعوا . وقال غيرهم إنه نزل ليخلص الأطفال الذين لم يتعمدوا . وكل هذه أباطيل ، لأن دم المسيح كان معروفاً سابقاً . والمختارون آمنوا به في مواعيد الآب وفي رمز الذبيحة . وقد تحدثت إليك عن النعمة وأزليتها وإعلان الله لها منذ خلق العالم . أما المقصود بنزوله إلى الجحيم أي نزوله إلى القبر ، وقد قال المرنم : لم تترك نفسي في الهاوية ، لم تدع قدوسك يرى

فساداً . أي أن السيد مات حقاً وقاسى الكثير من العذاب الروحي ، الذي قاساه من أجلنا !!

وقلت : عبارة أخرى « جلس عن يمين الآب » ؟؟

قال : هذا تعبير رمزي عن الكرامة التي نالها السيد بطاعته ، فإن الله ، بعد طاعة السيد حتى الموت ، رفّعه أيضاً وأعطاه اسما فوق كل اسم . وقد جلس ملكاً على الكنيسة !؟

قلت : إذن ما معنى أنه سيملك ألف سنة . ويملك ملكاً جسدياً حرفياً في أورشليم مدة ألف سنة ؟

فقال كلفن : هل من المعقول أن السيد بعد أن جلس ملكاً عن يمين الآب في السماء يأتي إلى الأرض يملك ملكاً حقيراً بالنسبة لملكه العظيم ، ملكاً جسدياً على مملكة صغيرة في مدينة صغيرة .... ؟

قلت : إذن فما معنى ما قاله الرائي في سفر الرؤيا عن هذا الملك ؟

قال : إن الرائي تنبأ عن فترة ازدهار لكنيسة الرب يسوع .. ازدهار . نجاح وسلام . لا أعلم إن كانت قد جاءت أو ستجيء . اذكر أني قلت لك أن المسيح قد شغل وظيفة ملك وملكوته روحي ... وأن امتيازات ملكه لا تبدو في بركات جسدية خارجية !!

انحنيت أنا وكلفن ساجدين للسيد وظللنا ساجدين فترة طويلة . ولما رفعت رأسي بعد ذلك كان كلفن قد غادر المكان . فقمت وذهبت إلى الفراش . وأنا أردد حديث كلفن . واستغرقت في نعاس وابتسامة على فمي .. كان الوقت منتصف الساعة الثانية صباحاً ، صباح اليوم التالي !!

الحديث السابع

استيضاحات خاصة بالباب الثالث

الروح القدس

١٩٨٢/١٠/١١

لم أفترق عن « كلفن » ، ولو أني تركت كتاب المباديء ، وعدت أتحدث عن سرفيتوس . أخشى إنه سيحدث اختلاط أو تكرار في الحديث ... لكن ها أنا أعود إلى الكتاب الثمين . وأنا أصلي أن يتولاني روح الله وأنا أدخل إلى مقادسه ...

قلت لكلفن : إن المشيخيين لم يولوا موضوع الروح القدس من الإهتمام ما أولته طوائف مسيحية أخرى . لذلك يسرني أن أجدك تخصص جانباً كبيراً من كتاب « المباديء » لهذا الأقنوم الإلهي العظيم ولو أنني أحس بأنك لم تتعرض لنواح كثيرة ذكرها الآخرون .

قال « كلفن » : إنني لم أتعرض إلا للنواحي الأساسية . وهي أولاً أقنومية الروح القدس ، بالطبع تعرضت ونبرت على هذه النقطة لأن الكثيرين لم يفكروا في الروح القدس إلا أنه .. لا أعرف ماذا أقول . أعتقد أنهم أخذوا الروح القدس على أنه صفة أو جزء أو أحد الكمالات لله الآب . أي أننا نقول قوة الله ، محبة الله ، سلطان الله ، كذلك نقول روح الله . انتشرت هذه البدعة من قديم الأيام ، ومجمع نيقية لم يذكر في جلساته الأولى شيئاً عن الروح القدس . أضاف هذا الجزء فيما بعد . لذلك رأيت أنا أن أنبرّ على هذا الجزء . أنا أؤمن بالروح القدس . الآب والابن والروح القدس ، الثالوث الأقدس ، ثلاثة في واحد . بالطبع لم أحاول أن أقدم تعليمي عن ذلك بالتوضيح الذهني !!

إن العقل يؤكد لنا وجود الله وعظمة الله ، والعلم يفعل ذلك ، ولكن لا العقل ولا العلم ولا أي قوة بشرية يمكن أن توضح ذاتية لله . أو أزلية الله . بل هل يمكن أن أحداً يشرح لي معنى الله واحد ، والله حاضر كله في كل مكان ؟ إن هذا من الأسرار التي لا تناقض

العقل . بالحري تتفق مع العقل . لابد أن الكائن الموجود خلف العوالم ينبغي أن « يكون وينبغي أن يكون فوق العقل . ونحن نقبل ذلك بالإيمان !!

قلت : عرفت أن كثيرين اختلفوا في عقيدتهم في المسيح . بل في أيام يوحنا الحبيب وجدت بدع كثيرة . فمنهم من أنكر لاهوته اطلاقاً . ومنهم من قال إن لاهوته ابتدأ في المعمودية وانتهى في الصلب . ومنهم من قال إنه إله ولكنه غير مساو للآب في الجوهر . ومنهم من قال إنه إله من جوهر الآب ولكن على مستوى أقل . ومنهم من قال إنه كان « إلهاً » بدون جسد .. يقصدون بدون ذاتية أو بدون شخصية مستقلة ، أو ..... بدون كينونة ، بدون أقنومية . نعم وجدت بدع نظير هذه .. فهل وجدت بدع مثل هذه عن الروح القدس في أيامك ؟

قال : إن الاتجاه كله كان نحو المسيح ، لأنه ظهر في العالم بصورة واضحة . بخلاف الروح القدس الذي ظهر كريح أو كقوة . لكن البدعة كانت إنكار الثالوث ، وهذا بالطبع إنكار للاهوت الروح القدس وإنكار لأزليته ... تماماً كالبدعة المتصلة بالمسيح .

قلت : ولكنك اقتصرت في تعليمك في عمل الروح القدس على بعض أعماله . لم تتعرض لما يسميه البعض رسائل الروح القدس على أفواه المؤمنين ، أو النبوات التي يضعها في أفواه المؤمنين . ولم تتعرض لموضوع الألسنة المختلفة التي شهد المؤمنون بها عن المسيح !!

قال : لست أذكر أننا شاهدنا شيئاً مثل هذا ، لكنك تستطيع أن تجد جواباً عن أي استفهام من هذا النوع في روح تعليمي . ولو لم تنطق به شفتاي ، لك أن تسأل وسأجيبك مما قدمته من تعليمي ولو لم أنطق به في يومي !!

قلت : أنك تذكر أنني طلبت في مناقشاتنا ألا نتعمق في فلسفة الحقائق بقدر ما نشرح ما نسميه مظاهرها وأعراضها . هناك مسائل يتطلب شرحها الدخول في متاهات ليس من السهل عليّ أن أجتازها .لذلك التمس مرة أخرى أن يكون حديثك بدرجة من البساطة تتفق مع الذهن العادي . لقد فهمت عمل الآب .. بالتأكيد لا أقصد الكلمة « فهمت » بمعناها العميق ، الآب الخالق الضابط الكل .. الذي أحب والذي بذل . كذلك فهمت عمل الا بن إلذي تجسد وعاش بين الناس ووضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب . مات لأجل خطايانا وقام لأجل تبريرنا . في أوائل أيامي على الأرض كنت أقف هنا . ولو أنهم في كتاب التعليم المسيحي كانوا يعلموننا « من يقدسك » والجواب « الروح القدس » . لكننا ــ ولا أنكر عليك ــ كنا نقول الكلمة بدون تفكير . ولما اشتد عودنا نوعاً ، كنا نقف عن عمل المسيح . الآب أحبنا وبذل ابنه الذي مات عنا . فما هي

الحاجة إلى الروح القدس ؟ لن أقف لأسأل : منَ هو الروح القدس . لاحظ أنني « الآن » لا أقول ما هو الروح القدس ، لكنني أقول « من هو » وما هو عمله ؟

وقال « كلفن » : أنا مسرور من صراحتك . ان كثيرين — وإلى الآن يقولون عن الروح القدس « ما هو » . ومع أنهم ينالون الكثير من بركاته ، لكنهم ينالونها بدون أن يعرفوها :

لاحظ أن حاجتنا الهامة هي الحصول على نعمة المسيح . ولاحظ أيضاً أننا لا يمكن أن نتمتع بهذه النعمة إذا ظللنا خارج المسيح أو المسيح خارجاً عنا . الروح القدس هو الله الذي يمنحنا الإيمان الذي تصبح به كل بركات المسيح يسوع فعالة في حياتنا . والإيمان هو المعرفة اليقينية الراسخة بإحسان الله من نحونا ، مبنية على صدق الوعد المعطى لنا مجاناً في المسيح . والذي يعلنه الروح القدس لأذهاننا ، ويختمه على قلوبنا !!

قلت : ما الذيْ تقصده من قولك « المعرفة » . هل تقصد أننا نعلم كل شيء ؟

قال : لا . لا . إني لا أقصد بها أكثر من أن يكون لنا اليقين الراسخ في أن الله هو رحيم حنان من نحونا . إن في قلب المؤمن تقوم قوات تحارب يقيننا . لابد من وجود صراع نتيجة نقائص إيماننا . لا يمكن أن نشفى تماماً من مرض الشك . هنا نرى الروح القدس يعمل على اقالة إيماننا من عثاره . الروح القدس يعطينا الإيمان ويسند الإيمان ويقيم الإيمان ويشدد الإيمان . إننا في حاجة مستمرة إلى الروح القدس !!

قلت : هل ترى يتم عمل الإيمان دفعة واحدة ؟ هل يتم استعادة حياة البرارة في لحظة واحدة ؟

قال : إن هذه الاستعادة لا تتم في لحظة واحدة أو في يوم واحد أو في سنة واحدة بل بخطوات مستمرة قد تكون بطيئة أحياناً ....

قلت : أني أذكر الآن المناقشات الحادة التي قامت بين الكثيرين ، هل يتم الخلاص في لحظة أو بالتدريج ؟ وهل بنوال الخلاص تنتهي الحرب الروحية في الحياة وننال التقديس الكامل ؟

قال : لقد ذكرت الآن أننا سنستمر طول الحياة نصارع . لا يمكن أن يستمر إيماننا قوياً بدون ضعفات . على أن موضوع مناقشاتكم لا يتصل بموضوعي . إن الروح القدس يعمل فينا فنقبل المسيح مخلصاً وفي لحظة قبوله ننال نعمة التبرير . أصبحنا أمام الله أبراراً .

أخذنا بر المسيح . وهذا كما ذكرت هو عمل الروح القدس . لكن إيماننا بسبب نقائصنا يتعرض للضعف كثيراً ، وللشك كثيراً ، وللسقوط كثيراً . بل إننا أحياناً نصل في السقوط إلى ما قد يظنه الناس ارتداداً . لكن الروح القدس لا يتركنا . إنه يعمل فينا باستمرار . يقيم إيماننا إذا تعثر ، ويسنده إذا وهن ، ويشدده إذا ضعف ، ويقويه وينميه . يعينه في حروبه الروحية . يبنيه ويزيده . أعن يارب عدم إيماني . شدد يارب إيماني . زد يارب إيماني . هنا الروح القدس . لئن كنت تقصد التبرير ، فإنه يتم في لحظة . أما التقديس فهو عملية مستمرة . والصراع الروحي سيظل الحياة كلها . سيظل العدو يحاربنا حتى بعد أن نضع إحدى القدمين في الشاطيء الثاني . لن يكف الصراع إلا بعد أن ننطلق . سيستمر الروح القدس يعمل فينا كل أيام الحياة .. بل قد يخيل إليّ أحياناً إنه يستمر معنا في نفس أبديتنا !!

قلت : تقول إن الروح القدس يعطينا الإيمان ، إذ نطرح أنفسنا على بر المسيح ، فنتبرر في لحظة . فهل تقصد أن لا مكان اطلاقاً للأعمال في عملية الخلاص ؟

قال : إن مفهوم الخلاص ينبغي أن يكون واضحاً . أنك إذ تسلّم حياتك للمسيح بالإيمان الذي يعطيه لنا الروح القدس ، ننال التبرير ، أي موقف البراءة أمام الله . ارتفعت عنا دينونة الخطية .. نلنا الخلاص . لكن الإيمان أيضاً يعطينا نعمة الولادة الجديدة « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله » . والأولاد يحتاجون إلى النمو . وينبغي أن تتوفر للنمو عوامل كثيرة . كلها من عمل الروح القدس . الغذاء الروحي أي كلمة الله . الشركة الروحية مع الآب وابنه بالروح القدس . إن الشركة الروحية مع المؤمنين . ممارسة الحياة المسيحية بالأعمال الصالحة . وهنا أقول إن الأعمال الصالحة ليست هي سبب الخلاص ، ولكن لها أثر في بنيان الخلاص . إن ممارسة الأعمال الصالحة عنصر من عناصر الصراع الروحي ، وفي هذه الممارسة تقوية لإيماننا . وقد قال الرسول بولس : تمموا خلاصكم . إن بذرة الخلاص هي النعمة المجانية التي ننالها بالروح القدس !!

إن الذين يقولون : الخلاص بالأعمال ، لا يفهمون ماهية الخلاص ! إننا أموات بالذنوب والخطايا . ينبغي أن نخلص من الموت أولا ثم نعمل . إن الموتى لا يمكن أن يعملوا . لكن بعد أن نخلص ينبغي أن نعمل ، إن للعمل ثلاث بركات . هو برهان الحياة أي برهان الخلاص وهو ثمر الخلاص . وهو ... وهذا أمر ينساه الكثيرون ــ عامل على تقوية الخلاص لاتمام الخلاص . لا يجوز أن نقلل من شأن العمل . لكن لا يجوز أن نعطيه أكثر من مكانه . والروح القدس هنا هو الأول والآخر . نقبل النعمة بالروح القدس ، وننمو في النعمة بالروح القدس ، ونتقوى في النعمة بالروح القدس . ونصارع العدو بقوة

الروح القدس . نبكت بالروح القدس ونتوب بالروح القدس ، ونستنير بالروح القدس ، ونهتدي إلى الطريق بالروح القدس ، ونتعزى بالروح القدس . ونخدم بالروح القدس ، الروح القدس هو حياة المؤمن كفرد ، وهو حياتنا ككنيسة .... وأعتقد أننا عندما نذهب إلى السماء سيملأ الروح القدس حياتنا !!

قلت : إن ما قدمت من توضيح يجعل سؤالي التالي لا مكان له . ولكني أقدمه لأن كثيرين يتعللون به . إذن لنعمل الخطية لتكثر النعمة ... أو بما أننا نلنا الحرية بنعمة التبرير فليس للناموس سلطان علينا . لسنا تحت الناموس . لنكسر الوصايا وفي دم المسيح الشفاعة ؟!!

وقال « كلفن » : إن المؤمن يسبق الناموس ويسمو عليه . فهو لا يكتفي بعمل ما يطلبه الناموس ، ولكنه يسعى للذهاب إلى ما هو أبعد من الناموس . فإنه يستطيع أن يحيا في روح الطاعة والفرح . ويزداد فرحه لأنه لم يعد يخشى بقايا الخطية التي تلتصق بحياة كل واحد . وأخيراً فإن المؤمن قد تحرر من الالتزامات الدينية الخارجية . ولكن عليه أن يستخدم عطايا الله في الغرض الذي أعطيت من أجله بدون تأنيب ضمير أو تعب فكر .

قلت : لكن مادمنا قد نلنا التبرير والحرية فهل هناك لزوم للصلاة ؟

وقال « كلفن » : أرى من الواجب أن أفهمك أن الصلاة هي أكثر من الطلب والدعاء . إنها مثول أمام الله ؛ لذلك أقول لك إن الصلاة تتفق مع موضوع التبرير والحرية المسيحية ! إن التبرير والحرية يملآن حياتنا بالشوق للوجود مع الله . وقد وضعت لكنيستي أربع قواعد لحياة الصلاة :

(١) يجب أن يكون فكر المؤمن وقلبه في حالة لائقة بمخاطبة الله . وأن يتقد قلبه بالغيرة والرغبة الملتهبة في محبة الله وخدمته حتى لا يسرح فكره في أمور أخرى .

(٢) أن ندرك عدم كفايتنا . ونمعن التفكير فيما نحتاج إليه . ونربط صلاتنا برغبة صادقة في الحصول عليه !

(٣) أن نفكر في مجد الله وحده وليس في مجدنا !

(٤) أن نصلي في ملء اليقين أن الله يستجيب صلواتنا ، خصوصاً إذا صلينا من أجل الأشياء التي صلّى من أجلها يسوع . والتي عملها لنا !!

ـ الصلاة الربانية :

قلت : لا شك أنك تشير إلى « الصلاة الربانية » وهي صلاة عظيمة . لكن ما قولك في أنه توجد طوائف تمنع هذه الصلاة بحجة أن السيد علّمها قبل الصليب وإعلان الغفران . وأن فيها « واغفر لنا خطايانا .. » وفيها « كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا » . وهناك طوائف تحتم أن نصليها باستمرار في الكنيسة أزيد من مرة وفي البيت وفي الطريق ـ وبعضهم لا يرتضون على الجزء القائل « خبزنا كفافنا » ويقولون « خبزنا الذي للغد » ؟!

قال « كلفن » : أما إنها صلاة مسيحية فلا شك في ذلك ، فالمسيح هو الذي علمها . وقد وجه الصلاة إلى الآب وهو اتجاه لم يسبق له مثيل في أية رسالة دينية . وملخص الصلاة كله مسيحي . أما غفران الخطايا فنحن محتاجون باستمرار إلى غسل أرجلنا ، والقصد هنا إساءاتنا للآخرين . ولاشك أن كلمة « كما نغفر » جزء عظيم يدربنا على أن نغفر . ولاشك أن اتجاهنا ينبغي أن يكون نحو ذلك . قد لا نصل إلى نهاية الشوط . لكن هل وصلنا في كل شيء . نحن نسعى ونتقوى وننمو . وصلاتنا ينبغي أن تتجه إلى أبينا في كل طلباتنا إننا نطلب منه كل شيء !!

حسن أن تكون الصلاة الربانية نموذجاً ، ينبغي أن نصلي على الدوام بروح الصلاة الربانية . لكن ليس من المحتم أن نصليها حرفياً . على أنه ليس هناك خطية في صلاتها حرفياً كل يوم على شرط ألا نكررها كالببغاء . بل نصليها بتعبد حقيقي !!

قلت : لقد سمعت كثيرين يشرحون هذه الصلاة ، لكنني أرغب أن أسمع التلخيص الذي قدمته في كتابك !

فأجاب : إن ما ذكرته في كتابي يغني عن كل شرح . فهي تبدأ بعبارة استهلالية إذ أن التقدم إلى الله بصفته الآب السماوي يتضمن تشجيعاً للمؤمن على التقدم لله ومخاطبته بجرأة . انه لا يتقدم إلى إله يكره كآلهة الوثنيين ، ولا إلى إله شديد ، كلي العدل والقداسة كلي التدقيق فقط ، لكنه يتقدم بالأكثر إلى « آب » ، وفي الأبوة فيض محبة . وفي قوله أبانا ، يعلن شركته مع الأخوة . وقد ذكرت أنها تحوي ست طلبات لا سبعاً كما يقول غيري . فأنا أطلب أن يتقدس اسمه . لا أتكلم عنه باستخفاف ، ويأتي ملكوته . إذ أن الله يملك حيث يسلم الناس أنفسهم له ، ولتكن مشيئته فيصبح الله ملكاً في العالم عندما يتجاوب كل الناس معه . ولنا ان نطلب كل احتياجاتنا ، لا أكثر في قولنا خبزنا كفافنا ـ ثم اغفر لنا ذنوبنا . وفي هذا اعتراف بإننا خطاة نلتمس القوة . وفي طلبنا لا تدخلنا في تجربة إذ يمنحنا قوة الانتصار في تجارب الحياة على التجارب الروحية .

والصلاة الربانية كما ذكرت أعظم نموذج للصلاة ، ولكنها نموذج ، والسيد لم يطلب أن نصليها هي بالذات بل نصلي على مثالها . ولكن ... لا خطية في أن نصليها بحروفها كما سبق أن ذكرت !!

قلت : لقد سبق أن أشرت إلى موضوعات لم أجدها واضحة في كتابك . أو لعلك كتبتها وأنا لم ألاحظها . ألا تقبل أن تسمع مني ، لترشدني إلى ما يضيء الطريق أمامي ؟ ولم أنتظر حتى يجيب فاستمريت أتكلم . ماذا ترى في موضوع التنبؤات التي يلقيها البعض ، بما يسمونه الرسائل ؟ وماذا ترى في المجتمعات الدينية التي تنكر الاستعداد للوعظ ، وتجلس تنتظر وحي الروح في اختيار موضوع التعليم ومادته ؟ وما قولك في موضوع الألسنة المختلفة ، وخصوصاً الألسنة التي لا تتصل بلغة لها وجود في العالم على قدر ما نعلم ؟ وماذا تقول في أمر المعجزات التي اختصت بها بعض المذاهب المسيحية ؟ وماذا ......

وقاطعني « كلفن » قائلاً : مهلاً ، مهلاً ، يبدو أنك تريد أن أبدأ كتابة « المباديء » من جديد . لكن لا بأس من أن أحاول أن أجيب عن أسئلتك ، مما يمكن أن أستخلصه مما سبق أن كتبته . أني لست نبياً بالمعنى الذي تقصده . أنا نبي بالمعنى المشيخي ، إذ أني أقدم كلمة الله . وقد ذكرت أن أهم خدمة للراعي هي خدمة الكرازة . هذه هي النبوة التي يهتم الروح القدس بها . إنها أهم نبوة وأقدس نبوة وألزم نبوة . نحن لسنا في حاجة إلى من ينبؤنا بالمستقبل ....

قلت : ولكن المنادين بالرسائل يقولون : لقد ذكر الكتاب المقدس شيئاً من هذا . فإن الرسول بولس يقول لقسوس أفسس : إن الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلاً : إن وثقاً وشدائد تنتظرني . وفيلبس المبشر كان له أربع بنات عذارى كن يتنبأن . وفي أنطاكية رأينا أنبياء انحدروا من أورشليم ، وقام واحد منهم اسمه « أغابوس » وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة ، الذي صار أيضاً في أيام « كلوديوس قيصر » . و « أغابوس » هذا رأيناه أيضاً في بيت « فيلبس المبشر » ينبيء بالروح القدس عما سيصيب بولس في أورشليم !

وقال كلفن : إني في كل حياتي كنت أكرز بالكلمة . الكلمة ذكرت الأنبياء . لكن بعد أن تمت رسالتهم صارت الرسالة في الكلمة . بدا أن لا حاجة إلى أنبياء من هذا النوع : غير أن الله في حكمته كان إذا ما جاء طاريء يستحق إعلانا ، يرسل ذلك الاعلان عن طريق الأحلام أو الرؤى أو ما شابه ذلك . لكن ما ذاع في كنائسكم كان

أقرب إلى البلبلة . أنباء عن شخص ينال حقه المالي من شخص . شخص يعود إلى وظيفته ، فتاة تتزوج ممن تحبه . زوجة يصالحها زوجها . ليس فيها اتجاه روحي . « أغابوس » في أنطاكية تنبأ . كانت هناك رسالة ، إذ تحركت الكنيسة لخدمة العطاء لكنيسة أورشليم . وفي قيصرية كانت لمجد الله ، إذ أعلن بولس أن حياته ليست ثمينة في نظره . أقول ليست ثمناً أكبر من أن يبذله لمجد إلهه . ومع ذلك فإني ياصديقي ، لا أستطيع أن أصل إلى أعماق حكمة الله . كل ما أخشاه أن يأخذ البعض الموضوع باستهانة . إن الروح القدس ياصديقي هو الله . وينبغي أن نقترب إلى الله بخشوع وهيبة . أنا لم أكتب في هذا الموضوع بطريق مباشر ، ولكنك إذا قرأت كتابي ، وإذا قرأت كتب التفاسير ، فسترى الرأي الذي ذكرته لك الآن !!

قلت : إنك في الحق تريح ، لا ذهني فقط ، بل قلبي أيضاً . ولذلك أقدم لك سؤالاً آخر ، لا أظن أنك تعرضت له مباشرة . وهو موضوع الألسنة المختلفة . لقد ذكر كاتب سفر الأعمال أن الروح القدس أعطى المؤمنين في يوم الخمسين موهبة التكلم بألسنة مختلفة . ولكنها كلها كانت ألسنة معروفة . سمعها ذووها وفهموها ، كان المتكلمون جليليين ، ولكنهم تكلموا بلغات مختلفة لم يكونوا يعرفونها من قبل . ولكن السامعين سمعوا أولئك الجليليين يتكلمون بالألسنة التي ولدوا فيها ففهموها . على أن الكتاب يذكر في ما بعد أن البعض تكلموا بلغات غير مفهومة ، احتاجت إلى مترجم يترجم بالروح . وفي هذه الأيام ، قام البعض ينادون بالألسنة ، بل يتمادى بعضهم فيقول إن التكلم بألسنة مختلفة علامة على المعمودية بالروح . وبهذه المناسبة ، فإني أسمع عن المعمودية بالروح القدس والإمتلاء بالروح القدس وحلول الروح القدس . وأنا لا أفهم الفرق بين هذا وذاك . على أن الذي أريد أن أفهمه بالذات الآن هو موضوع الألسنة !!

وقال « كلفن » : إني لم أتعرض مباشرة لموضوع التكلم بألسنة . ولكني تعرضت لموضوع خدمة العبادة . وقلت إنها ينبغي أن يسودها الخشوع ، إذ أنها تقدم في حضرة الله . وينبغي أن تتميز بالنظام والترتيب . وتكلمت عن الكرازة ولزوم وصول الكلمة واضحة إلى الأذهان والآذان . إذ ذاك يمكن أن تدرك عدم اتفاق الألسنة مع التعليم الذي ذكرته . نعم كانت الألسنة بحسب حكمة الله لازمة في وقتها . ولكن مواهب الروح القدس كثيرة . والروح القدس لا يمنح مواهبه جزافاً بل يمنحها في حينها . لقد أدت موهبة التكلم بألسنة مختلفة رسالتها ، وقد تركت لبقية المواهب المكان فسيحاً لخدمات مجيدة :

شكرت « كلفن » على توضيحاته . في الحق إنه برهن على إتساع ذهن أكثر مما كنت أتوقع منه ... وتهيأت لأسمع منه تحية المساء ... أو الصباح . لكني ذكرت بعض

الموضوعات التي سبق أن ذكرتها وطلبت إيضاحات عنها ذكرت ما تؤمن به بعض الجماعات المسيحية من وجوب عدم الاستعداد أو الأصح أن أقول عدم تخصص وعاظ للتعليم وعدم قيام من يعظون باستعداد مسبق . هؤلاء يقولون إن الواجب في الاجتماعات الكنسية أن يجلس العابدون صامتين أمام الله إلى أن يرشد الله أحدهم ليتكلم فيتكلم بما يلهمه الروح القدس لا بما يكون قد استعد فيه من قبل .

وأجاب « كلفن » إنه لم يتعرض لهذا الموضوع بشرح محدد . ولكنه أجاب عنه في ما قام به من وعظ ومن تعليم . إن خدماته تقدم جواب هذا السؤال . إن الروح القدس يرشد المعلم والواعظ قبل الاجتماع وبعد الاجتماع على السواء . لماذا إذن نحدد إرشاد الروح بزمان أو مكان محدد ... بل إن الواجب أن يتعلم من يرسلهم الله للخدمة أن لا يستهينوا بخدمتهم بل أن يهتموا بالاستعداد لها بالمثول أمام الله طول الوقت وطلب إرشاده وهذا ما عملته وأعتقد أن المواعظ التي قدمتها بالاستعداد المقدم كانت بإرشاد الروح القدس . وأنا شخصياً أوصي بالنظام والترتيب .

قلت لكلفن إن جوابه لسؤالي يستحق كل تقدير وأرجو أن نولي رأيه كل عناية .. ثم قلت له :

بقي أمامي موضوع آخر ذكرته أنت وأنت تقدم بحوثك في التبرير والحرية المسيحية . ونعمة الله الذي يستجيب الصلاة . قمت ببحث جديد عن التعيين السابق والاختيار الأزلي . هل تفضل أن تشرح الموضوع ؟ أم تنتظر أسئلتي ؟

قال : لقد شرحت وجهة نظري في كتاب المبادىء .

قلت : إن شرحك بالرغم من تعرضه لأسئلة السائلين لا يشبع ولا يقنع كما تقنع المناقشة . لعلك تسأل عن سر اهتمامي ؟

قال : لا . لا . إنه موضوع أعمق من أن يؤخذ بالبساطة ، وأنا مستعد أن أسمع ما ترغب أن تعرف !!

قلت : أعتقد أننا كلنا متفقون أن الروح القدس هو الذي يبكت وينير ويرشد ويقود إلى المسيح ويعطينا الإيمان . كل هذا عطية الروح القدس . الأقنوم الثالث . وأنا أومن بذلك . فهل يتفق هذا مع القول بالتعيين السابق ؟ ان الإعلان الإلهي الذي تحدث به السيد المسيح « لنيقوديموس » يقول : لأنه هكذا أحب الله العالم .. العالم (كله) . كنت أفهم أن المحبة مقدمة لكل إنسان وأفهم في نفس الوقت أن الإنسان ليس له أي

مساهمة في الحصول على الإيمان ، انه عطية الروح القدس . فهل تقصد أن الله عين البعض للخلاص وعين البعض الآخر للهلاك ؟ إذن ما معنى « ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليرجع .... » . وما معنى « توبوا وارجعوا لكي تمحى خطاياكم وتأتي أوقات الفرج من عند الرب » . ما معنى عشرات الآيات التي يدعو الله فيها الإنسان ... ؟ وما قولك في الإعلان الواضح أن الله يريد أن الجميع يخلصون ؟ قد أقبل أن البعض يرفوضون الدعوة . أما أن نقول إن الله عين البعض للخلاص والبعض للهلاك ... أظن إنك تتفق معي في أنه قول يحتاج إلى مراجعة . سبق لي أن قرأت إجابتك على الاعتراضات التي قدمت ضد هذا التعليم . لكن هل تسمح لي أن أقول إنك أنت نفسك غير مقتنع بها ؟ نعم ، أنت مقتنع بالعقيدة لكنك لم تستطع تعليلها تعليلاً مقنعاً . والدليل على ذلك أنك لجأت إلى قول بولس : « من أنت أيها الإنسان حتى تجاوب الله ؟ أليس للخزاف سلطان أن يصنع من كتلة واحدة آنية للكرامة وأخرى للهوان » . أعتقد أن بولس لم يقصد الاستنتاج الذي وصلت إليه أنت . بحسب استنتاجك أستطيع أن أقول : نعم أنا إنسان ، ولكن الله أكرمني فأعطاني الحق أن أحاجه . هو قال لي : « هلم نتحاجج معاً » . وأنا أستطيع أن أقول له : « أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً ؟ » إنني أفهم كلمة بولس بمعنى آخر غير الذي ذهبت إليه . أعتقد أن بولس قصد أن هذا سر عظيم من أسرار اللاهوت ، لايستطيع البشر الوصول إلى أعماقه .

وقد سمعت يوماً لأحد أعلام القسوس في القرن الماضي أن العالم في يوم الدينونة سيرى بوضوح أن الله محب وعادل ، بل إن الذين سيذهبون إلى جهنم سيرون أنهم لم يظلموا وسيشهدون أن الله محبة .

قل أن هذا سر لا نستطيع أن نفهمه ولكننا نقبله بالإيمان أو أن القضية غير واضحة تماماً وستعرفها هناك !!

إني ياصديقي لا أقدم العبادة إلا لله . ولا أومن بالعصمة للإنسان ، فأنا أخالفك ، وبالرغم من أنك عالم كبير وأنا لست عالماً بالمرة ، ولكني أختلف معك .

الأمر المدهش أنك تقول أن الإيمان بهذه العقيدة فيه ضمان أمن المؤمن . وأن التعيين السابق ، متى فهمناه على حقيقته ، لا يزعزع الإيمان ، بل الحري يكون خير ما يدعمه . وقد حاولت أن أفهم ما فهمته فلم أستطع . وأظن أنك أنت لم تفهمه !!

وقبل أن أتركك أرجو أن تعود إلى الآيات التي يذكر الكتاب فيها صريحاً أن الله سيجازي كل واحد كما يكون عمله ، خيراً كان أم شراً !!

أنا لا أقصد موضوع الخلاص بالنعمة ، ولكني أقصد علاقة هذه الآيات بقضية التعيين السابق !!

قلت : هذه الكلمات ثم تركت « كلفن » ... على أني عدت إليه مرة أخرى . انني غير مستريح . إنه يقول ان قضية الاختيار تبعث الاطمئنان إلى نفوسنا . انه يقول أن الله أحبنا ونحن بعد خطاة فلن يتخلى عنا مهما أسأنا . لأننا إن كنا ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا ، فكم بالحري ونحن متبررون ، فإننا نخلص بحياته . اننا كلنا كنا تحت الدينونة . لا حق لأحد منا في بر . لقد حكمنا نحن على أنفسنا ولكنه في رحمته اختار البعض للحياة . ومن ذا الذي يعارضه ؟ إنه حقه . لكني أدرك أن الله بالرغم من سلامة هذا القياس . هو أعظم من ذلك كثيراً . لابد أن هناك أسراراً أخرى لا نعرفها نحن البشر . لماذا لا نترك الأمر لله كلية فنقول له : يارب لتكن مشيئتك !!

سأقول للسيد : أنت قلت الذي يقبل إليّ لا أخرجه خارجاً . فسأقبل إليه . لن أسأل هل أنا مختار أم لا . لن أسأل . سأذهب وسأطرق الباب وسأدخل بناء على وعده . لن أهتم بالعقيدة . أنا لا أفهمها . لماذا أجادل فيها ؟ لماذا أبحث ؟ لتكن ما تكون .. ومع ذلك فقد أخطأت أنت « يا كلفن » . إنك طردت من الخدمة عالماً صالحاً لأنه أعلن أنه لا يؤمن بها . وأنت لا تزال تنادي بها . إن في الكتاب أشياء أخرى ثمينة ، فلماذا تنشغل عنها بهذه العقيدة . ووافقني كلفن أخيراً . وقال : إني طلبت من أتباعي أن لا يصرفوا كل وقتهم في فحص ذواتهم ليعرفوا عما إذا كانوا من المختارين أم لا . فطالما هم أعضاء في كنيسة المسيح فيجب أن يكون لهم اليقين من إيمانهم ، ومن ثم يجب أن يصرفوا كل طاقاتهم ، لا في فحص دواخلهم ، بل في العمل في العالم . فالشخص الذي لا يقلق من جهة اختياره ، يستطيع أن يتحدى العالم باسم الله في المسيح . ولقد قال لنا أحد أساتذتنا يوماً : لماذا نقلق أنفسنا بالبحث في هذا الموضوع ؟ لنسر في طريقنا إلى أن نصل إلى باب السماء ، فإذا قال لنا هناك أننا لسنا مختارين ، فلنبدأ المجادلة هناك . ثم قال : إنك حتماً ستكون من المختارين . إبدأ رحلتك بإيمان إنك مختار ولا تتعب نفسك بالبحث في أسرار حار فيها كبار الفلاسفة !!

١٩٨٢/١١/١٣

موضوع القيامة :

قلت لجون كلفن : ها قد وصلنا إلى آخر هذا الباب . لم يبق أمامنا سوى وصف القيامة الأخيرة . وينبغي أن أعترف أن ما وصل إلى معرفتي من كتابك عن هذا الموضوع قليل . وأنت تستطيع أن تتبسط معي في هذا الموضوع الخطير . خصوصاً وقد سمعت آراء كثيرة متعددة تركتني مرتبكاً !!

قال : لا بأس . أن تذكر بعض ما وصل إلى سمعك !

قلت : لقد وجد من أنكروا القيامة إطلاقاً . إن الحياة تنتهي هنا والخلود لا يتصل بالإنسان الجسدي .. إلا أن يكون من ناحية النسل . فنحن نقوم في أولادنا . ولكي يجد الذين لا أولاد لهم تعزية ، يقولون إننا نقوم في آثارنا سواء كانت مادية أو أدبية ! فالملوك العظام خلدوا أسماءهم في أهرامات وآثار أو حروب أو مواقع ، أو بنيان مدن أو شق ترع وأنفاق ، أو إقامة أنصاب وتماثيل . وبعضهم خلدوا أسماءهم في كتاباتهم وأشعارهم وهكذا ...

قال : ولكن ماذا يفيدون من هذا الخلود ؟ ما الذي يعود عليهم من منافع ؟ إنهم لن يحسّوا بشيء عاد عليهم .. هذا خلود لا قيمة له .. فهل عندك آراء أخرى ؟

قلت : إن بعض المذاهب المسيحية تقول بأن هناك قيامة أموات بالجسد . القديسون ينالون الحياة الأبدية ، والأشرار يذهبون إلى الموت الأبدي أي الفناء .

وصمت كلفن ، فاضطررت أن أتكلم . إن البعض يقول إننا سنقوم بأرواحنا لا بأجسادنا ليس في السماء مكان لجسد ....

قال : إن هذا الموضوع خطير ، ولا أستطيع أن أجزم في تفصيلاته برأي . أنا أومن بقيامة الأجساد . قام المسيح بالجسد . وقال الرسول إن الذين ماتوا في المسيح سيقومون . أنا أومن إننا سنقوم بأجسادنا ، لكن بعد أن تتغير فنكون نظير جسد يسوع المقام !

قلت : ولكن الجسد المقام اختلف الرأي فيه . فقد أكل السيد بعد قيامته وشرب ، وكشف عن جروحه .. فهل قام السيد بجسد جديد ، أم أن الجسد تغير بعد صعوده أو عند صعوده ؟؟

قال : في الحقيقة أنا لم أتعرض لهذا الموضوع ، لأني أومن أن يسوع قام بجسده بعد أن تغير . ونحن ننتظر مجيء المسيح ليغير شكل جسد تواضعنا ليكون على شبه جسد مجده حسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء !!

قلت : ولكن البعض ينادي بقيامتين ، قيامة الحياة ، وقيامة الدينونة . كما ينادون بالفردوس والسماء كمكانين منفصلين . وبالمطهر حيث يوضح الخطاة من المؤمنين ليتطهروا من الأوزار التي لصقت بهم !!

وقال كلفن : إنني في الحقيقة لم أهتم برأي في موضوع القيامتين . إنني لم أبحث الموضوع . يمكن أن تكون قيامتان . لكن الأساطير التي وافقت القيامة الثانية من قصص الملك الألفي ، وربط الشيطان ، والكرازة لليهود وعودتهم .. و .. مما يشغل ذهن الكثيرين ببحوث تدير الرؤوس ، فأنا أعترف لك أني لم أنشغل بهذا الأمر . أنا آمنت بالمسيح ، سلّمته حياتي . أسندت رأس زوجتي على الوسادة حين أسلمت الروح . وأسلمت روحي على رجاء قيامة الأموات حيث أرى الرب يسوع وأشاركه مجده مع جماعات المؤمنين لتخدمه نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين !!

هذا إيماني ولم أشغل نفسي بأية تفصيلات أخرى . سأقوم بالجسد الجديد وسأخدم المسيح نهارا وليلاً .. إلى الأبد !!

الحديث الثامن

استيضاحات خاصة بالباب الرابع

كنيسة المسيح

١٩٨٢/١٠/١٢

قلت للأخ كلفن.: ها نحن على وشك الفراغ من مناقشاتنا . ستستريح مني .. لا أقول نهائياً . بل أرجو أن أقول إلى حين . طالما أنا هنا سأستدعيك ، خصوصاً وقد عرفت الطريق إليك .....

هل تعرف أني أندهش وأنا أصل إلى الكتاب الرابع في « المباديء » . خيّل إليّ أنك تقول باسم الآب والابن والروح القدس والكنيسة ، الإله الواحد المربع الأقانيم » . وعبس كلفن وقال إنه لا يجوز الهزل في الروحيات !!

قلت : الحقيقة أنني لا أهزل . أنا لا أحب أن أضع الكنيسة مع الثالوث ...

قال : أخطأت ياصديقي .. وقبل أن يكمل حديثه قلت : أو تنوي أن تجعل من الكنيسة معبوداً ، صنما كما جعلتها روما ؟

قال : حاشا لله أن أفعل ذلك . ولكني أعتبر الكنيسة شخصاً لا شيئاً ، أنها عروس المسيح . أما « روما » فأهانت هذه العروس إذ أخفتها . شوهت جمالها ، وقام بالخدمة فيها ، إذا دعونا ما كانوا يقومون به خدمة ، بعض من اللصوص . كانوا في حاجة إلى أن يجيء السيد بسوط الحبال ويطردهم قائلاً : بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص . أعتقد ياصديقي أن مكان الكنيسة في كتابي هو المكان اللائق بها !!

قال : وأنا أكرم الكنيسة لأنها الوسيلة الخارجية التي يدعو بها الله شعبه إلى جماعة المسيح !!

قلت : أعتقد أنك لا تقصد أن تقول إنها الوسيلة الوحيدة . فقد يقوم فرد أو أفراد غير مرتبطين بالكنيسة ، ويقدمون الدعوة للخطاة !!

قال : إنني إنما أحدثك عن الوسيلة الخارجية الطبيعية . فإذا وجدت وسائل أخرى ، فإنها حالات غير طبيعية !!

قلت : ولكنك قد رأيت أن هذه العقيدة قد أحاطت المسيح بسياج ، وحرمت الدخول إلى السيد إلا عن طريق مفتاح بطرس ، وتاريخ القرون الوسطى خير شاهد على ذلك ...

قال : إن خطأ التصرف في الجهاز لا يطعن في لزومه . لقد أساءوا التصرف ، لكن شكراً لله إن هذه الإساءة لم تستمر . وأنت ترى الكنيسة حولك تؤدي خدمات مباركة ، لو انها كانت في أيامي ، لسجدت شكراً ليلاً ونهاراً . نعم ياصديقي ، إن الكنيسة واحدة !!

قلت : ترى ماذا تقصد بكلمة الكنيسة ؟

قال : هناك الكنيسة المنظورة والكنيسة غير المنظورة !!

قلت : متسائلاً : الكنيسة غير المنظورة ؟ ما هي وأين هي ؟

قال : إنها ياصديقي الكنيسة التي يراها الله حقيقة ، والتي لا يقبل فيها سوى أولاد الله بنعمة التبني وتقديس الروح القدس . وهي لذلك لا تضم القديسين الأحياء على الأرض فحسب ، بل كل المختارين منذ بدء العالم !

بالطبع أنا لم أتحدث عن هذه الكنيسة . لقد أتمت جهادها وهي تخدم أمام الله !

قلت : هل هناك صلة ، أقصد صلة منظورة أو محسوسة بيننا نحن على الأرض وبينها ؟

فأجاب : نعم هناك صلة ، فإن مسيحنا واحد ، وهو يربط بيننا ولكني لا أعلم عن أي مظهر مادي أو حسّي يجمع بيننا ؟

قلت : أني أسمع من كثيرين أن قديساً ظهر له ، أو قديسة ، وإنه نال الشفاء ، أو خرج منه الروح النجس !

وأجاب كلفن : أني لم أتعرض لهذا الأمر . مع أنني كنت أعيش في هذا الوسط . لم أتعرض له في كتابي على ما أذكر . ربما أكون قد تعرضت في عظاتي أو بعض التفاسير التي

كتبتها ، لكنني بالتأكيد أنكر التشفع بالقديسين ، لا لأني لا أوليهم تقديرهم الحق ، ولكن لأن لا حاجة لي بهم ، والسيد المسيح هو شفيعي . لماذا ألجأ إلى العبيد ، والسيد نفسه يقيم في بيتي ، بل في قلبي ؟ لماذا ؟ هل ترى سبباً لذلك ؟ كل الملائكة والقديسين هم عبيد الله . بل العذراء نفسها ، سيدة النساء أجمعين ، التي حملته في بطنها وعلى صدرها السيد نفسه ، قالت : هوذا أنا أمة الرب . لئن كانت العذراء المطوبة من جميع الأجيال هي ، باعترافها ، أمة الله ، فماذا يكون الآخرون ؟

على كل حال لنترك هذا الموضوع ونلتفت إلى موضوع الكنيسة المنظورة . وهي كنيسة تضم مؤمنين حيقيين ومؤمنين زائفين !!

قلت : فهل تستطيع أن تميز بين الكنيسة الحقيقية والكنيسة المزيفة ؟ وهل يمكن أن تميز بين المختارين وغير المختارين ؟؟

قال كلفن : إنه لا يجوز أن تنتظر جواباً أكيداً . إن أحكامنا هي أحكام البشر ! إنه حيثما نجد كلمة الله يكرز بها نقية خالصة ، وحيثما تمارس الفرائض طبقاً لتعاليم المسيح ، فتلك ولا شك هي كنيسة الله . كما أننا نعرف أن أعضاء الكنيسة هم الذين يعترفون بالإيمان بالسيد ، ويسلكون الحياة المستقيمة ، ويشتركون في الفرائض . ويقومون بالعبادة . أقول هذا قد يقدم جواباً ، لكن الحكم الحاسم هو لفاحص القلوب والكلى .

قلت : هل من المحتم أن نرتبط بالكنيسة المنظورة ؟ إن جماعات كثيرة في هذه الأيام تناهض الكنيسة . تكرز بمسيحية الفرد . كنا نسمعهم يقولون « المسيح والكنيسة » ولكننا نسمع منهم اليوم « المسيح فقط » . بل نسمع أكثر من ذلك « المسيح وحده وليس الكنيسة » . والذين يقومون بهذه الحركة جماعات قوية « مسنودة » وقد نجحت في قطع الربط بين الكثيرين وبين الكنيسة ، خصوصاً من الشباب والكنيسة . أقول الشباب ، وأقصد الشباب الطيب . أخشى أن أقول لك أنه قد قامت خصومة بين شباب الكنائس والقيادات الكنسية الرسمية . عدد كبير منهم قاطعوا اجتماعات الأحد ونشاطات الكنيسة المختلفة . وفي محافل مختلفة امتنعوا عن التقدم إلى مائدة العشاء الرباني بحجة أن الأهم الولادة الجديدة لا الإنتماء للكنيسة ..

وكذلك يمتنع الكثيرون عن حضور اجتماعات للكنيسة ... بحجة أن الرعاة والقادة وبعض الأعضاء لا يقدمون صورة حسنة للحياة المسيحية . والوعظ لا يتسق مع الجو العصري .. وهكذا من مختلف المقادير ... وأنا شخصياً لا أضع كل اللوم على ناحية واحدة !!

وقال كلفن : إنه لا يجوز النظر باستهانة إلى هذه الكنيسة المنظورة ، فهي شيء جوهري لحياة المؤمن . ولا عذر إطلاقاً لبقاء المؤمن بعيداً عنها سواء كان ذلك لرياء الأعضاء أو لعدم استحقاق الرعاة . إن المؤمن الحقيقي لا يعطله معطل عن تمسكه بالكنيسة .. كان السيد يذهب إلى المجمع كل سبت حسب عادته، مع أن قادة المجمع والأعضاء كانوا أشر الناس . إن الطريق إلى ملكوت الله هو غفران الخطايا ، وغفران الخطايا يمنح عن طريق الكنيسة وثبت واقفاً وصرخت : ماذا تقول ؟ غفران الخطايا يمنح عن طريق الكنيسة ؟ هل رجعنا إلى مفاتيح بطرس وإلى سلطان الكنيسة ؟ هل عدنا إلى كنيسة روما ؟

وقال كلفن : مهلاً . مهلاً . أني أعرف ما أقول . نعم ، غفران الخطايا يمنح عن طريق الكنيسة . ففي شركة القديسين تغفر لنا خطايا باستمرار بواسطة خدمة الكنيسة . عندما يشدد الرعاة الضمائر النقية بمواعيد الإنجيل ، في رجاء العفو والغفران ... قلت أخشى أني لا أفهم تماماً ما تقوله . بل أظن أني لست مستعداً أن أفهمه . فهل لك أن تزيدني توضيحاً !!

قال : اسمع ، إن الواجب أن نراعي ثلاثة أمور :

أولاً — إننا طالما نحن في الجسد ، ومهما كانت قداستنا ، فإننا نظل عاجزين عن الوقوف أمام الله بدون مغفرة خطايا !

ثانياً : إن الحصول على هذه الفائدة هو من اختصاص الكنيسة ، فنحن لا نستطيع التمتع بها إلا إذا ثبتنا في شركة الكنيسة !

ثالثاً : إن هذا كله يتم عن طريق خدام الكنيسة ورعاتها سواء بالكرازة بالإنجيل أو بممارسة الفرائض !!

وعليه فليعتبر كل واحد منا أن الواجب عليه هو طلب مغفرة الخطايا من حيث وضعها الرب ... في الكنيسة أنا لا أقول من الكنيسة بل في الكنيسة !!

قلت : يغلب أني أتهم نفسي بالغباء . إنني لم أفهم شيئاً مما قلت . أنا أفهم أني محتاج إلى غفران الخطايا ، وأفهم بركة الشركة الروحية في الكنيسة ، وأفهم نعمة الكرازة وممارسة الفرائض . لكن غفران الخطايا موضوع شخصي . والشركة وكلمة التعليم ليست قنوات لنوال الخلاص . وإنما هي قنوات لتقوية حياة المؤمن . هذا ما كنت أفهمه . لكن كلامك يعني غير ذلك . أو على الأقل يظهر لي أنه يعني غير ذلك . أم أني لم أفهمك لضعف في فهمي أو لعدم إلمامي بلغتك الأصلية ؟ أني بدون جدال أهتم بالكنيسة وأهتم بموضوع

الانضمام إليها، وحضور اجتماعاتها وممارسة الفرائض فيها . لكني أعتقد أنها ليست القناة الوحيدة للوصول إلى المسيح . إني أعتقد أن موضوع الولادة الثانية موضوع شخصي ، يأتي عن طريق كرازة الكنيسة ، لكنه قد يأتي عن أي سبيل آخر . على كل حال يكفي أن أؤمن أن الرسالة الأولى للكنيسة هي الإتيان بالخاطيء إلى المسيح لينال بالإيمان باسمه غفران الخطايا !!

وقال « كلفن » : أني لا أعترض على ما تقول . لكني أجيب عن دعوى الكثيرين أني بحركة الاصلاح التي قمت بها قصدت إلى هدم الكنيسة . أنا لم أفكر في هدم الكنيسة ، ولا أستطيع أن أهدم الكنيسة . الكنسية مبنية على الصخرة ، وأنا أعلن أنها هي كنيسة الرب يسوع ، وأن السيد أقامها لتشهد لحقه ولتنادي بالإنجيل . وفي هذه لم أتعرض لأية قناة أخرى لكن القناة الطبيعية هي الكنيسة والكنيسة النقية !!

قلت : فأنت تحسب كنيسة روما كنيسة المسيح أيضاً ؟!

قال : إن كنيسة المسيح كنيسة واحدة . إن الوهن الذي يصيب إحدى نواحي الكنيسة لا يغير من طبيعتها . إنما يجب العمل على إصلاحها . وهذا ما قام به « بطرس والدو » و « جون ويكلف » و « هبو لاتمر » و « جون هس » و « زونجلي » و « سافانرولا » و « مارتن لوثر » و « فيليب ميلانكثون » .. و« أنا » . إننا لم نؤسس كنيسة جديدة . وقد لاحظت إني قدمت قانون الإيمان الذي كان « أثناسيوس » أحد بناته وسمعتني أتحدث عن « أغسطينوس » . إنني لم أبن كنيسة جديدة ياصديقي . أنا لا أستطيع أن إبني كنيسة . إن السيد هو نفسه الذي قال « أبني كنيستي » . وهذه الكنيسة ينبغي أن نتناولها بالاحترام والتقدير وعدم الاستهانة . والذين ينكرون مكانها ، يسيئون إلى نفس المسيح . قل لقادة الشباب الذين يحاربون الكنيسة إنهم يضطهدون المسيح نفسه ، أنا لا أنكر أن كثيرين قبلوا المسيح قبل أن يدخلوا الكنيسة ، ولكنهم وجدوا أنفسهم بعد ذلك يسيرون نحو الكنيسة . قليلون جداً ، نظير بولس ، اهتدوا إلى السيد بعيداً عن الكنيسة . إن الغالبية العظمى عرفت المسيح وهم داخل الكنيسة ، والذين لم يذهبوا إلى الكنيسة ذهبت الكنيسة إليهم !! كذلك أرجو أن تقول لقادة الكنيسة ان الذنب كله ليس ذنب الشباب أو الهيئات التي تحارب الكنيسة . قل لهم إن جانباً كبيراً من اللوم عليهم هم !

قلت فأنت توصي باحترام الكنيسة والعناية بكل ما يتصل بها من جميع النواحي . يلزم القيام بالترتيب اللازم لضمان استمرار الخدمة بصورة مجدية !!

قلت : لقد سبق أن تحدثنا عن خدمة الكنيسة وقد أشرت إلى أربعة وظائف كنسية .

قال : نعم إن الخدمة تقوم بأربع وظائف أهمها وظيفة الراعي ومهمته الأولى المناداة بالكلمة وخدمة الفرائض والقيام بالتحذيرات والتحريضات وحفظ النظام . والوظيفة الثانية وظيفة المعلم الذي عليه أن يفسر الكتاب ويحفظ العقيدة صحيحة نقية بين المؤمنين . ثم الشيوخ المقامون من الجماعة وعليهم المشاركة في مسئولية حفظ النظام . ثم الشمامسة المقامون أيضاً من الجماعة وعليهم مسئولية رعاية الفقراء . وتبدو أهمية وظيفة الراعي في أن الثلاثة الآخرين يسند لكل منهم عمل معين ، وأما الراعي فخدمته تشمل كل الخدمات الموضوعة على الآخرين ، بل أكثر منها !!

قلت : فأنت قد ألغيت وظيفة الكاهن ؟

قال : وكيف تقول أني ألغيتها وقد صيّر السيد جميع المؤمنين كهنة ؟ لقد كان الكاهن هو الوسيط بين الشعب والله . كان هو الذي يدخل إلى الأقداس ويطلب إلى الله من أجلهم . لكن الطريق الآن مفتوح لكل إنسان . أقصد كل مؤمن . إنهم ليسوا في حاجة إلى من يدخل إلى الأقداس بالنيابة عنهم !!

قلت : وأنا ألاحظ أنك بالرغم من إعطاء وظيفة الراعي أهميتها ، ألغيت الرئاسات الدينية ، فلا أساقفة ولا رؤساء أو أساقفة ولا بابوات !!

قال : إني لم ألغ وظيفة الأسقف . أنا أعطيتها مكانها الحقيقي . إنها وظيفة الراعي المفتقد . وقد جعلت الرئاسة — إذا كنت تطلق على خدمة المسئولين رئاسة — جعلتها لهيئة لا لفرد . فبدلاً من الفرد صار المجمع . وإذ ذاك لا تصير الخدمة سلطاناً طاغياً . وقد رأيت تعسف الأساقفة ورؤساء الأساقفة . كما رأيت أنهم لم يجدوا الرقيب الذي يردهم إلى الصواب إذا شطوا يميناً أو يساراً !!

قلت : وقد لاحظت أنك ألغيت التسلّم الرسولي ؟!

قال : ان التسلّم الرسولي عود إلى الكهنوت اليهودي . وقد أدّعت روما أن المسيح سلم « سلطان » الخدمة لبطرس أصلاً ، ولباقي الرسل تجاوزا ، وهؤلاء سلّموه لأساقفة ، وهؤلاء الأساقفة قاموا بتسليم الكلمة إلى الكهنة . وبذلك أحاطوا الكنيسة بسياج ، ومُنع الكثيرون من القديسين من الخدمة ، ونصبت الكنيسة نفسها سيداً لا خادماً . لقد قال المسيح : أنا بينكم كالذي يخدم . وقد رأيناه يجلس عند أقدام التلاميذ الفقراء ، يغسل أقدامهم ، لا على كرسي عالٍ يسود على الأنصبة . نعم رأينا على رأسه إكليلا ، لا إكيلاً من ذهب

مرصعاً بالجواهر بل إكليلاً من شوك . رأيناه يحمل في جنبه لا صولجاناً ملكياً علامة سيادته بل طعنته حربة . لقد تحولت الخدمة ياصديقي ، إلى سيادة وسلطان . أنا لم أفكر أبداً في التقليل من شأن الكنيسة ، ولكني عدت بها إلى وظيفتها الأصلية .

قلت : ولكن كيف يتقلد هؤلاء الموظفون وظائفهم ، وقد ألغيت التسلم الرسولي ؟

قلت : إن الذي يدعو إلى الخدمة ليس الرسول بطرس أو بولس أو أحد الرسل ، إنه السيد المسيح نفسه . ينبغي أن يسمع المدعو صوت السيد يرسله . ألم تسمع إلى « عاموس » وهو يقول لكاهن بيت إيل : لست أنا نبياً ولا ابن نبي ، أنا راعي غنم وجاني جميز وقد أخذني الرب من وسط الضأن وأرسلني . هكذا يفعل الله اليوم !!

قلت : ولكن ألا تخشى من دخول غير المدعوين ألا تخشى دخول المدعين ؟

قال : بالطبع أخشى . وقد أنبأ الرسول بولس بذلك . ستدخل الذئاب وسط الخراف لذلك قلنا ان الدعوة ينبغي أن يؤازرها أمران : ينبغي أن يكون المدعو مدعوماً بتأهيل للخدمة ، يستند على حياة تقية وصيت حسن ومعرفة كتابية . وقد ذكر الرسول بولس « لتيموثاوس » و « لتيطس » عن مؤهلات هذه الخدمة النبيلة . كذلك يجب أن تثبت الدعوة باختيار الجماعة ... وينبغي أن يقام لهذا النظام دستور . في كل كنيسة تقوم هيئة الخدام بتدبير الكنيسة وفي مجموع الكنيسة تقوم هيئة الرعاة والمدبرين بتسيير الكنائس المحلية وفق ذلك التدبير . وبهذا النظام تضمن إلى حد بعيد عدم « الحكم » الفردي وعدم الطغيان . ستكون أخطاء ولا بد ، ولكنها لن تكون بالكثرة التي يأتيها سلطان الفرد . وستكون أخطاء يمكن معالجتها . هذا هو النظام الذي وضعته لكنيسة « جنيف » . وللكنائس التي تسير على نطاقها !!

قلت : هل تسمح لي أن أسألك ، هل كان النظام الذي رسمته سليماً مائة في المائة ؟ ألم تختبر فيه أشياء متعبة ؟ ألم تحس يوماً بأن للنظام الأسقفي ، أي نظام الفردية ، بعض الحسنات ؟

وقال كلفن : يخيل إليّ أنك تكاد توحي إليّ أن في نظام الإصلاح الكثير من السيئات . ولاشك أن في ما توحي به بعض الصحة . إن أي نظام ياصديقي ، إذا تسلّمته يد أمينة ، سيكون بركة . حتى نظام البابوية . لكن النظام الأسلم هو في وجود شيء من الرقابة . إن النظام الإصلاحي يعطي الشعب حق الرقابة ، وهو حق نافع على شرط أن يكون عند الشعب الوعي الكافي . ذلك أن البعض يتخذ المناقشات الديمقراطية

فرصة للفوضى والبلبلة . في كنيسة روما يتحكم فرد واحد في كل شيء في الكلام وفي الكتابة . وفي هذا انضباط . ولكن فيه ولاشك كبتاً للحرية من جهة ، وانتشاراً لأفكار باطلة لا تجد من يقف ضدها . وأنا أحد ضحايا هذه الفردية !!

قلت : ولكن تلك الفردية كان يسندها رأي عام جبار . ولعلك لم تنس أن « نقولا كوب » عندما ألقى خطابه لم يقم الرئيس الأعلى أولاً ، بل قام أساتذة الجامعة ، وقامت المظاهرة ؟!! قال : لا تصدق إن هؤلاء كانوا يمثلون أنفسهم . إنهم كانوا يعبدون الفرد . ولو أن ذلك الفرد أمرهم لصمتوا !!

قلت : ألست ترى أنت في الفردية ضماناً لنظام مستقر ؟

قال : لا . لأن طول الكبت يولد الانفجار ، والفردية حسنة إذا كانت اليد التي تمسك أمينة لله !!

لكن الجماعة ، بالرغم مما قد يحيط بها من متاعب ، تنتهي غالباً إلى عقب سليم . لقد كانت الحرية سبباً في ظهور « كاستيلو » و « سرفيتوس » وأمثالهما . وفي المجالس الكنسية تشاهد البلبلة والفوضى وعدم الاستقرار ولكنك تطمئن على الأقل أن العالم يسمعك . يسمع الرأي ، ويسمع الرأي الآخر . ويمكننا أن نتلافى مساويء حكم الجماعة بتربية الشعب على الديمقراطية الصحيحة القائمة على الدرس واحترام رأي الغير وعدم الكلام إلا عند اللزوم . وقد رأينا الدول المتمرسة في الديمقراطية ، وكيف تسير أمورها سيراً دقيقاً سليماً .

قلت : ليتهم يتعلمون ذلك في مصر !!!

فهز « كلفن » رأسه ، وبعد صمت قليل قال : أظن اننا فرغنا من هذا الموضوع . فلننتقل إلى غيره !!

قلت : نعم إننا فرغنا ، ولكني الآن فقط ، تذكرت سؤالاً جانبياً ، لاشك أن أهميته ضئيلة ، وأنا أتردد هل أطرحه للمناقشة ؟ أني لم أذكر أني قرأت لك شيئاً عنه . ولكنه لم يكن غريباً عنك . ذلك السؤال يتصل بالملابس الكهنوتية . لقد لبستها أنت . لا أعلم هل عدت إليها ؟ في بلادنا كان للرعاة في الجيل الأول ملابسهم ـــ البدلة الافرنجية المؤلفة من البنطلون والسترة الطويلة .. طبعاً كله باللون الأسود . لم يكن الرعاة يلبسون ثياباً زاهية أو بيضاء . وتغير الحال وصار الرعاة يلبسون كما يلبس غيرهم . الثياب البيضاء والأكمام

العارية ، والاكتفاء بالقميص والبنطلون . على أنهم في خدمة الأحد كانوا يلبسون الثياب الكاملة بألوان داكنة !!

وسرت في الآونة الأخيرة « مودة » « الأرواب الاكليريكية » والجامعية . وقد انقسم الشعب بصددها فريقين : فريق يحبذها لأنها تحفظ للراعي « كرامته » ومركزه المحترم وتقديره في المعاملات ، وعلى المنبر تميزه عن الشعب ، وتقدمه كرجل الله .. ومن هذا الفريق من يقول أن الثياب تعلن وظيفته ، ويحتمل بسببها ما تلاقيه الوظيفة من هوان عند الكثيرين . هؤلاء يقولون إننا لا نقصد بالأرواب امتيازاً ولكن مسئولية ، على أن فريقاً آخر ينكر الأمر من أساسه ، ويقول إن الراعي ينبغي أن يكون واحداً من الشعب ، يأكل مع الشعب ، ويشرب معهم ، ويجلس على الأرض كواحد منهم . ألم يقدم السيد لنا هذا المثال ؟ فقد جاء باعتباره ابن الإنسان ؟؟!

وقال « كلفن » : إني في الحقيقة لم أول هذا الموضوع أي اهتمام . لقد عرفني الناس دون أن أميز نفسي بثياب . لكن أظن أن بعض أتباعي ظل يحتفظ بالملابس « الكهنوتية » . لم يكن موضوع هذه الملابس ذا شأن . وأنا أحس أن وقتي أثمن من أن أنفقه في هذه المسألة التافهة !!

ــ الدســتور :

تقدمت إلى « كلفن » وقلت : سبق أن ذكرت في ما ذكرت أن الكنائس المحلية المختلفة تضمها هيئة تتألف من ممثلين لهذه الكنائس ، وقلت إنه ينبغي أن يكون لهذه الهيئة دستور حتى تتم كل الأشياء بلياقة وبحسب ترتيب ...

قال : نعم لقد ذكرت ذلك ، وقد وضعت أنا تصميم ذلك الدستور .. بل وضعت دستوراً لمجلس المدينة . على أن ما وضعته لم يكن أمراً مفروضاً ، بل قد درسه المعنيون ووافقوا عليه . ودستور الكنيسة كان يضم أشياء كثيرة ، منها ما يتصل بموضوع الفرائض والشعائر والتوجيهات اللازمة للعبادة ، والتعليمات المختصة بترتيل الترانيم ، وتعليم الأولاد أصول الإيمان ، والصيام والفرز من الكنيسة ــ وبالإيجاز ، يجب أن يتناول هذا الدستور كل الأمور التي تؤدي إلى حفظ النظام واستتباب السلام !!

ــ العبـادة :

قلت : جاء في كتابك شيء عن ترتيب العبادة . ولقد كانت روما ومن سار مسارها يهتمون بما يدعونه القدّاس . الحقيقة أني لم أفهمه تماماً أقصد اني لم أفهم ترتيب العبادة كما جاء في كتابك . أظن أنه رتب أن يتلى فصل من الكتاب ، تتلوه صلاة معينة . أحياناً طويلة وأحياناً قصيرة ، وتأتي بعد ذلك فرصة المناولة . وأنا هنا لن أتعرض للمناولة نفسها . سأجعلها موضوع المناقشة بعد ذلك . أقول لك بالرغم من أني إنجيلي و أني لم أفهم القداس ، ولم أوله دراسة ، لأني من طفولتي كنت أحضر الكنيسة الإنجيلية ، لكني سمعت من الأخوة الكثيرين أنهم يعتبرون القداس أهم جزء في العبادة بل قال البعض أنهم إذا لم يحضروا خدمة القداس ، فانهم يحسون أنهم لم يعبدوا .. وأنا لا أريد أن أدخل في صدق تفكيرهم ، ولكني أذكره وأسألك : هل رتبت لهم في الخدمة ما يملأ فراغ قلبهم من هذه الناحية ؟

قال : بل فعلت أكثر من ذلك . وضعت في الخدمة مشاركة الكنيسة كلها في خدمة الترتيل . أقول الكنيسة كلها ، رجالاً ونساء . وقد حدثت نهضة عظيمة ، وتمتع الناس بما جعلهم يهتفون سروراً !!

ثم رتبت خدمة الوعظ . كانت الكنيسة الأولى تولي خدمة الوعاظ اهتماماً . وقد سمعت « يوحنا فم الذهب » في الشرق ، و « بوردالو » و « امبروزيوس » في الغرب . ولكن الكنيسة أهملت الوعظ ، فضعف شأن العبادة . إذ ذاك ، رتبت إعادة خدمة الوعظ الذي كان بركة للكثيرين وقد حمل الوعاظ رسالة التعليم والتوجيه والتوبيخ والإرشاد والتعزية والتطمين . نعم كل الناس يتلهفون على خدمة الوعظ . بل بالغوا في ذلك حتى ظنوا أن الوعظ هو كل الخدمة . هذا خطأ بالطبع . ولكنه يكشف لك أنه يمكن أن توجد في العبادة خدمات مباركة تشبع قلب الشعب . وبالطبع أضيفت خدمات قراءة الكتاب المقدس . لقد تعلمنا من اليهود أن نقرأ فصولاً من موسى ومن المزامير ومن الأنبياء .. كما تعلمنا أن نقرأ فصولاً من الأناجيل والرسائل . وفوق ذلك أولينا خدمات المعمودية والعشاء الرباني اهتماما خاصاً . كنا نقيم العشاء الرباني مرة في الأسبوع لكل الكنيسة !!

نعم رتب إلهنا ملء الفراغ كاملاً . لم تحس كنيسة الاصلاح نقصاً بالمرة في أية ناحية من نواحي العبادة . هذا فضلاً عن أن الشعب وجد في يده نسخ الكتاب المقدس والترانيم ، فكانت شركته في العبادة كاملة !!

ــ الفرائــض :

قلت لكلفن : أعتقد أننا تحدثنا قبلاً عن الفرائض . لقد نسيت كل شيء تكلمنا فيه . وقد حاولت أن أعود إلى مذكراتي فلم أهتد إليها بسهولة . أعتقد أننا إذا عدنا إلى الموضوع ، فسيكون هناك شيء من التكرار . لكن لابد وأن يكون شيئاً جديداً ! لا أظن أني فهمت منك عن مفهوم الفرائض ومكانها في الإيمان وحتميتها .. وعددها وممارستها . إنها موضوع كبير يتطلب وقتاً وطويلاً . لقد تركت أعمالاً كثيرة لأجلس إليك . أرجو أن أفرغ من الحديث معك قبل أن تنتهي أيامي على الأرض !

صدقني أني لست متلهفاً على طول الأيام . ولكني لا أكذب عليك فأقول أني متلهف على انقضائها . إني أصلي كل يوم أن يعطيني الله أن أقول : لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح . على كل حال ، أنا في هذه اللحظة معك . وأرجو أن أستكمل مناقشاتي معك طالما أنا هنا ..

أسأل : ما هي الفرائض ؟ ماذا تعني بها ؟ ما عددها ؟ ما مكانها في العبادة ؟ ما لزومها ؟ كيف نمارسها ؟

وقال كلفن : الفريضة علامة خارجية بها يختم الرب على ضمائرنا مواعيد مشيئته الصالحة من نحونا ، لكي يدعم ضعف إيماننا . ونحن بدورنا ، نظهر ورعنا من نحوه ، أمام الرب وملائكته وأمام الناس !!

قلت : ترى هل هذا التعريف تعريف مجمع عليه ... ؟؟

قال : بالطبع لا . فان التقليديين لا يدعونها فريضة بل سراً . لكن الإنجيليين أيضاً ، ولو أنهم يتفقون في المعنى ، قد يختلفون في كلمات التعريف ، فالبعض يسميها شهادة عن النعمة السماوية من نحونا ، مؤيدة بعلامة خارجية ، في شهادة مشتركة عن ورعنا من نحوه !!

قلت : فهل ثمة تعريف آخر ؟

قال : نعم ، فهي صورة منظورة لنعمة غير منظورة . هكذا قال أوغسطينوس وأنا أتفق معه !!

قلت : ترى ما هو مكان الفريضة من الخدمة ؟

قال : إن للفريضة عمل الكرازة بكلمة الله ، أي إعلان المسيح ونمو العابد في معرفته معرفة حقيقية . لذلك يجب عدم الفصل إطلاقاً بين الفريضة وبين الكرازة بالكلمة . ويجب المناداة جهاراً بالمواعيد حتى تؤدي الفريضة عملها !!

قلت : إن « روما » تقول إن للسر فاعلية ذاتية ، أي أن ...

وقال كلفن مقاطعاً : كلا . كلا . إن كل الفاعلية لروح الله . إن نفس الكلمة ، إن لم يصحبها روح الله ، تكون بلا تأثير . الله هو الأول وهو الآخر ياصديقي !!

قلت : لقد علمت أن هناك خلافاً بين تعليمك وتعليم « مارتن لوثر » بشأن الفرائض .

قال : نعم . فقد كان « لوثر » يعتقد أن العهد القديم لا يشتمل شيئاً من الفرائض . وقد كنت في أول الأمر أتفق معه ، إلى أن قرأت ما كتبه « بوسر » راعي « استراسبورج » . ورأيت أن العهد القديم اشتمل على فرائض مقدسة مثل العهد الجديد ، فريضة الختان مثلاً ، والمعموديات ، والتطهيرات ، والذبائح ، كانت فرائض نظير فرائض العهد الجديد ، غير أنها كانت تنظر إلى المسيح الآتي . نعم إنه معين من الأزل ، لكنه جاء في ملء الزمان . أما فرائض العهد الجديد ، فتقدم لنا المسيح الذي نراه أمامنا !!

قلت : ولعل من اللازم أن تخبرني عن فرائض العهد الجديد . إن الكنائس القديمة تقول أن عددها سبع . وهي أسرار : المعمودية والأفخارستيا (العشاء الرباني) والتثبيت والاعتراف والكهنوت والزواج والمسحة !

وقال كلفن : ولماذا لا تضيف عليها الكرازة والافتقاد وتعليم الكتاب والصلاة والتسبيح ؟ أليست كل هذه وسائط للنعمة ؟

قلت : إذن لماذا لا نلغي الفرائض اطلاقاً ، لأنها فعلاً لا تزيد في عملها عن الكرازة والتعليم ؟

أجاب : لأسباب كثيرة ، أكتفي بسبب رئيسي ، أن السيد أمرنا بالقيام بهما . رتب لنا كيفية ممارستها وأمرنا أن نتممها !!

قلت : أخشى أن هذا السبب لا يمنع اعتبار الكرازة مثلاً فريضة ؟ ألم يقل : اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا ؟ وهنا يقول التقليديون أن هناك الكهنوت !!

قال : إن هذا تخريج عنيف . ومع ذلك فنحن نقول بكل هذه « الأسرار » دون أن ندعوها أسراراً . لقد أمرنا أن نصلي وأن نكرز وأن نتصدق وأن نصوم وهكذا .. ولكنه رسم فريضتين رسماً خاصاً وأمر بهما . والكنيسة الأولى لم تضم الفرائض الخمس الأخرى إلا بعد قرون عديدة ...

ـــ فريضة المعمودية :

والآن دعني أسألك عن الفريضة الأولى . ومع أنها بسيطة في مظهرها ، إلا أنها كانت ومازالت موضوع مناقشات حادة !!

قال : فما الذي تريد أن تعرفه عنها ؟

قلت : أريد أن أعرف ما هي ، وما هو أثرها ؟

قال : هي علامة على الأساس الذي به نقبل في مجتمع الكنيسة ، فنطعم في المسيح ، لكي نحسب بين أولاد الله !

قلت : إذن ليست هي الميلاد الثاني . وطالما سمعت الكلمات : إن كان أحد لا يعتمد بالماء والروح ...

وقال كلفن : إنهم يحرفون الآية . إنها إن كان أحد لا يولد من الماء والروح ، وهي في الأصل الريح . والماء يرمز للكلمة ، والريح ترمز لروح الله . الميلاد الثاني شيء آخر يختلف كل الاختلاف عن المعمودية . يمكنك أن تقول أن المعمودية هي الختم ، هي العلامة الخارجية لحقيقة داخلية . العلامة المنظورة لحقيقة غير منظورة !

قلت : كأني بك تقول أن لا فوائد لها ؟

قال : بل لها فوائد عدة . فهي علامة وبرهان على تطهيرنا . لا لأن الماء في ذاته يطهر ، ولكن لأنه مع ممارسة الفريضة ننال معرفة هذه الهبات والتأكد منها . إنها تعلن موتنا في المسيح وحياتنا الجديدة فيه . إن الصراع لاخضاع ذواتنا له يبدأ بمعموديتنا ويستمر يوماً بعد يوم . ولن ينتهي هذا الصراع إلى أن ننتقل من هذه الحياة لنكون مع الرب إنها تتحدنا في موت المسيح وحياته حتى ننال كل بركات هذه الحياة .. صحيح أن الختم ليس هو الذي قدم العطية ، ولكنه يعلن ويؤكد أن العطية حقيقية !

إن الختم يعلن أن قرار الرئيس بالعطية ، صادق ومضمون . من أجل هذا كان للختم قيمته العظمى !!

قلت : هناك عدة أمور خاصة بالمعمودية ، لا أعلم ان كنت قد أوليتها اهتماماً . بحثت هنا وهناك فلم أجد من يجيبني . أولا : هل يجوز أن نعمد الصغار ، أو بالأحرى هل يتحتم أن يعمد الصغار والكبار وإلا حرموا من رؤية الملكوت ؟ وثانياً : كيف تتم المعمودية بالرش أو بالسكب أو بالتغطيس ؟ وثالثاً : هل يجوز لغير من « تسلموا الكهنوت » أن يقوموا بفريضة المعمودية ؟؟

وأجاب كلفن : لقد سبق وتناولت هذه الموضوعات ، ولكنني لست متأكداً من كتابتي فيها . ربما كتبت عنها في كتب التفسير . على كل حال ، سيكون جوابي غير بعيد عما كتبت .

أما أولاً ، فان المعمودية هي ختم عهد بين المؤمن والله . وهذا العهد قائم بين المؤمن وبين نفسه من جانب وبين الله من الجانب الآخر . وإذ يتقدم الوالدان بأولادهما إلى الله ، يعلنان تبعية البيت لله ، ويقومان كوكيلين عن الأبناء في إعداد الأولاد لاتخاذ القرار لأنفسهم . لا أقول ، يجوز أن يتعمد الأولاد ، بل يتحتم أن يتعمدوا ليعرفوا أنهم داخل العهد المقدس . يتحتم أن يتم ذلك ، إلا إذا استحال لظروف قاهرة . وقد أشاع الكثيرون أن الطفل الذي لم يتعمد سيذهب إلى بقعة ليس فيها نور من الفردوس . وأنا لم أسمع أن في الفردوس مكاناً لا نور فيه . انهم يفسرون كلمة « لا يرى » تفسيرهم المضحك . عقيدتي مع الأطفال لا تختلف عنها مع الكبار . هي عقيدة التعيين السابق . المختارون وغير المختارين !!

قلت : اسمح لي أن أقول لك أنني أختلف معك . فأنا أؤمن أن جميع الأطفال ، نعم ، جميع الأطفال لهم نصيبهم الكامل في السماء . جميعهم مختارون . وموضوع كيفية ممارسة المعمودية يحتاج إلى ذهن مفتوح ينبغي أن يقوم بالممارسة خادم مرتسم . وموضوع الخلافة الرسولية أصبح موضوعاً مملاً ، ومحاولة احتكار الكنيسة لطبقة من الناس محاولة فاشلة . إن الله أكبر من تفكيراتهم الضيقة . وكيفية التعميد ليست هي الأمر الجوهري . الأمر الجوهري هو المعمودية ذاتها والعهود المقدمة . لا يوجد سر خاص في الماء !

وقال كلفن : أما موضوع التعيين السابق فقد اتفقنا على عدم الخوض فيه لأنه يبدو أننا لن نتلاقى فيه . وأنا أعتبر الخوض فيه مضيعة للوقت . ومع أنني لا يمكن أن أتنازل عن رأيي ، إلا أني « الآن » لا أملك أن أحكم بهرطقتك . فلك أن تعتقد في هذا الأمر كما تريد . أما عن باقي ما تحدثت فيه فإننى متألم أنه يوجد إلى الآن من يحتفظون بالعقول

الضيقة . أخشى أن أقول القلوب الضيقة . على كل حال ، أنتم أفضل حالاً اليوم مما كنا عليه بالأمس ، إذ كان عقاب غير المعمدين بواسطة الكهنة « خلفاء الرسل » . ليس عدم الاعتراف بمعموديتهم فقط ، بل بالحكم بزوالهم من الحياة ...

واستمر كلفن في كلامه قائلاً : إن الله أمر لنا بكنوز من البركات . بركة تطهيرنا من خطايانا ، بركة شركتنا في موت الرب . بركة تجريد الشيطان من سطوته ، بركة إضعاف شهواتنا .. وقد أعلن لنا هذه البركات بإعلانه ، وأيد هذا الإعلان بختم المعمودية . وهنا تبدو أهمية المعمودية !!

ــ العشاء الرباني :

قلت لكلفن : الحق أني تعبت من مناقشة هذا الموضوع . موضوع العشاء . إن الكنيسة الكبيرة في مصر تؤمن بما تؤمن به كنيسة روما . إنهم يؤمنون أنه بمجرد صلاة « الكاهن » على الخبز والخمر يتحولان إلى نفس جسد المسيح ودمه . إنهم لا يريدون أن يفكروا . ترى هل يتحولان إلى شخص المسيح ؟ وكيف يفصلون بين الجسد والدم ؟ إنهم لا يريدون أن يسمعوا . لقد قال : هذا هو جسدي ، وهذا هو دمي « هذا هو » !!

وقال كلفن : وأنا أيضاً تعبت . الحقيقة أن العشاء الرباني لغز . إنه ليس مجرد ذكرى مع أن الذكرى ليست شيئاً ميتاً . إنه أكثر من ذلك . إن السيد يحضر بنفسه في المائدة !!

قلت : لقد قال « لوثر » إنه يحضر بجسده ودمه في المائدة دون أن يغيرها . إن الخبز والخمر يظلان خبزاً وخمراً . ولكن المسيح يحل بصورة سرية بجسده ودمه مع الخبز والخمر . وقد سبق لي وأنا أتحدث إلى « مارتن لوثر » أن قلت له إنه زاد من تعقيد القضية أكثر من روما . وبالطبع لايزال « لوثر » (أقصد أتباعه لأنه لابد وأن يكون قد اكتشف الحقيقة الآن) متسمكاً برأيه !!

قال كلفن : يسوءني أننا لم نتقابل . فلو أننا تقابلنا ، ربما كنا استطعنا الوصول إلى نتيجة أفضل ....

وقال كلفن : أنا أعرف أن كنيستكم لا تؤمن بالاستحالة . لكنها تؤمن بوجود شخص يسوع في المائدة !

قلت : ولكن الناس بدأوا يتفلسفون فهم يسألون : وهل لابد من وجود الخبز والخمر لكي يحضر المسيح ؟

قال كلفن : إنه سؤال مقلوب . إننا نمارس الفريضة . إن الخبز والخمر ليسا موضوع مناقشة . إنهما موجودان ، وينبغي أن يكون السؤال : إذا كان لابد منه ، هل حضور المسيح في مائدة العشاء أمر ضروري ؟ إن السيد رتب الخبز والخمر . ليس الخبز والخمر موضوع بحث . ونحن نقول إنه لابد من حضور المسيح روحياً . وكما يتغذى الجسد بعناصر المائدة ، نعلن أن الروح تتغذى بالسيد نفسه . إن الاستحالة فيها إهانة لجسد المسيح . أنا لا أرسل جسد المسيح إلى معدتي أو إمعائي . ولكني أتغذى بالمسيح روحياً ، المسيح الروحي . في حياتي الروحية !!

قلت : إذن نستطيع أن نقول : أننا ننال قوة روحية كلما تناولنا !!

قال : بلا جدال . فإن عشاء الرب يقوي إيماننا في الله . إذ نتذكر موت المسيح . الموت الذي صار حياة لنا . حياة نظير حياة السيد نفسه . حياة المحبة والسلام . إن نفس التناول هو شهادة منا للعالم ، نخبر بموت الرب ، الموت الذي هو المظهر المجسم الحقيقي لمحبة الله . وسحقه للخطية .. بل نخبر أيضاً بالمسيح الذي قام والذي صعد إلى السماء ، وهو جالس عن يمين الله يشفع فينا .. بل نخبر باستمرار ، ونظل نخبر ونخبر ، إلى أن يجيء السيد . أقصد أن التناول نفسه « يخبر » .. التناول يتكلم ويشهد للعالم !!

وقال كلفن ويجدر بك أن تذكر الشركة التي لم يوجد نظيرها منذ بدء العالم ، إلى أن ينتهي . إن الملايين جلسوا ويجلسون على هذه المائدة . إنك ترى فيها أخوة قوية ، جمعت ابناء الله في كل الأجيال وإلى بدء الحياة الأبدية . فكر ياصديقي في هذه المائدة التي لم يوجد نظيرها . لا عجب أن قام الجالسون عليها وسبحوا . أشكر الله من أجل الكنيسة ، الكنيسة منذ بدأت وإلى المنتهى !!

قال كلفن هذه الكلمات ثم عقب : أظنك قد فرغت مني ؟

قلت : لن أطيل الكلام عليك . سأسأل فقط بعض الأسئلة القليلة . سأضعها قدامك الآن لترى إن كنت تقبل أن تجيب عنها أم لا :

سؤالي الأول : يتصل بالعلاقة بين الكنيسة والمجتمع . والمجتمع الذي أقصده أوسع من المجتمع الذي تعرفه . أقصد الكنيسة والدولة . والدولة التي أنا فيها غير دولتك . والمجتمع الذي أعيش فيه يختلف كل الاختلاف عن مجتمعك . وأنا لا أطلب إلا الإجابة التي يدعوها رجال القانون عندنا « إجابة القياس » !!

سؤالى الأول إذن : ماذا ترى في العلاقة بين الكنيسة والحكومة ؟ كانت الحكومة التي

تعاملت أنت معها حكومة مسيحية . ولكن الحكومة التي في بلدي هي حكومة إسلامية .

وقال كلفن : إن ما ذكرته في كتابي عن حكومة « جنيف » ينطبق على كل حكومة . إن ما ذكرته هو هذا : أظن أنه هو بالحرف تشجيع وصيانة العبادة العلنية لله !

قلت : إن حكومة بلادنا تعلن حرية ممارسة الشعائر الدينية ، وتحمي بيوت العبادة ومن واجبها أيضاً الدفاع عن التعليم السليم عن التقوى ومركز الكنيسة (فإنها بحسب الدستور ينبغي أن تفعل ذلك) .

وقال كلفن : واجب الحكومة هو تكييف حياتنا مع المجتمع . وتشكيل سلوكنا الاجتماعي وأن تصالحنا بعضنا مع البعض ، وأن توفر السلام العام ... واجب الحكومة أن تتيح لكل إنسان أن يطمئن على سلامة ممتلكاته ، وأن يعيش في أمن وسلام وأن يتعامل الناس مع بعضهم البعض بصورة مرضية وأن مراعاة الأمانة والحشمة بين الناس ...

قلت : إن ما ذكرته يصلح قاعدة لكل حكومة . واجب الحكومة العمل على سلامة كل القيم السامية في المجتمع ، وأخصها بالحرية ، بالطبع الحرية التي لا تمس حرية الآخرين ، حرية القلم وحرية اللسان وحرية القلب وحرية اليد بالضوابط اللازمة لضمانها للجميع . واجب الحكومة أن تعاون على ممارسة العبادة لجميع المواطنين الذين يدينون بالديانات المعترف بها . وأن تكفل المساواة الكاملة بين المواطنين ، في حدود القانون . وتكفل العدالة الاجتماعية والعدالة الدينية .

وبعد صمت قلت : الأفضل أن أسمع منك عن كنيسة جنيف وحكومة جنيف . لا داعي أن أحشرك معي في علاقة الكنيسة بالحكومة في بلد آخر !!!

قلت : ترى هل نطلب أن نؤسس الحكومة على قواعد الكنيسة ؟ أو دعني أكون صريحاً ، ترى هل الأفضل أن تندمج الكنيسة والحكومة كما كان الحال في البلاد الكاثوليكية ، في فرنسا مثلاً ؟

قال : لقد حاربت الفكرة في جنيف . أنا أنادي بانفصال الحكومة عن الكنيسة لكني كنت أطلب أن تكون الكنيسة مستقلة في اجراءاتها الداخلية . لقد جاهدت في سبيل ذلك .

قلت : ولكنك كنت تكافح ليكون رجال الحكم من أبناء الكنيسة المصلحة . لم تكن العدالة مكفولة للجميع . بالطبع أنت كنت تطلب ما يتفق مع ظروفك . ماذا كنت تقول لو كنت مسيحياً في بلد غير جنيف ؟ أما كنت تطلب أن ينفصل الدين عن الدولة

انفصالاً تاماً ، وأن يكون التشريع محايداً ، يحافظ على سلامة العقائد كلها ، ويعامل المواطنين جميعاً بالمساواة الكاملة ؟

قال كلفن : إنني ناديت بالفصل بين الدولة والكنيسة . ولكنني طلبت أن تكون الحكومة في جنيف مسيحية ... للظروف التي كانت سائدة في ذلك الوقت .

قلت : وكنت تعمل على أن تكون الحكومة مسيحية مصلحة . وقد عاملت الحكومة المواطنين من غير رجال الاصلاح بمقتضى قوانين بعيدة عن المساواة . أنا أطلب أن تكون الحكومة لا دينية . لا أقصد أن رجالها بلا دين ، بل أقصد أن تكون في تشريعها بعيدة عن المؤثرات الدينية أو المذهبية . ثم قلت : أني أتكلم من وجهة نظري أنا ... !!

قال : ومع ذلك فإن الكثيرين هاجروا إلى جنيف لأنهم وجدوا فيها الأمن والحرية والاستقرار ، الأمور التي لم تتوفر في غيرها !!

قلت : إن الذين هاجروا إلى جنيف كانوا الجماعة المطاردة من كنيسة روما . وأنا لا أطلب أن تكون الحكومة مسيحية بهذا المعنى . فقد ترامى إلى سمعي أن الحكومة في « جنيف » كان من قوانينها معاقبة من لا يحضرون خدمات العبادة في الكنيسة يوم الأحد ، ومن لا يقدسون يوم الرب كله . وكانت تحاكم الأولاد والبنات (أو والديهم) الذين لا يواظبون على حضور مدارس الأحد .

قلت : إني أرفض أن تفرض الفضيلة فرضاً وتسن لها القوانين والأحكام ، إلا في ما يتصل بالإساءة للغير . أطلب أن تنبع الفضيلة من القلب . وأطلب أن تكون هذه الخطايا أموراً تحكم فيها الكنيسة أحكاماً روحية بمقتضى قوانين كنيسية ، لا أن تحكم بعقوبات جنائية !!

قال كلفن : إنني لا أتفق معك في ما تقول . إلا جزئياً . توجد أوقات يتحتم أن تؤخذ الأمور بالعنف . والإساءت الأمور . ألست ترى أن الحكومات الديمقراطية تلجأ في أوقات الخطر إلى أسلوب الدكتاتورية ؟ وقد رأيت ذلك ولابد ، في حكومة روما في تاريخها الأول ، قبل ظهور المسيحية . وفي أيامك هذه ألا ترى الحكومات في ظروف معينة تطلب من ممثلي الشعب أن يبيحوا للحكومة أن تسير بقوانين الطوارىء ؟

قلت : هذا صحيح . فقط لفترة قصيرة جداً بالنسبة للحكومات . أما بالنسبة للكنيسة فالأمر غير ذلك . إن الإصلاح المفروض بالقوة لا يستمر . إن نفس المسيحية إزدهرت في وقت الاضطهاد . لم يستطع العنف أن يضعفها . أظنك تذكر ياصديقي أن الإصلاح ليس مسئولاً عن قتل « جروت » و « سرفيتوس » . إن كتب التفاسير وكتاب

المباديء هي التي خلدت الاصلاح وخلدت اسم « كلفن » . وقتل « الهراطقة » كان نقطة سوداء في تاريخ الإصلاح . كلا ياصديقي . أنا لا أوافق على العنف .

أما سؤالي الثاني فيتصل بموضوع التأديب الكنسي . فقد كثر الكلام هنا أقصد في مصر عن هذا الأمر . وفي دستور الكنيسة كتب واضعو الدستور باباً خاصاً بالتأديب فيه فصول ومواد وقالوا إن سبب ضعف الكنيسة أنها أهملت التأديب الكنسي !!

وقد سمعت أنك وضعت قواعد للتأديب الكنسي . وفي كنيستنا ذكرت لك أن في كتاب الدستور الكنسي باباً كبيراً فيه عشرات المواد للتأديب ، فماذا ترى في هذا الأمر ؟

قال : أنا أرى فعلاً ضرورة قيام الكنيسة بإجراء التأديب على المخطئين . وقد رتبت المواد اللازمة لذلك !

قلت : لا أذكر أين قرأت . أو متى قرأت عن الكنيسة الكاثوليكية ، إنها كانت عند توقيع حكم الحرم على أحد الأعضاء ، إنها كانت تجلل جدرانها بالسواد ، معلنة الحداد . كان المعنى أنها لا توقع العقاب إلا وهي حزينة . وسواء كان هذا تظاهراً ، أو كان عن اخلاص ، فإن هذا ما يتحتم أن يكون !!

كنت أرجو أن يبدأ باب التأديب الكنسي بمقدمة هي رسالة محبة للخاطيء أو المخطيء ، وأن يكون دستور التأديب مختلفاً عن قوانين العقوبات في الأحكام المدنية والجنائية !

قال : لقد أوقع الله العقاب على حنانيا وسفيرة . وأعلن بولس الرسول أنه يسلم الخطاة للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح .

قلت : أما موضوع حنانيا وسفيرة ، فإن العقاب إذا حسبته عقاباً ، فقد أوقعه الله وليس الناس . وقول الرسول بولس فيه التفكير في الإنقاذ لا الإهلاك . أما أن تقيم محكمة ، وتوقف متهماً وتدعو شهوداً ، وتعاقب بمادة أو مواد ، فأمر لم يرسمه المسيح . لقد كان يهتم بالضال حتى يهديه ، والعاثر حتى يقيمه . فإذا ما هلك إنسان ، فان المسيح بريء من دمه !!

وقال كلفن : فهل ترى وجوب ترك الخاطيء أو المخطيء في الكنيسة بدون إجراء شيء معه ؟

قلت : كلا . أنا لم أقل ذلك . إني أتبع ما عمله المسيح . إذا أخطأ إليك أخوك فوبخه ، إن تاب فاغفر له . إذا لم يقبل التوبيخ ، فادع شاهدين .. فإذا لم يسمع فادع

الكنيسة .. وبعد ذلك إذا ما تقسى فليكن عندك كالوثني والعشار . أنت لم تحكم عليه . هو قد حكم على نفسه . لذلك أنا لا أدعوه « التأديب الكنسي » ، بل أدعوه « العلاج الكنسي » . إن مهمة الكنيسة لا أن تهلك الناس بل أن تعمل على خلاصهم !

قال كلفن : إني لا أستطيع أن أقبل رأيك ومع ذلك فأنا معجب به . وقلبي يرق له . وأرجو أن تنجح رسالتك هذه .. فإني أهتم أولاً وآخراً بمجد الله وسلامة الكنيسة !!

ـ نوع الحكومة :

قلت لكلفن : أما وقد كان لك ضلع في إدارة الحكومة . وقد عرفت أنك وضعت لائحة قدمتها لمجلس المدينة ، وشجعت أعضاء من أتباعك أن يلتحقوا بالمجالس الحكومية ، أقول إنك وقد ساهمت بعض المساهمة في الإدارة الحكومية ، فأي نوع من الحكومة تفضل ؟

وأجاب كلفن قائلاً : أحب أولاً أن أقول لك أن المسيحية تستطيع أن تتعامل مع كل أنواع الحكومات . إن المسيحية تهتم بالمباديء العامة ، وأية حكومة سليمة تؤدي الواجب ، لا ترفضها المسيحية . غير أني شخصياً أفضل ألا تكون الحكومة ملكية ولا دكتاتورية . أفضل أن يكون الحاكم منتخباً من الشعب وأن يقوم بجانبه مجلس مؤلف من عدد من الأعضاء المنتخبين ، أو تقوم خلفه هيئة تتألف من عدد يذكر ، لمراقبة وزرائه ومحاسبتهم متى لزم . النقطة الهامة عندي أن لا ينفرد بالحكم . ليس معنى ذلك أن الحاكم المطلق لا يمكن أن يصلح ، لكن معناه إنه لضمان عدم الخطأ أو الأصح أن أقول عدم الخطأ الكثير ، يستحسن أن تقام ضوابط للحاكم ، من مثل قيام مجلس صغير أو كبير . وهذا النظام يضمن ، لا عدم الخطأ إطلاقاً ، لكن يضمن على الأقل عدم الشطط !!

قلت : فأنت لا تختار نوعاً خاصاً للحكم ؟

قال : كلا . ولكنني أفضل الحكم الجمهوري !

ـ واجب الكنيسة والمواطن نحو الحكومة :

قلت : ترى هل يمكنك أن تعطي رأياً عن واجب الكنيسة وواجب المواطن نحو الحكومة أو الحاكم ؟ هل تشير أن تشترك الكنيسة في الحكم ؟ هل توافق أن يكون القسيس أو الأسقف حاكماً ، أو أن تكون الكنيسة نفسها هي الحكومة ؟ ولعلك رأيت حكومة الفاتيكان ..

وقال كلفن : أني لا أوافق البتة على هذا الرأي . وقد اتهمني البعض أني أسير كما لو كنت حاكماً . إنني أطلب أن تقوم الكنيسة برسالتها الخاصة ، وهي أنبل رسالة ، رسالة الكرازة بكلمة الله . ولا أوافق اطلاقاً أن يكون القسيس حاكماً . إن خدمته أمجد من أية خدمة أرضية . إنه سفير ملك الملوك ورب الأرباب . ولا أوافق أن تتدخل الكنيسة في شئون الدولة الإدارية أو السياسية .. بصفتها كنيسة ...

لأعضاء الكنيسة أن يفعلوا ذلك بصفتهم مواطنين لا بصفتهم ممثلين للكنيسة . إني أنادي بالفصل بين الكنيسة والدولة من هذه الوجهة . أنا أرجو أن أنفذ قول المسيح : اعطو ما لقيصر لقيصر وما لله لله !!

قلت : فهل معنى ذلك أن لا تكون هناك علاقة بين الكنيسة والدولة ؟

قال : أنا لا أقول ذلك . إن الكنيسة جزء من الدولة ، وينبغي أن تعاون الكنيسة بوظيفتها الطبيعية في إيجاد حكم سليم ، أولاً بالصلاة لأجل الحاكم ومن يعاونونه فهذا ما أوصى به الرسول بولس . وثانياً بالولاء للحكومة ، أية حكومة . وربما كان الولاء هو الذي يدفعها للصلاة . وكذلك على الكنيسة أن توجه المواطنين ، عن طريق خدماتها الكنسية ، نحو الولاء والطاعة والمعاونة .. وبتعليم شعبها ليكونوا نموذجاً للمواطنين الصالحين في تصرفهم وسلوكهم وقيامهم بالواجب عليهم ، فتكون معاملتهم صادقة نحو الجميع ونحو الحكومة . وأن يدفعوا الضرائب المطلوبة !!

قلت : وإذا أعلنت الحكومة الحرب فبماذا تنصح المواطن ؟

قال : إن الحكومة لها هذا الحق . وعلى المواطنين أن يطيعوا . أنا لا أشجع التمرد . أنا أقول إنه يمكن معارضة الحكومة بالطرق القانونية . وقد نجحنا في جنيف عن طريق المجالس وتشجيع انتخاب أفضل المواطنين !!

قلت : هل تنصح بذلك ولو كان الحاكم ظالماً ؟

قال : أنا أنصح بعدم السلوك المعوج بحجة العمل على إصلاح الاعوجاج . إن المؤامرات والدسائس والإرهاب والفتن أمور لا تتفق مع الروح المسيحي ؟!

قلت : فاذا ما كانت الأوامر الحكومية تخالف أوامر الله ؟ إذا ما طلبت الحكومة عبادة الوثن أو إنكار المسيح أو ... أو .. من مختلف الأوامر التي لا تتفق مع المسيحية فبماذا تشير ؟

قال : هنا أشير بعدم الطاعة . غير أني وقد تندهش من كلامي ، لا أشجع العنف . أنا أطلب المقاومة السلمية . وفي أيامكم علمت أنكم تلجأون إلى هذه الوسيلة ، وسيلة المقاومة السلمية ، من اضرابات وعدم تعاون .. وقبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، أن تصلوا صلوات حارة !!

كم تأثرت وأنا أقرأ قصة « هيرودس والكنيسة » عندما قبض « هيرودس » الظالم المسنود بقوة رومية والمعضد بتعصب الشعب ، عندما قبض على « الرسول بطرس » وكان مزمعاً أن يقدمه للقتل بعد العيد .. فماذا عملت الكنيسة ؟ لقد عمل هيرودس كل إجراءاته ضد الكنيسة . وأما الكنيسة فكانت تصير منها صلاة بلجاجة لله من أجله . وانتصرت الكنيسة .

قلت : أرجو أن نكون كلنا قد تعلمنا هذا الدرس ياصديقي !

ـــ النظام الاجتماعي :

كان كلفن يتهيأ للانصراف ، عندما تذكرت ما قاله لي بعض الأصدقاء عن آثار « كلفن » في الحياة الاجتماعية . فقد اتهمه البعض أنه كان يعمل على تأييد الرأسمالية . لم يكن هناك شيء اسمه الشيوعية ، لكن كان هناك شيء أوسع من الاشتراكية . وقد قيل إن « كلفن » كان يقاوم هذه الروح ، ويعمل على تأييد الرأسمالية . وقد سألت كلفن في ذلك وكان جوابه أن الناس أخطأوا تفسير بعض اجراءاتي . فمن الناحية السياسية والإدارية ، كنت أناصر الديمقراطية كما قلت لك . وذلك بتشجيع تكوين المجالس وتأييد « الحكم المقيد » . ربما كان في ما كنت أقوم به ـــ مما يشبه الفردية ـــ ما يظنه الناس ملكية .. ورأسمالية . لكنك لن تجد أحد يقول لك إن « كلفن » ترك مالاً يرثه ذووه . لقد عشت فقيراً مستوراً ، ومت فقيراً مستوراً . ولقد كتب أحد البابوات في معرض حديث عن « الهرطوقي » الذي لم يكن للمال أدنى تأثير على حياته وخدمته ، بل قال إنه لو كان حوله عشرة من رجال الكنيسة من ذلك النوع الهرطوقي لأمكنه أن يهز أركان الدنيا .

وقال كلفن : إنه لا يتجه نحو أي نظام اجتماعي في شكله . لا يهمه أن يكون النظام رأسمالياً أو اشتراكياً أو كما تسمونه أنتم اليوم شيوعياً ، كل ما يهمنا أن يحمل سمو المباديء المسيحية ، يجد فيه المواطن الأمن والاستقرار والستر !!

البدء في دراسة
كتاب المباديء

ونظر كلفن إليّ وقال : أعتقد أننا قد فرغنا من كل كلام ..

قلت : على كل حال إذا تذكرت شيئاً آخر ، فسأدعوك لأني عرفت عنوانك ، واثق أن الله سيرسلك ... ثم ... لماذا لا نركع معاً ونرفع صلاة شكر لله .

وسجدنا ورفعنا قلوبنا لله . وظللنا مدة طويلة في روح الشركة . ولما رفعت رأسي كان « كلفن » قد تركني .

بدأت من اليوم « أدرس » نعم « أدرس » كتاب « المباديء » !!

١٩٨٣/٣/٥

عودة كلفن :

لم أعن كثيراً باثبات تواريخ اللقاءات الأخيرة مع كلفن . أعتقد أنه تركني في أوائل ١٩٨٣ . وغاب عني مدة . لم أكف عن التفكير في موضوع حديثي معه ..

واليوم وأنا جالس محني الرأس على مقعدي في الكنيسة .. الدموع تملأ وجهي وجسمي يهتز إهتزازاً عنيفاً . في الحقيقة أنا لست في وعيي . أمامي « صندوق » داخله جثمان . يقولون إنه يضم جثمان ولدي .. يضم في داخله قلبي .. أسمع كلاماً لا أعيه .. طنين يملأ أذني ...

وها أنا أسمع همساً هو همس صديقي . قال لي : أنا الآن أذكرّك بقيامة سيدك . إفتح عينيك ، أنظره إلى جانبك . إسمعه يقول لك : أنا هو القيامة والحياة .. أعتقد أنك اليوم تؤمن بقيامة الأجساد !!

اليوم ترى بركة الكنيسة التي تسمع المسيح فيها يقول لك :

أنا هو القيامة والحياة .

من آمن بي ولو مات فسيحيا .

سيقوم ابنك وستراه .

نعم سيقوم فؤاد .

أتؤمن بهذا ؟

أعترف أني ترددت فترة .. وبعد صمت غير طويل فتحت فمي وقلت بصوت ضعيف ولكن بنغمة واثقة !

نعم ياسيد ، أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله !!

هذا الكتاب

كاتب هذا الكتاب مؤلف مشهور له عديد من المؤلفات لعل أشهرها كتب الدقائق والأحاديث ..

وهذا حديث آخر يجريه الدكتور القس لبيب مشرقى مع علم من أعلام الإصلاح ليبين فيه رأى كالفن فى أمور كثيرة بإسلوب شيق موضحا إيجابيات آرائه وسلبياتها ..

فهو كتاب دراسى فى أسلوب حديث ممتع ..